

إصدار: سطور الجديدة

IRAN

تصوير  
أحمد ياسين

# تأثير إيران ونفوذها في المنطقة

إلهه روستامي - موشى  
ترجمة: د. فاطمة نصر

الجمهورية الإسلامية الإيرانية

# تأثير إيران ونفوذها في المنطقة

تأليف: إلهه روستامي - پوفي

ترجمة: د. فاطمة نصر

لصوير  
أحمد ياسين

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب

**Iran's Influence**

**A Religious- Political State and Society in  
Its Region**

تأليف: Elaheh Rostami - Povey

الناشر: Zed Books, 2010

جميع حقوق النشر محفوظة للناشر  
طبعة سطور الأولى ٢٠١١



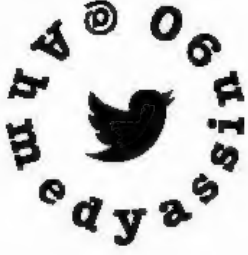
لصویر

أحمد یاسین

لوینر

@Ahmedyassin90

---



نصير  
أحمد ياسين

تأثير إيران ونفوذها في المنطقة



لتطوير  
أحمد ياسين

---

إصدارات سطور الجديدة

---

رئيس مجلس الإدارة: دفاطمة نصر

---

المستشار الفني: حسين جيل [gopy\\_art@yahoo.com](mailto:gopy_art@yahoo.com)

---

– نفوذ إيران وتأثيرها في المنطقة

– تأليف: إلهه روستامى – پوڤى

– ترجمة: د. فاطمة نصر محمد

– غلاف: حسين جبيل gopy\_art@yahoo.com

– المراجعة اللغوية: عمر حسن الشناوى omar\_shenawy@yahoo.com

– إخراج فنى: جابر محمد عبداللطيف jaberlatef@yahoo.com

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع: 2011-5217

الترقيم الدولي: 3-82-5868-77

جميع حقوق التأليف محفوظة للمؤلف

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لـ سطور الجديدة

٨ و ٢٣ تقسيم الشيشينى بجوار الكوبرى الدائرى

كورنيش المعادى ت: ٢٠٠٢٤٠٠/٢٥٢٦٣٥٩٩

e.mail address: sutour@link.net

الموقع الإلكتروني

<http://sutour-aljadida.blogspot.com>

[www.sutouralgadida.info](http://www.sutouralgadida.info)

## المؤلفة

إلهه روستامى - پوڤى كاتبة وباحثة. تعمل باحثا مشاركا بمركز دراسات السينما والإعلام، وعضوا بمعهد لندن لدراسات الشرق الأوسط، ومركز الدراسات الإيرانية، ومركز دراسات الجندر بكلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن. تتركز أبحاثها على إيران وأفغانستان والشرق الأوسط، وبخاصة على قضايا الجندر فى إيران وأفغانستان. لها كتاب «الأفغانيات: الهوية والغزو (٢٠٠٧)» وكتاب «النساء والعمل والحركات الإسلامية: الأيديولوجيا والمقاومة فى إيران» (١٩٩٩) وصدر كلاهما باسمها المستعار، أى مريام پويا.

تصوير

أحمد ياسين

تويتر

@Ahmedyassin90

يقوم هذا الكتاب على أساس شهادات أدلى بها إيرانيون وعراقيون ولبنانيون وفلسطينيون ومصريون - نشطاء، صحفيون، لاجئون، منفيون وأكاديميون - من مختلف التوجهات السياسية التي تراوحت بين التوجهات الإسلامية والحدائثية إلى اليسارية العلمانية والقومية والنسوية. حاورت هؤلاء طوال الفترة ما بين عامي ٢٠٠٧ و٢٠٠٩، في إيران وسوريا وفلسطين ومصر وبريطانيا.



وعلى الرغم من أن العنف الذي ساد العراق حال بينى وبين الذهاب هناك، فقد أجريت حوارات مع عراقيين في سوريا وإيران والمملكة المتحدة، أثرتُ فضول الكثيرين منهم. فعلى الرغم من أنني أشبههم، فلم أكن أتحدث العربية أو أردى الحجاب. سألوني «من أين أنت؟» وحينما كنت أقول «من إيران» كان رد فعلهم المباشر هو «أهلا وسهلا، إيران زينة»، في إحدى زياراتي للقاهرة، قال لى حارس لأحذية المصلين فى إحدى ضواحي القاهرة الفاطمية، وكان رجلا فى منتصف العمر «إيران كويسة، إن شاء الله تصنع القنبلة». كانت تلك المشاعر تتكرر على مستوى يومى فى جميع زياراتى لبلدان المنطقة، يرددها سائقو سيارات الأجرة وأصحاب المحال التجارية والناس بالمطاعم. كان تماهيههم مع «إيرانيتى» مذهلا - ليس على أساس أنني امرأة غير محجبة من ذلك الجزء فى العالم، أو لأننى مسلمة

أو شيعية، أو غير مسلمة، أو علمانية، أو أي من هذا. كان يكفيهم أنني إيرانية كي يعبروا عن دعمهم لإيران. كانت تلك المشاعر هي التي حفزت اهتمامي بإجراء الأبحاث، والكتابة عن صورة إيران في مدركات تلك المجتمعات، كجلد يمر بتغيرات على المستوى الداخلي، وأيضاً من حيث دورها في المنطقة وفي نطاق السياسة الكوكبية. وهكذا، شكلت أبحاثي الميدانية، وبخاصة حوارتي، جزءاً مهماً من تحليلاتي.



لصویر

أحمد ياسين

لوینر

@Ahmedyassin90

---

## مقدمة

مهمتى فى كتابى هذا مزدوجة. أولاً، سأتناقش ديناميات السياسة الداخلية فى إيران منذ عام ١٩٧٩. فعلى مدى العقود الثلاثة الأخيرة، يزغرت إيران كنزلة دينية/ سياسية - أى دولة دينية ذات تركيز كبير على الأيديولوجيات القومية والمعانية للإمبريالية. سيوضح تحليلى لإيران منذ عام ١٩٧٩ أن التناقضات المتأصلة فى الدولة الإسلامية آخذة فى العمل على تغيير حدود الإسلام المحافظ وفى سبيلها لأن تؤدى إلى ظهور حركة ديموقراطية مهمة.

ثانياً، أناقش المبركات الكوكبية والإقليمية عن سياسة إيران الخارجية منذ ثورة عام ١٩٧٩ والتي اكتسبت تأييداً لدى غالبية شعوب الشرق الأوسط. سأحاول تقديم الحجج على أن تأثير إيران ونفوذها يعكسان كيف أن الجماعات المتنوعة في البلدان المختلفة ترى سياسة إيران الخارجية نقيضاً لسياسة الولايات المتحدة الخارجية. وعلى الرغم من تنوع الهويات الدينية والقومية، تتماهى غالبية الشرق الأوسط مع موقف إيران ضد الولايات المتحدة وإسرائيل في مواجهة ما يسمى «الحرب على الإرهاب»، والنيوليبرالية، وتوجهات المحافظين الجدد، والصهيونية.

يضع هذا الكتاب ديناميات سياسة إيران الداخلية، وأثر إيران ونفوذها في لبنان والعراق وفلسطين ومصر، يضعها في السياق الأوسع للكلونيالية والإمبريالية والصهيونية. واستناداً على ذلك، يناقش تأثير

التطور الاجتماعي/ الاقتصادي، والتوجهات القومية والإسلامية، والمسار السياسي لتلك التجارب التي أنتجت تغيرات متميزة في كل من تلك المجتمعات. وفي هذا السياق، أناقش سقوط اليسار العلماني، والقوميين العلمانيين، وأوضح خطوط صعود التيار الإسلامي كقوة بديلة، يقتضى هذا تفحص تناقضات الإسلام السياسي وأوجه قصوره وطبيعته الدينامية، وذلك لأن تلك العوامل المتعددة كان لها عميق الأثر على الديناميات الداخلية لإيران، وعلى نفوذها وتأثيرها في أنحاء الشرق الأوسط.

### ديناميات إيران الداخلية:

يصور غالبية الباحثين الغربيين إيران على أنها مجرد ظاهرة دينية «أصولية» ويتجاهلون الإنجازات الاجتماعية/ الاقتصادية الملموسة جداً

على أرض الواقع والتي أنتجتها ثورة ١٩٧٩. يعتبر إنكار هذا الجانب من تطور إيران خطأ، لأن هذا التحول الاجتماعي/الاقتصادي هو الذي أتى بالحركة الديمقراطية القوية بما في هذا حركة حقوق المرأة، والنشاط الطلابي والنقابي.

ظل هناك طوال سنوات القرن العشرين الأخيرة وحتى يومنا هذا نقلات وتغيرات متناقضة في اقتصاد إيران ومجتمعها. في أعقاب ثورة عام ١٩٧٩، قامت الدولة الإسلامية بتوزيع الثروة، ووفرت الرعاية الاجتماعية لغالبية الإيرانيين. مثل هذا نقيضاً لما كانت عليه الأمور، في دولة الشاه العلمانية المؤيدة للغرب في ستينيات القرن العشرين وسبعينياته، والتي عملت على إثراء نخبة صغيرة ولم تقم بتنمية بقية البلد. يعتمد الاقتصاد الإيراني على عائدات النفط التي تمثل ٨٠٪ من مجموع دخل الدولة.

منذ التسعينيات شهدت إيران تنمية اجتماعية/اقتصادية وبشرية مستدامة وواسعة المدى. أدى النمو الاقتصادي إلى التحضر (زيادة نسبة المدن بمعدل ٧٪) ومعدل أعلى للإلمام بالقراء والكتابة والقضاء على الأمية (٨٩٪ داخل المناطق الحضرية و٧٥٪ في المناطق الريفية) وإلى ظهور الطبقة العاملة الحديثة. أصبح تواجد مجموعات الشباب السكانية المتعلمة المندمجة عرقياً ذات المستويات المختلفة من التدين والعلمانية أصبح مرئياً ملموساً، ومعه مشاركة متزايدة للنساء في الحياة العامة. تتحدى مثل تلك المجموعات الدولة التي كانت السبب في وجودهم.

أدى التحسن النسبي في الصحة والتعليم والعمالة إلى زيادة الوعي الاجتماعي/السياسي لدى أفراد الشعب، وإلى ارتقاء طموحاتهم، أدى هذا بدوره إلى مزيد من تطور التنظيمات النسائية والطلابية والعمالية.

### ديموقراطية القاعدة في إيران:

في التسعينيات أدت الضغوط من أسفل إلى انتخاب حكومة محمد خاتمي الإصلاحية (١٩٩٧ - ٢٠٠٥). كانت هذه فترة توسع تنظيمات المجتمع المدني وتمكينها، ومعها الإعلام والحركات الاجتماعية. نادت العناصر الأكثر تقدمية داخل الحركة الإصلاحية بانتشار جماهيري للديموقراطية، ويعتبر الإسلاميون الحداثيون Roshanfekrane Dini جزءاً مهماً من هذه الحركة. يؤمن هؤلاء بجدلية العلاقة بين العقيدة والمعرفة ويتبنون انفتاح الفقه الإسلامي على الفلسفة المعاصرة. يقترحون، في سياق التوجهات الفردانية، والديموقراطية وحقوق الإنسان، فصل القيم الدينية عن الواقع العلماني.

منذ نهاية الحرب الإيرانية/العراقية (١٩٨٨) تبنت جميع الحكومات، على المستوى الاقتصادي، النيوليبرالية والخصخصة والاندماج مع الاقتصاد الكوكبي في ظل تحكم الدولة القوية. أدى انتهاء بنية الدولة التدخلية منذ منتصف التسعينيات إلى ارتفاع معدل البطالة وتراجع جودة الخدمات الاجتماعية وانخفاض مستوى المعيشة. في عام ٢٠٠٥ تم فوز المرشح الرئاسي أحمدى نجاد على أساس برنامج انتخابي يقوم على مكافحة الفقر والفساد. بيد أنه، فمنذ آنذاك، تنامي الفقر والفساد، والخصخصة تحت تحكم الدولة<sup>(١)</sup>. فاقمت تلك المشاكل الاقتصادية

(١) يرى بعض المراقبين والمتخصصين في الشأن الإيراني والشئون الدولية، مثل جيمس بتراس أنه، على حين أن معدل البطالة قد ارتفع في المراكز الحضرية الثرية، فقد انخفض في المناطق الريفية والفقيرة حيث تقوم الدولة بدعم الصناعات الصغيرة والمنزلية، والأنشطة الزراعية كما أنه لا بد من أخذ العقوبات الاقتصادية والحصار المفروض على إيران في الاعتبار كسبب فيما تعانيه إيران من مشاكل اقتصادية واجتماعية، (الترجمة).



ومعها القمع السياسى ما يشعر به قسم كبير من السكان من مظالم، حيث أوضح هؤلاء استمرار معارضتهم التى بدأوا فى التعبير عنها فى تظاهرات ما بعد انتخابات ٢٠٠٩.

دعم عدد من رجال الدين البارزين الحركة من أجل الحقوق الديمقراطية. فى أعقاب ثورة ١٩٧٩ رأى كل من آية الله العظمى مطهرى (١٩٢٠ - ١٩٧٩) وآية الله العظمى منتظرى (١٩٢٢ - ٢٠٠٩) أنه بالإمكان فصل الفكر الدينى والجماعة الدينية عن السياسة وسلطة الدولة. وبعد ذلك، تحدى رجال دين منشقون، وصحفيون، وأكاديميون وهؤلاء الذين رأوا أنفسهم «مفكرين متدينين جددًا»، تحدوا الأرثوذكسية المهيمنة. تبنا الدعوة إلى انفتاح الفقه الإسلامى على الفلسفة المعاصرة، مما يعنى واقعيًا الفصل بين القيم الدينية والواقع العلمانى. يعتقدون أنه بالإمكان إنجاز نظام حكم إسلامى عادل تسود فيه العدالة وحقوق الإنسان. وكما يرى والى نصر، فإن خطاب رجال الدين الإيرانيين هؤلاء يماثل خطاب آية الله العظمى حسين فضل الله، المرشد الروحى لحزب الله فى لبنان، وآية الله العظمى السيستانى فى العراق، حيث ينادى هؤلاء المؤدلجون الشيعة بإحياء مفهوم «حلقة الوصل بين التعاليم الدينية ومتطلبات العصر والمكان» الذى هو المفتاح لتأويل إسلامى للتطورات والملازمات الحديثة، والقوى التى تعمل على تشكيل خطاب الديمقراطية فى الشرق الأوسط.

ثمة إشكالية تحيط بمفهوم الديمقراطية الذى يعنى فى هذا الكتاب النضال ضد الاستبداد وترسيخ الحقوق الديمقراطية والفردية. فى بداية القرن العشرين، ثار جدل فى أوساط الحركات المختلفة فى إيران التى كانت تشمل القوميين والشيوعيين والليبراليين والإسلاميين حول قضية

الديموقراطية وفقاً لأيديولوجيات كل منهم. بيد أن ظاهرة نشطاء المجتمع المدني، التي بدأت في أواسط التسعينيات، هي ظاهرة جديدة، يسعى غالبية الإيرانيين إلى إيجاد توازن بين سلطة مؤسسات الدولة وبين المجتمع المدني من أجل ضمان الحكم الصالح والمحاسبة، والحريات الجمعية والفردية وتحديد مكان الدين في السياسة.

يعتقد الغالبية في انتشار الفكر الأيديولوجي الحديث في سياق إيران والإسلام. يرفضون، في هذا السياق، الثنائيات المتعارضة مثل «الحديث / التقليدي» و«الغرب / الإسلام»، ويحرصون على عدم تحديد حركتهم بصفتها مجرد تابعة لـ «الثقافة الغربية» أو محاكية لها. ذهب اليسار العلماني والقوميون داخل هذه الحركة إلى ما هو أبعد من ذلك ورأوا أن الديموقراطية لا بد أن تضم تمثيلاً أكبر للتنوع الاجتماعي في إيران.

من ثم، وكما رأينا، فإن الحركة الديموقراطية في إيران قوة قاعدية فاعلة. وعلى الرغم من محاولات الحكومات الغربية فرض «تغيير النظام» من خلال عمليات سرية وتمويلات لـ «الديموقراطية بالأسلوب الأفغاني والعراقي» فإن حركة الديموقراطية - تحت مظلة الحركة الخضراء التي انبثقت في أعقاب انتخابات ٢٠٠٩ - مستقلة ولن يستغلها العملاء الأجانب أو يتلاعبون بها. كانت أهداف ثورة ١٩٧٩ هي الاستقلال والحرية والعدالة. أنجز الاستقلال، بالنسبة للغالبية، مع الإطاحة بنظام الشاه الذي كان قد أبقى على إيران دولة عميلة تابعة للولايات المتحدة. في ظل الجمهورية الإسلامية، مازال النضال مستمرا من أجل الديموقراطية، مع دعوات إلى التضمين السياسي، وزيادة الحريات المدنية والفردية.

### سياسة إيران الخارجية في الشرق الأوسط:

منذ ثورة ١٩٧٩، وعلى الرغم من التوتر بين القومية الإيرانية والعربية

وجود المذهبين الشيعي والسني، علاوة على أشكال متنوعة من التدين والعلمانية، ظلت السياسة الإيرانية الخارجية تحظى بالشعبية لدى غالبية جماهير الشرق الأوسط. كثيرا ما ذكرني من حاورتهم بالمثل الشعبي «أنا وأخويا على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب». يناقش هذا الكتاب، بتفحصنا للعلاقة الدينية/ السياسية بين إيران ولبنان، وإيران والعراق، وإيران وفلسطين وإيران ومصر، يناقش السياق الإقليمي للدولة الدينية/ السياسية الإيرانية: سبب بزوغ إيران كقوة في هذه المنطقة مع إمكانية تأثيرها، في الوقت المناسب، في السياسة الإقليمية والكوكبية. بؤرة التركيز هي على تعقيدات القوميات والأديان، وبخاصة التأويلات التاريخية لثنائية السنة/ الشيعة والهويات العربية الإيرانية، المسلمة، الشيعية السنية، غير المسلمة، والعلمانية والمُهجنة.

شعوب الشرق الأوسط غير مطلعين على الواقع الإيراني. يتحدث العالم العربي بالعربية. فيما يتحدث الإيرانيون بالفارسية، من ثم، لا يوجد سوى قليل من التواصل بين العرب والإيرانيين. قد يتشارك المثقفون في المنطقة استخدام اللغة الإنجليزية، بيد أن العاديين يميلون للتواصل مع بعضهم من خلال مُدركهم المشترك عن دور أمريكا وإسرائيل في المنطقة. سيوضح هذا الكتاب كيف أن سبب شعبية إيران في لبنان وفلسطين ومصر هو ببساطة أنها الدولة الوحيدة في المنطقة التي تدعم الفلسطينيين واللبنانيين، فيما تعارض الصهيونية والسياسات الغربية – وبخاصة سياسات الولايات المتحدة في المنطقة<sup>(١)</sup>. هذا على الرغم من أن إعلام التيار الرئيسي للدول العربية وسياسيها يصورون إيران على أنها تهديد من دولة شيعية غير عربية للعالم العربي السني.

(١) تُقفل المؤلفَة الموقف السوري الرسمي. (الترجمة)

بالطبع، فإن ثنائية الشيعة / السنة هي واقع تاريخي، ثقافي، فقهي وسياسي. لكن، وكما سناقش في هذا الكتاب، فإن هجمات إسرائيل على الفلسطينيين واللبنانيين قد عملت على التقريب بين تلك الجماعات وبعضها، وبينها وبين إيران. فهم ينظرون إلى إيران بصفتها حداثة إسلامية، نموذجاً للممارسة الإسلامية الثورية؛ ولقوة الدولة الإسلامية ذات الإرث الطويل في النضال الشعبي ضد الإمبريالية على أنها قوة للمنطقة.

بيد أنه في حالة العراق، تنتقد غالبية شعوب الشرق الأوسط دور إيران هناك ويتشاركون كثيراً مع العراقيين الرأي في أن صعود القبادات الشيعية في العراق إلى السلطة هو نتيجة مباشرة لسياسة الولايات المتحدة حيث يرون أن أمريكا قامت بتدمير العراق لاستخدامه، بين أسباب أخرى، قاعدة لتهديد سيادة إيران. في ظل تلك الملاحظات، يرون أن إيران تناور من أجل التواجد في العراق لمجابهة التهديد المحتمل من الولايات المتحدة وإسرائيل. من ثم، غدت العراق ميدان قتال للولايات المتحدة وإيران تتقاتلان فيه من أجل تسوية خلافاتهما وغدا العراقيون ضحايا لعلاقات متناقضة تقوم على الصراع والتواطؤ بين القوتين.

يناقش الكثيرون أيضاً القمع السياسي في إيران. فعلى الرغم من الدعم القوي الذي تتمتع به إيران في لبنان وفلسطين ومصر، أثارت التظاهرات التي حدثت في إيران في أعقاب انتخابات ٢٠٠٩ التساؤلات من جانب اليسار العلماني، والقوميين والإسلاميين في هذه المجتمعات وبخاصة بعد أن شاهدوا الضراوة ضد المتظاهرين مما جعل الكثيرين يتعاطفون مع الحركة ويشعرون بعدم قدرتهم على الثقة بنظام لا يخضع للمحاسبة من قبل شعبه. وعلى الرغم من ذلك، فإنهم، وفي وجود الدعم

الغربي والإسرائيلي، ودعم إعلام التيار الرئيسي العربي للحركة الديمقراطية في إيران فإنهم يتسألون عما إن كانت الحركة محاولة خارجية لزعزعة الوضع في البلد. من ثم، كان الدعم المحدود والمبهم من الشعوب العربية للحركة الديمقراطية في إيران. لقد احتكرت الدولة الإيرانية الموقف المعادي للإمبريالية والصهيونية ولا تسمح بأية مظاهرات أو تنظيمات مستقلة. ولهذا السبب، فإن حركة الديمقراطية الإيرانية، وفي معارضتها للدولة الإيرانية، أخطأت بعدم تعبيرها عن أي دعم للحركات المناهضة للصهيونية في المنطقة، بل إنها، في بعض الحالات، أبدت عداً للفلسطينيين واللبنانيين. وللأسف، فإن الانقسامات بين الحركات في المنطقة ستعمل فقط على تقوية النظام الإيراني، والأنظمة العربية، والغرب بسياساته القائمة على استراتيجية «فرق تسد».

في تلك الأثناء، يلقي نور إيران في العراق، ومع القمع الداخلي، بالظلال على تلقى إيران الإيجابي في المنطقة. وفيما يجري إعداد هذا الكتاب للطباعة، فقد حلت تركيا - وهي دولة علمانية تناصر الفلسطينيين - في أعين الكثيرين محل إيران كبديل للدول العربية التي فقدت مصداقيتها بسبب موقفها السلبي من الصهيونية والإمبريالية.

### صعود التيارات الإسلامية في المنطقة:

يثير تحليل الديناميات الداخلية الإيرانية، والعلاقات الدينية/السياسة بين إيران ولبنان، إيران والعراق، إيران وفلسطين وإيران ومصر، يثير التساؤلات عن السبب الذي أدى بالإسلاميين أن يترسخوا بصفقتهم بديلاً في تلك المجتمعات. ما طبيعة هؤلاء الإسلاميين السياسيين؟ طوال خمسينيات وستينيات القرن العشرين، وحتى بعد وفاة جمال عبدالناصر - أهم زعيم قومي عربي - لعب اليسار العلماني والقوميون دوراً رئيسياً

كحركات معارضة للأنظمة في المنطقة وفي حشد الجماهير ضد الهيمنة الإمبريالية والصهيونية. بيد أن نمو الحركات الإسلامية أصبح جلياً في أعقاب الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، والآن، وفي نهاية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، غدا الإسلاميون قوة المعارضة المهيمنة بين الفقراء في المدن، والمهنيين، والطلبة، والنساء، والعمال. لا يقتصر هذا التنامي في التأثير والنفوذ على قيام دولة إسلامية في إيران، وصعود حزب الله في لبنان وحماس في فلسطين والإخوان المسلمين في مصر، بل إن المنطقة كلها تشهد مدى من التنظيمات الإسلامية الأخرى، وتزايداً في تأثير الكتاب والمفكرين والدعاة الإسلاميين غير المرتبطين بأية تنظيمات.

إن العملية التي انتقلت بها مقاومة الإمبريالية الأمريكية والصهيونية من اليسار العلماني والقوميين إلى الإسلاميين لها دلالاتها، التوجهات الإسلامية ظاهرة اجتماعية/سياسية، ويصفتها هذه، ينبغي فهمها من خلال التفسير التاريخي. علينا تعيين وضع الأيديولوجيات والتنظيمات الإسلامية داخل المجال السياسي وفهمها في سياق القوى الاجتماعية الأوسع قومية ودينية وكوكبية. يرى هذا الكتاب، باستخدامه التحليل التاريخي، أن ثمة عاملين حددا صعود الإسلاميين: أولاً، فشل اليسار العلماني والقوميين في تحقيق مؤازرة قاعدية؛ ثانياً، دعم الغرب للأنظمة الديكتاتورية.

ثمة تنويع من اليسار في الشرق الأوسط تتبنى تأويلات وقراءات مختلفة للماركسية، تاريخياً، كان ثمة نزوع للتمسك حرفياً به الشيوعية السوفييتية والإرث الستاليني». كان الحزب الشيوعي الإيراني، وبدرجة أقل، حزب توده الشيوعي الإيراني، يتمتعان بقاعدة جماهيرية وتمكنا

من تطوير تحالفات ناجحة مع الحركات القومية، وعلى الرغم من ذلك فشل الموروث الستاليني في أنحاء المنطقة في تطوير مشاريع سيطرة ناجحة في إيران، ولبنان والعراق وفلسطين ومصر، لأنهم، ولعقود، عوقبهم خضوعهم الكلى لمجموعات حدودها بصفتها «البرجوازية القومية التقدمية»، أو امتناعهم عن الدعم الناقد لقوى مثل القوميين والإسلاميين الذين كانوا يتمتعون بتأييد جماهيري بين قطاعات المجتمع المقموعة، لم يدركوا أنه كان لمثل تلك القوى الإسلامية والقومية علاقات تواطؤ وصراع مع الإمبريالية والرأسمالية، أى أن موقف تلك الحركات المعادى للرأسمالية والإمبريالية كان يقتصر على استخدامه لحشد التأييد الجماهيري من أجل تذليل العقبات التى أوجدتها الرأسمالية الكوكبية للحيلولة دون قيام دول ومجتمعات مستقلة.

وكنتيجة لهذا، لم يدعموا تلك الحركات باسم الحفاظ على استقلالهم السياسى من أجل تأييد الجماهير القاعدية لأيديولوجياتهم بعد ثورة ١٩٧٩، أذاب الشيوعيون أنفسهم فى الدولة التى تماهوا معها بصفتها معادية للإمبريالية، وفى مصر، أيدوا قمع نظام مبارك للإسلاميين.

تاريخيا، تماهت غالبية الشعوب فى أنحاء الشرق الأوسط، فى وجود ذاكرتهم الجمعية للماضى الإمبريالى، وفى مواجهة الهيمنة الغربية العدوانية، والصهيونية وخضوع أنظمتهم للولايات المتحدة، تماهوا مع التوجهات القومية المعادية للإمبريالية. بيد أنه لم يكن للاتحاد السوفييتى أى اهتمام بأحوال تلك المجتمعات الموضوعية ومن ثم منع الشيوعيين من إقامة تحالفات مناهضة للإمبريالية مع القوميين. نتيجة لذلك، ظهرت الانقسامات فى صفوف الحركات الشيوعية وتشكلت جماعات منشقة. وعلى الرغم من أن بعضها تمكنت من البقاء بدرجات متفاوتة إلا أن

جميعها أضعفت بدرجة هائلة وتشتت. علاوة على ذلك، كان يهيمن على الاتحاد السوفييتي نخبة ثرية فاسدة من بيروقراطية الدولة تدير مجتمعاً تسوده عدم المساواة الحادة. كان يعنى هذا أن «الشيوعية» قد تخلت منذ وقت طويل عن دورها التقليدي كنصير للشعوب المقموعة في جميع الأنحاء، وبخاصة في المجتمعات الخاضعة للسطوة الإمبريالية الغربية. وكان هذا ينطبق بشكل خاص على الشرق الأوسط. قوض قرار ستالين الاعتراف بدولة إسرائيل والمساعدة في تسليحها الحركات الشيوعية في أنحاء المنطقة، وهمش هذا الفضل في فهم الصهيونية بصفتها من خلق الإمبريالية الغربية همّش بأسلوب حاد الإسهام الشيوعي في تقدم المنطقة وتنميتها وتغييرها.

تاريخياً، ظلت القومية والتحرر من الإمبريالية متداخلتين في المنطقة. كانت القومية ومعاداة الإمبريالية في العالم العربي تعززان الدعوة إلى الوحدة العربية. ومنذ الخمسينيات أدمجت القومية العربية معاداة الصهيونية وبناء الأمة والوحدة العربية في أيديولوجيتها، وكانت مصر في قلب القومية العربية في الخمسينيات والستينيات. من ثم، اعتُبرت هزيمة إسرائيل لمصر في حرب ١٩٦٧ هزيمة للقومية العربية، وبحلول التسعينيات كانت مصر قد تخلت كلية عن أى مسعى للوحدة العربية وتحرير فلسطين، ونجحت إسرائيل والولايات المتحدة في عزل مصر عن العالم العربي. يرى المحللون أن هدف الولايات المتحدة هو الإبقاء على العالم العربي منقسماً. كان للتحالف الأمريكي الإسرائيلي واستيعاب غالبية الدول العربية والدولة الإيرانية قبل ١٩٧٩ في هذا التحالف أثر مدمر على القومية في المنطقة. كما أدت سياسات الباب المفتوح الاقتصادية وتدهور الأوضاع الاقتصادية، واتساع فجوة عدم المساواة،



وفشل الأنظمة القومية العلمانية وتأثير الثورة الإيرانية، أدت كلها مجتمعة إلى صعود الحركات الإسلامية والعداء الشعبى تجاه الحكام وداعميهم الغربيين، ثم أدى احتلال العراق عام ٢٠٠٣ إلى إنزال ضربة قاصمة أخرى بالقومية العربية.

من ثم، كان الدعم الغربى للأنظمة الديكتاتورية فى المنطقة ومعه السياسات العدوانية الغربية/ الإسرائيلية هى العامل المهم الثانى فى انتهاء اليسار العلمانى والحركات القومية وصعود المجموعات الإسلامية الهامشية التى تتبنى العنف والتطرف. بيد أنه، يرى المحللون أن التطورات التاريخية للحركات الإسلامية، والسياق الاجتماعى/ الاقتصادى والسياسى، وأيضاً مختلف العوامل الإقليمية والكوكبية كان لها جميعها أثرها على التنظيمات وعملت على تغيير تركيبها الاجتماعية وحددت طبيعة الإسلام السياسى.

### التغيير فى الإسلام السياسى:

يتخذ الإسلام السياسى أشكالاً عديدة. وعلى الرغم من ذلك، يصفه الخطاب السائد للسياسيين الغربيين، والإعلام الغربى وبعض الأكاديميين على أنه «معاد للديموقراطية»، «إرهابى» و«أصولى» يتجاهل هذه النظرة وجود التناقض والتغيرات، وتختزل جميع أشكال التوجهات الإسلامية إلى هوية سياسية رجعية. ومن خلال منهج نقدى، يحدد هذا الكتاب موقع الإسلام السياسى فى إيران، لبنان، العراق، فلسطين ومصر داخل سياقاتها التاريخية والسياسية/ الاجتماعية. يذهب هذا الكتاب إلى أنه ينبغى التمييز بين التوجهات المختلفة داخل التيار الإسلامى، بدلا من خلطها والحكم عليها بأنها أصولية ومعادية للديموقراطية وإرهابية. إن تصوير الشرق الأوسط ذى الغالبية المسلمة،

على أنه كتلة صماء جامدة، وتصوير الإسلام بصفته ثقافة وديناً غير قابلين للتغيير، يتجاهل التغيرات الاجتماعية/الاقتصادية والاجتماعية/السياسية في تلك المجتمعات، وبخاصة الحركات التي تناضل من أجل الإصلاح. وكما يبين هذا الكتاب، فإن تلك العوامل الاجتماعية/الاقتصادية والسياسية هي التي تحدد ثقافات تلك المجتمعات بأكثر ما يحددها الدين، تتجاهل النظرة إلى تلك المجتمعات بصفاتها دوعماتية جامدة تتميز بالعنف مقارنة بالعلمانية الغربية، تتجاهل وجود تلك الملامح ذاتها في المجتمعات العلمانية وتنكر قدرة الإسلاميين على تأويل أحكام الشريعة الإسلامية بما يتفق مع التطورات الاجتماعية/الاقتصادية والسياسية. وفي هذا السياق فإن خطاب «صراع الحضارات» الذي طرحه صمويل هنتجتون (١٩٩٨) وبرنارد لويس (٢٠٠٣)، الذي يرى وجود صراع بين الإسلام المعادي للحدثة وبين الحدثة الغربية، هو في أفضل الأحوال خطاب تبسيطي وفي أسوأها عنصري.

الحدثة عملية تحدث على مستويات مختلفة ويخبرها الناس بدرجات متفاوتة. توحى فكرة تعددية الحدثة بوجود عوامل مشتركة واختلافات بين تنويع من الطرق إلى الحدثة وتتحدى الفرضيات القائلة بأنها ظاهرة غربية حصرية وأن أصولها غربية بالكامل. تُضمّر الحدثة أيضاً تطورا رأسماليا، وقيام الدولة الحديثة، والتشريعات الدستورية، واحتكار السلطة على الشعب داخل إطار الدولة القومية، وتضمّر أيضاً إقامة مؤسسات مثل الجيش، والتعليم، والصحة، والتوظيف. والإعلام، مع ظهور طبقات مختلفة وعلاقات بطيريركية. في الشرق الأوسط، حدثت عمليات التطور الاجتماعي/الاقتصادي والسياسي نتيجة للتلاقى بين الديناميات الداخلية والإمبريالية والكونيالية، وأدى مزيج العوامل هذا

إلى تطور اجتماعي/ اقتصادي وسياسي غير متوازن نجم عنه استخدام الدول آليات وإجراءات قمعية في بعض الحالات، مع تعزيز للإجماع والشرعية في آن، مثلاً، تتخذ الدولة الإيرانية إجراءات قمعية ضد معارضيه، وفي نفس الوقت تكتسب الإجماع والدعم من خلال سياستها الحازمة المعادية للإمبريالية والصهيونية والداعية إلى الوحدة الإسلامية.

وكما سنناقش في هذا الكتاب، قُتل الآلاف من معارضي النظام السياسي في الثمانينيات، كما تم قمع التظاهرات التي أعقبت انتخابات ٢٠٠٩، ومات عدد من الناس، وأصيب آخرون، واعتُقل البعض، ووقعت بعض حالات التعذيب. يشكل هذا المستوى من القمع السياسي الوجه غير المقبول للإسلام السياسي الحديث. بيد أنه من المهم أن نبين أن مثل تلك الإجراءات القمعية حدثت في ظل دولة الشاه العلمانية الموالية للغرب وإسرائيل كما أنها من ملامح الدولة السعودية الدينية المحافظة الموالية للغرب، وللدول العلمانية الموالية للغرب بالمنطقة مثل مصر<sup>(١)</sup>. من ثم، لا يمكن الحكم على السياسات الإسلامية الحديثة بأنها بربرية وعنيفة كما تقترح أطروحة كتاب «صدام الحضارات»، يرى عاصف بيات أن دولة إيران الإسلامية ليست نظاماً عتيقاً أو قبل حدثي، بل نظاماً أبوياً استبدادياً يمارس السلطة من خلال مؤسسات دولة حديثة<sup>(٢)</sup>. وكما

(١) تحدث هذه الإجراءات، وبأسلوب أكثر ضراوة، في روسيا في قمعها للمعارضة الشيشانية،

ناهيك عن الصين وغيرها (الترجمة)

(٢) ثمة تحفظات على هذه المقولة المرسل. مثلاً، يبين ناثن براون الباحث المتخصص في الشؤون

الاستورية شرق الأوسطية أن جمهورية إيران الإسلامية هي أكثر الدول ديموقراطية في

المنطقة كما ورد في كتابه «دساتير من ورق» الذي صدرت طبعته العربية عن سطور

(الترجمة).

بينت الأحداث، فكلما قمعت أية دولة استبدادية الديمقراطية، تصاعدت المطالبات بها.

يرى هنتنجتون ولويس أيضا الإسلام بصفته العامل الرئيسي الذي يحدد تشكيل الدولة ويشوه المجتمع. يتعاطى هذا النهج مع المجتمعات ذات الغالبية المسلمة على أنها راكدة لا تتغير ويتجاهل قدرة منظمات وحركات المجتمع المدني على تحدى الوضع القائم ومجابهة الأيديولوجيات المحافظة. وكما سنرى فإن منظمات المجتمع المدني مثل الاتحادات النقابية ومجموعات النساء والطلبة والحداثيين الدينيين بخاصة، تتحدى الدول الاستبدادية مثل مصر وإيران، نشهد في فلسطين ولبنان كيف تتحدى منظمات المجتمع المدني المتنامية وداعموها، وبخاصة النشطاء الشباب المتعلمون والنساء- سياسات القيادات المحافظة حيث يناضلون ضد احتكار القيادات المحافظة للسلطة الدينية ومن ثم، يقومون بتحويل الحركات الإسلامية باتجاه الحداثة والتسامح والديموقراطية. وعلى سبيل المثال، فإن تنظيمات المجتمع المدني في العراق هي التي تقود المقاومة ضد الاحتلال وضد الحكومة التي تدعمها إيران<sup>(١)</sup>. تدين هذه التنظيمات الإرهاب وتدعو إلى إنهاء الاحتلال ووحدة الشعب العراقي. تلعب النساء بخاصة دورا مهما في توليد المعايير والشبكات والعلاقات المتبادلة ذات الأهمية القصوى في بقاء الجماعات الأهلية مع وجود الصراع الطائفي والاحتلال الأجنبي.

يرى إسلاميون كثيرون أن الإسلام يتسق مع الأيديولوجيات الحديثة

(١) لعل الكاتبة تقصد المقاومة السياسية، إذ إن مقاومة الاحتلال على الأرض تضطلع بها مجموعات لا تشارك في اللعبة السياسية وينتمى أفرادها إلى جميع أطياف المجتمع العراقي، وتتواجد غالبية قياداتها في المنفى (الترجمة).

مثل الليبرالية والماركسية وما بعد الحداثة. ومن ثم يرون أن بإمكان الإسلام، ومن خلال الإصلاح، أن يستوعب التغيرات الاجتماعية والتقدم والحريات السياسية. لعب على شريعتي عالم الاجتماع الإيراني، وخريج جامعة السوربون والذي استخدم المفاهيم الماركسية عن الطبقات ومعاداة الإمبريالية ومزجها بالخطاب الشيعي الإسلامي، لعب دورا حاسما في نجاح ثورة ١٩٧٩. كان أحد الكثيرين الذين أسهموا في الفكر الإسلامي الحديث أثناء الفترة الثورية في إيران من خلال الإصرار على اتساق الإسلام والحداثة وعلى أنه بالإمكان تأويل المفاهيم الإسلامية بما يتفق مع الزمان والمكان. ومن هذا المنطلق، ترى الغالبية في الشرق الأوسط ثورة عام ١٩٧٩ الإيرانية على أنها نتاج حركة جماهيرية حديثة ناجحة لها جنورها في المناطق الحضرية، كما فهمت غالبية المجموعات الشيعية في أنحاء العالم الإسلامي الثورة بصفتها ثورة إسلامية جامعة. من ثم، يرى كثيرون من أهل السنة في أنحاء المنطقة الثورة الإسلامية الإيرانية وموقف البلد المعادي للإمبريالية والصهيونية كقوة إيجابية فاعلة ويأمل كثيرون في محو الخط الفاصل بين المذهبين الشيعي والسني والتحرك باتجاه مقرطة البلاد ذات الغالبية المسلمة. ووفقا للاله خليلي، فقد عزز حزب الله اللبناني الصورة الثورية للمذهب الشيعي، حيث أدى كفاحه المتواصل ضد إسرائيل إلى انتصاره عليها، نتج عن هذا حفاوة شعوب المنطقة بحزب الله وإيران، كما تبنى أنصار حركة حماس استراتيجيتها.

تاريخيا، ظل الرأي القائل باتساق الإسلام مع الحداثة عنصرا ثابتا في فكر أهل السنة والشيعية معا. كان السيد جمال الدين الأفغانى (١٨٢٨-١٨٩٧) الذي وُلِدَ في إيران وتلقى تعليما شيعيا، كان رائدا

للحداثة الإسلامية - عمل على تحويل الإسلام من مجرد عقيدة دينية إلى أيديولوجيا دينية/ سياسية مع التركيز على مجابهة الهيمنة الغربية. وبالمثل قاد محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) ورشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥)، اللذان تأثرا بفكر الأفغانى، مدرسة فكرية حداثة إسلامية أصبحت مهيمنة بداية من سنوات القرن التاسع عشر الأخيرة. أكد الحداثيون الإسلاميون، بأساليب مختلفة، على اتساق الإسلام مع الحداثة، بما فى هذا اكتساب العلوم الحديثة، والمساواة بين النوعين، وتعليم النساء. كما كان حسن البنا وسيد قطب من أتباع الأفغانى وعبده ولعب كلاهما دورا مهما ضد الاستعمار البريطانى فى مصر.

منذ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، زاد زخم المفهوم الغربى عن «تهديد الأصولية الإسلامية» وأعاد توليد أيديولوجيا الإسلاموفوبيا العنصرية. اشتهر عن إدوارد سعيد (١٩٧٨) ولىلى أحمد (١٩٩٢) نقاشهما النقدى للاستشراق كوسيلة للهيمنة الغربية. يفند هذا الكتاب، من نفس المنطلق، مفهوم «الأصولية الإسلامية» الغربى حيث ينظر إليه على أنه يحول تنوع التيارات الإسلامية إلى ظاهرة واحدة متجانسة ويختزلها إلى جوهر واحد، ومن ثم يعمل على تغذية الاستشراق والإسلاموفوبيا.

تتراوح التيارات الإسلامية اليوم بين الوهابية الجديدة (التي انبثقت عنها القاعدة) والجهاديين المعادين للشيوعية (الذين صنعتهم السى أى إيه ودعمتهم ليقاتلوا الاتحاد السوفيتى فى الثمانينيات) وتبعتهم حركة طالبان، إلى تيارات الوحدة العربية والوحدة الإسلامية التى يمثلها الإخوان المسلمون<sup>(١)</sup> وحزب الله، أظهر الإخوان المسلمون وحزب الله وحماس قدرتهم على طرح سياسات تتبج الطريق لتقدم مجتمعاتهم ككل،

(١) لا يدعو الإخوان المسلمون جميعهم إلى الوحدة العربية. (الترجمة)

ولهذا السبب فهم يتمتعون بشعبية بين غالبية الجماهير شرق الأوسطية إلا أنه ليس بوسع طالبان أو القاعدة تبني مشروع كهذا، فهم يستمدون قوتهم بشكل أساسى من غزو أفغانستان، واحتلال العراق وجرائم الصهاينة فى فلسطين، من ثم، يناقش هذا الكتاب شكلا محددا من الإسلام المحافظ فى سياقه، وبالتقابل مع هذا التيار المحافظ يناقش شكلا محددا من الإسلام الإصلاحي الليبرالى الديموقراطى فى سياقه داخل إيران وفلسطين ولبنان ومصر ويذهب إلى أن الأوضاع الاجتماعية/الاقتصادية والسياسية مازالت ماضية فى تغيير الحدود التى تفصل الإسلام المحافظ عن الإسلام الليبرالى الديموقراطى فى كل من إيران وفى أجزاء أخرى من المنطقة.

يرى البعض أن كثيرا من المحللين بدءا من الماركسيين وحتى ما بعد الحديثين، والكتاب الذين يتبنون مفهوم الشعبوية، قد تجاهلوا التحولات فى الإسلام السياسى، وهم بتبسيطهم تنوع الإسلاميين والتناقضات الداخلية داخل الحركات الإسلامية، يتجاهلون ديناميات التغيير الداخلية. وكما يذهب هذا الكتاب، فإن الإسلاميين فى إيران، وتنظيمات حزب الله وحماس والإخوان المسلمين لا يختلفون عن بعضهم فحسب، بل إن لدى كل منهم تناقضاته المتأصلة وصراعاته الداخلية، بيد أن العامل المشترك بينهم هو أنهم، وفى غياب اليسار العلمانى والقوميين، فقد تمكنوا من كسب تأييد غالبية شعوب المنطقة وحشدتهم ضد الإمبريالية والصهيونية. لا ينحصر دعمهم على أوساط «طبقة صغار البرجوازيين» أو «التجار الرأسماليين»، إذ إنهم يتمتعون بالتأييد بين الفقراء والأغنياء، والعمال والرأسماليين، والنساء والطلبة، ولدى جميع هؤلاء مصالح متعارضة. تبين روايات حزب الله اللبنانى، وحماس فى فلسطين والإخوان المسلمين

في مصر، في هذا الكتاب أن تلك التنظيمات قد تغيرت بمرور الوقت، وأن تلك المجموعات الإسلامية المتنوعة تسعى بأساليب مختلفة إلى إيجاد تسوية مع التوجهات الديمقراطية.

يدعو عاصف بيات هذه الحركات «الإسلام الاجتماعي» ويبدو هذا المصطلح مفيدا لأن تلك الحركات تساهم في الخدمات الاجتماعية - توفير الرعاية الصحية والتعليم والمساعدات المالية للمحرومين. كما أنها تشترك في تنمية المجموعات المحلية وإيجاد شبكات اجتماعية من خلال نشطاء التنظيمات غير الحكومية. وفي هذا السياق، فإن «الإسلام الاجتماعي» سياسى أيضا: لا تشترك هذه الحركات فقط في توفير الموارد، بل إنها أيضا تكسب تأييد غالبية شعوبها من خلال عملها كبدائل سياسية وثقافية واقتصادية للأنظمة التي تركز للنيل ليبرالية والسلطوية والصهيونية والإمبريالية، من ثم تعبر عن صراعات شرائح عريضة من الحصريين في مجتمعاتها.

أيضا، فإن اشتراك تلك المجموعات في السياسة الانتخابية كتتنظيمات سياسية حديثة يحمل دلالات مهمة، إذ إنها، وبصفتها هذه، قد كسبت تأييد شرائح مهمة من مجتمعاتها، وبخاصة بين النساء والشباب. منذ السبعينيات، ظلت جماعة الإخوان المسلمين تتحدى الدولة المصرية وحزبها من خلال الانتخابات وقد كسبت تأييدا بين النقابات المهنية والمجالس المحلية. كما عمل حزب الله منذ الثمانينيات باتساق ومنهجية، على كسب دعم الغالبية بين مختلف المجموعات في لبنان من خلال المشاركة البرلمانية والاندماج في السياسة اللبنانية. احتذت حماس حذو جماعة الإخوان وحزب الله وشاركت في العملية الانتخابية حيث فازت بغالبية أصوات الفلسطينيين من جميع التوجهات والفصائل.



بيد أنه، ووفقا لأطروحة هذا الكتاب فإن من المحتمل للمواقف المعادية للإمبريالية والصهيونية التي ألفت بين النظام الإيراني وحزب الله في لبنان وحماس في فلسطين والإخوان المسلمين في مصر، من المحتمل لها ألا تدوم طويلا فيما تدخل هذه التنظيمات في علاقات معقدة للتعاون والصراع مع قوى النيوليبرالية والإمبريالية<sup>(١)</sup>. في غياب اليسار العلماني والحركة القومية، تتمتع هذه التنظيمات بدعم شعبي تحشده من أجل تذليل العقبات التي أوجدها الغرب في الطريق لإقامة بول ومجتمعات مستقلة فعليا داخل إطار الرأسمالية الكوكبية. وعلى الرغم من أوجه قصوره، فإن هذا المسار إيجابي بقدر ما ينتج طريقا لعملية ديموقراطية توفر أرضية اختيار لمختلف الأيديولوجيات والتيارات السياسية لتثبيت قيمتها وأهميتها.

مع الأخذ في الاعتبار معاناة شعوب المنطقة على أيدي الأنظمة الاستبدادية وإسرائيل والغرب فقد قام نجاح الحركات الإسلامية السياسي على أساس جمعها بين الطموحات القومية ومعاداة الإمبريالية والتأويلات الحديثة للإسلام. وكما يرى عاصف بيات فإن الأديان ليست ديموقراطية أو غير ديموقراطية بطبيعتها حيث يتوقف أمر مقرطة المجتمعات الإسلامية على قناعات الشعوب وإرادتها للصراع من أجل الديموقراطية، لا على جوهر الإسلام.

وكما يذهب هذا الكتاب، فإن غالبية الإسلاميين في إيران ولبنان والعراق وفلسطين ومصر، من أفراد وجماعات وحركات، قد اعتنقوا فكرة الديموقراطية الإسلامية. يرون في الإسلام أيديولوجيا لمقاومة القمع والهيمنة السياسية السلطوية.

(١) من المستبعد جدا بل يكاد يكون من المستحيل، أن يدخل حزب الله اللبناني في علاقات تعاون مع تلك القوى (الترجمة).

تعتبر حالة «المفكرين المتدينين الجدد» فى إيران مهمة بخاصة لأنهم متقدمون عن نظرائهم فى لبنان وفلسطين ومصر. يعتقدون أنه ليس بإمكان الدين فرض شىء على إرادة الشعب، الأحرى أن دوره فى السياسة ينبغى أن يكتسب الشرعية من خلال التأييد الشعبى الذى سيفتح الطريق، ليس فقط للقوانين والأحكام الإصلاحية بل أيضا لإقامة حركة اجتماعية متجذرة فى الديمقراطية.. يتواجد هؤلاء المفكرون الجدد داخل النظام وخارجه، وهم على استعداد غالبا للتحالف مع العلمانيين والقوميين الديمقراطيين واليسار ولديهم قاعدة دعم شعبى أوسع كثيرا من الحركات الديمقراطية الأخرى.

بيد أنه، فمن المعقول القول إن حركة المعارضة السياسية المصرية هى التى أوضحت الطريق قُدماً من خلال العمل السياسى المشترك، ومحاولة التنسيق بين اليسار والقوميين والإسلاميين، وعلى الرغم من وجود عداوات معينة بين تلك المجموعات المتنوعة، فقد بزغ جيل شاب منفتح على التعاون يقوم بالتخطيط الواقعى لمقرطة المجتمع من خلال حملاته ضد الهيمنة الغربية ومعارضته القمع السياسى الذى يمارسه النظام المصرى. وهم يبرهنون من خلال دعمهم للعراقيين والفلسطينيين واللبنانيين على أنه فقط، ومن خلال الإضعاف الكوكبى لعلاقات الهيمنة، يصبح بالإمكان خلق مساحة للديموقراطية عن طريق النضال الجماهيرى. تاريخيا، ظلت النظم السلطوية فى الشرق الأوسط تقاوم التغيير السياسى. وعلى الرغم من ذلك فإن الحركات المعاصرة فى المنطقة ماضية فى تغيير مجتمعاتها من الداخل. كان للغرب والصهيونية أثر مدمر على الحركات الديمقراطية مما أدى إلى تقوية الإسلاميين المتطرفين من أمثال القاعدة وطالبان. يعتمد مستقبل الديمقراطية فى

إيران والمنطقة على تحدى السياسات المحلية والهيمنة الإمبريالية أيضا، وعلى طمس الخط الفاصل الأخذ في الاتساع بين الغرب والعالم الإسلامي.

### فصول هذا الكتاب،

يبحث الفصل الأول في الأسباب والموروثات التاريخية لثورة عام ١٩٧٩ في إيران ويستعرض اللاعبين الرئيسيين - النساء، العمل، الإسلاميين القوميين، واليسار، يذهب إلى أن دعم الغرب، وبخاصة الولايات المتحدة وبريطانيا لنظام الشاه الديكتاتوري ومعه غياب الأفكار والاستراتيجيات المتسقة المقررة محليا لكسب دعم القواعد الشعبية أضعف اليسار العلماني والقوميين وكان عاملا مساعدا في ظهور التيار الإسلامي المحافظ في السنوات التي تلت ثورة ١٩٧٩. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان ثمة حوار ومناظرات بين هؤلاء الذين رغبوا في الحفاظ على الإسلام التقليدي المحافظ، وأولئك الراغبين في اعتناق نموذج ديموقراطي حديث. زادت الحرب الإيرانية العراقية (١٩٨٠ - ١٩٨٨) من شعبية الإسلام المحافظ في إيران وفي أنحاء المنطقة مما أدى إلى تطور ممارسات القمع الداخلى، والسياسات الخارجية الإقليمية الشعبية.

يناقش الفصل الثانى تطور المجتمع الإيراني في التسعينيات ويدرس ظهور التحدى للإسلام المحافظ. يتفحص هذا الفصل ظهور الحركة الإصلاحية في التسعينيات؛ ونضال الحركة الديموقراطية الذى مازال مستمرا (الاتحادات العمالية والنقابات، الطلبة، الأقليات الإثنية والدينية والنساء) فى ظل حكومة أحمدى نجاد منذ عام ٢٠٠٥، والتظاهرات التى أعقبت انتخابات ٢٠٠٩ الرئاسية. ينتهى هذا الفصل إلى أنه، وعلى

الرغم من الأشكال المحددة للأيديولوجيا المحافظة والقمع السياسي، ما زالت هذه الحركات مستمرة في نضالها حتى تتحقق الديمقراطية كاملة في إيران.

يناقش الفصل الثالث التقسيم الشيعي/ السني تاريخياً، وتغيير الخطاب الشيعي في إيران؛ منذ صعود الشيعة إلى السلطة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر إلى تهميش رجال الدين الشيعة في القرن العشرين، ومن استيلائهم على السلطة السياسية للدولة في أعقاب ثورة ١٩٧٩ إلى التسعينيات حينما تحدى «المفكرون المتدينون الجدد» كجزء مهم من حركة الديمقراطية، حكم رجال الدين المحافظين، والهدف هو تحليل تضمينات الديناميات السياسية/ الاجتماعية الداخلية في إيران بالنسبة للمنطقة.

يستعرض الفصل الرابع الخلفية التاريخية للعلاقة بين إيران ولبنان، يقترح أن ظهور حزب الله كان النتيجة المباشرة لاجتياح إسرائيل للبنان ولدعم الغرب لإسرائيل مما أدى إلى إضعاف اليسار العلماني والحركات القومية وإلى صعود التيارات الإسلامية. ثم يناقش هذا الفصل كيف أن حزب الله، ومنذ بداية التسعينيات وبدعم من إيران، بدأ المشاركة في السياسة الانتخابية. وكيف أنه يضطلع ببعض وظائف الدولة من خلال توفيره لبعض الموارد وكيف كسب تأييد غالبية في أوساط الطائفة الشيعية وأيضاً الفلسطينيين السنة وشرائح من الطوائف المسيحية والدرزية. وفي هذا السياق فإننا نذهب إلى أن حزب الله، وعلى النقيض مما يراه عامة الغربيين، ليس امتداداً لإيران. فإن الشعبية التي يتمتع بها حزب الله بين غالبية من اللبنانيين هي رد فعل على حروب إسرائيل في لبنان.

يتفحص الفصل الخامس الخلفية التاريخية للعلاقة بين إيران والعراق، وبخاصة علاقات الاستمرارية والتغيير بين طوائفهما الشيعية. نرى أنه، وعلى الرغم من الروابط الشيعية التاريخية بين البلدين، فإن غالبية شيعة العراق ظلوا، وما زالوا حتى اليوم، يتماهون مع التيارات القومية العراقية والعربية لا مع الشيعة الإيرانيين. إن صعود القيادات الشيعية إلى مواقع السلطة السياسية في العراق لنتيجة مباشرة لسياسة الولايات المتحدة وحلفائها لـ «تغيير النظام» في العراق. ونذهب أيضا إلى أن غالبية العراقيين بمن فيهم المجموعات الشيعية غير راضين عن الدور الإيراني في العراق وفي ظل التهديد الأمريكي والإسرائيلي لها تستغل إيران الوضع في العراق لإلهاء البلدين عن هذه الهجمات. وكنتيجة لذلك، تحول العراق إلى فسيفساء من الفصائل المتناحرة وغالبية العراقيين إلى ضحايا للعنف.

يناقش الفصل السادس العلاقة بين إيران وفلسطين. توضح الخلفية التاريخية لقيام الدولة الصهيونية دعم الدولة الإيرانية في ظل الشاه للصهيونية، وبالتقابل فقد عكست السياسة الإيرانية منذ ثورة ١٩٧٩. يذهب هذا الفصل إلى أن صعود حماس وتوليها السلطة كان نتيجة مباشرة لسياسات الولايات المتحدة والدولة الصهيونية في المنطقة. بمنتصف التسعينيات، ظهرت حماس، التي تدعمها إيران، كحركة مقاومة. ومثل حزب الله، تُشارك حماس في العملية الانتخابية وتوفر الخدمات الاجتماعية. يشهد فوزها في الانتخابات بوضوح على تأييد غالبية قطاعات المجتمع الفلسطيني (العلمانيين، والإسلاميين، والمسيحيين) للمنظمة. العلاقة بين إيران وحماس متعددة الجوانب سياسية، أيديولوجية وثقافية. ثمة كثير من النقد، وبخاصة من جانب

مؤيدي فتح - للدور الذي تلعبه إيران في فلسطين، وأيضا فئمة نقد لدور إيران في العراق وللقمع السياسى في إيران. بيد أنه، وبالنسبة للغالبية، فإن إيران هي البلد الوحيد في المنطقة الذى يتصدى للصهيونية وللسياسة الأمريكية.

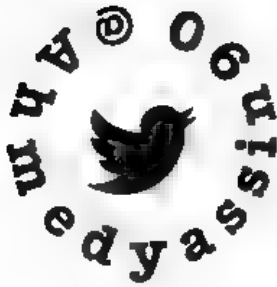
يتفحص الفصل السابع الخلفية التاريخية للعلاقة بين إيران ومصر. نرى أنه، ومثلما هو الحال في إيران، اقتضى التطور الرأسمالى في مصر الهيمنة الأجنبية. وكنتيجة لهذا شاركت قطاعات مختلفة - إسلامية، قوميون، شيوعيون، نساء وعمال وأقليات - في النضال ضد الإمبريالية. أيضا، ومثلما هو الحال في إيران، غدت التوجهات الإسلامية الحداثية ذات تأثير كبير في مصر.

منذ بدايات القرن العشرين وحتى ثورة ١٩٧٩ قوت الدولتان العلاقات بينهما من خلال روابطهما مع الدول الغربية المهيمنة ومع إسرائيل<sup>(١)</sup>. وبالمثل، فقد قوت الحركات المعارضة في البلدين الروابط بينهما - في مواجهة الحكام وداعميهم الغربيين؛ لقيت التوجهات القومية التى تبناها ناصر ومصدق التأييد من الشعبين. كان صعود الإسلاميين في مصر نتيجة مباشرة لعدم قدرة اليسار العلمانى والقوميين على توفير البدائل. وعلى الرغم من اختلاف نظام الدولة والحركات في مصر وإيران، إلا أن الإسلام السياسى في مصر قد تغير وتتماهى الغالبية مع الإسلاميين الديموقراطيين مثلما هو الحال في إيران. بيد أنه، وبخلاف إيران، فإن الحركة من أجل الديموقراطية في مصر تقود الطريق بانفتاحها على الحركات الأوسع في المنطقة.

(١) لم يكن للنظام الرسمى في مصر في بدايات القرن العشرين وحتى معاهدة كامب ديفيد روابط مع إسرائيل. قامت تلك الروابط منذ نهاية السبعينيات بعد توقيع المعاهدة (الترجمة)

فى الفصل الثامن أقوم بتحليل السياق الكوكبى للدولة الدينية/ السياسية والمجتمع الإيرانى. أرى أن عدااء الغرب لإيران متجذر فى رغبته لعودة البلد لوضع الدولة التابعة العميلة للغرب كى يضمن هيمنته الاقتصادية والسياسية على المنطقة وينكر على إيران استقلالها. تعمل التهديدات المتواصلة بالحرب، والتدخل العسكرى، وفرض العقوبات وتمويل عمليات «تغيير النظام» تعمل على تقويض الحركة الديموقراطية فى إيران. وبالمثل، فإن عدااء الغرب للحركات الإسلامية الحداثى سيعمق من العدااء السياسى للغرب والدول العميلة بالمنطقة، مما ينتج عنه فى نهاية المطاف تقوية التيارات الإسلامية المحافظة فى المنطقة وعلى المستوى الكوكبى.





## الإرث الثوري

من المحال فهم خيرة ثورة ١٩٧٩ في إيران وما تلاها من أسلمة الدولة والمجتمع قبل تفحص جذور التغيير في القرنين التاسع عشر والعشرين، على الرغم من أن البلد لم يُستعمر أبداً، أو يُحكم رسمياً بواسطة قوة أجنبية فإن التطور الرأسمالي في إيران في القرن التاسع عشر، ورغم أنه كان على قدر من التفرد، تشارك في ملامح عديدة من التطور الاقتصادي غير المتوازن مع البلدان التي كانت واقعة تحت الاستعمار. وبشكل أساسي استند هذا التطور إلى حاجة السوق الرأسمالي الأوروبي لاستيراد السلع الإيرانية الأولية وتصدير السلع المُصنَّعة إلى إيران.



بالتدريج، أدت زيادة التجارة مع روسيا وبريطانيا إلى تحويل الاقتصاد القائم على مقايضة السلع، إلى اقتصاد مالى. عمل نفوذ الرأسمالية الغربية على زيادة التجارة واستيراد السلع الأجنبية؛ وسارع هذا من تنامي سكان المدن والأنشطة غير الزراعية، والزراعة التجارية. غير الاشتراك فى السوق الكوكبى أنماط الحياة الاقتصادية والاجتماعية التى كانت موجودة من قبل من خلال إعادة تنظيم العمالة إلى قطاعات العمال الأجراء (البروليتاريا) وشبه البروليتازيا وصغار منتجى السلع، وهى القطاعات التى مازالت قائمة حتى اليوم فى أشكالها العريضة. أثناء النصف الثانى من القرن التاسع عشر، فرضت بريطانيا وروسيا بنوكهما على إيران وبدأتا عملية استغلال غير مباشر بأن حصلتا على

«امتيازات» جباية الضرائب، واستخراج المواد الأولية، واحتكار المنتجات الزراعية لبيعها في الأسواق نظير مبلغ تافه تدفعه لأسرة الشاه القاجارى الحاكمة، على سبيل المثال، فى عام ١٨٩٠، حصلت شركة بريطانية على احتكار إنتاج التبغ وبيعه وتصديره من إيران، وأثار هذا الامتياز الاستياء الجماهيرى، وتسببت الإضرابات وتفجر التظاهرات فى نجاح كبير للحملة ضد هذا الامتياز، وأدت هذه الأزمة إلى الثورة الدستورية ما بين عامى ١٩٠٦ و١٩١١ وما تبعها من سقوط الأسرة القاجرية الحاكمة. ترى فانسما مارتن (١٩٨٩) أن الثورة الدستورية شكلت جزءا من مسيرة للتغيير وصراعا بين النظام القديم والجديد. ومع اكتشاف كميات كبيرة من مخزون النفط فى إيران عام ١٩٠٩،

أنشأت بريطانيا شركة النفط الأنجلو/ إيرانية لاستغلال ثروة البلاد الطبيعية التي اكتشفت مؤخرا. وأثناء الحرب العالمية الأولى، احتلت القوات البريطانية والروسية غالبية الأراضي الإيرانية مما أوجد معارضة شعبية منتشرة للقوات المحتلة. بيد أنه، وبعد الثورة الروسية، تخلى البلشفيك سريعا عن الامتيازات القيصرية ومنها الامتيازات المختلفة في إيران. عمل هذا على تركيز الغضب الشعبي ضد بريطانيا التي كانت تتحكم في النفط وتساند النظام المستبد الحاكم في إيران. في هذه الفترة، ارتبطت الحركة العمالية بالحركات الشيوعية في إيران وروسيا ولعبت دورا مهما في النضال ضد شركة البترول الأنجلو/ إيرانية.

في ديسمبر عام ١٩٢٥، أعلن رضا بهلوي نفسه شاه أسرة بهلوي. وفي ظل النفوذ البريطاني، التزم بناء دولة علمانية حديثة، وتعزيز التوجهات القومية، واستلهاهم هويات إيران قبل الإسلامية وتقليص دور علماء الدين. تركز التطور الإيراني في هذه الفترة على تشييد البنية الأساسية إلى حد كبير، وكان هذا مرتبطا برغبة الشاه في التحكم في البلد بفاعلية من خلال الجيش، ورغبة الرأسمال البريطاني في استغلال الموارد النفطية بسهولة، لكنه أيضا وضع أسسا للتطور الصناعي. قاومت مجموعات الفلاحين وقبائل الرحل، الذين عانوا من تبعات إعادة التشكيل الاقتصادي، العلاقات الاجتماعية في ظل رضا بهلوي أثناء الركود الكوكبي في ثلاثينيات القرن العشرين حينما كانت التبادلات التجارية في صالح إيران حيث كانت تُصدر البترول نظير سلع إنتاجية. كان اندماج إيران السريع في الاقتصاد العالمي يعنى زواء الطبقة الأرستقراطية من ملاك الأراضي وطبقة الملاك الوسطى من حيث سلطتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لتحل محلها البرجوازية

الجديدة والمهنيين الذين يعملون لقاء رواتب ثابتة. كان هدف رضا بهلوى من بناء الدولة هو العمل على مركزية سلطة الدولة وفرض التحكم الصارم على رجال الدين والمؤسسات الدينية. واكب عملية التنمية قمع ضار شامل للمجموعات السياسية جميعها، من الشيوعيين إلى الليبراليين، ورجال الدين المعارضين، والاتحادات التجارية، والتنظيمات النسائية ومجموعات الأقليات الإثنية.

ظل سكان إيران دائماً يتكونون من ثلثين من الفرس المتحدثين باللغة الفارسية (لغة إيران الرسمية) وثلث من مجموعات عرقية مختلفة (الآزار، الأكراد، العرب، البلوش، التركمان، الجيلاكي، القاشقاي، البختياري، الشاهنسوان، واللور). دين إيران الرسمي هو الإسلام الشيعي، لكن ثمة أقليات دينية أخرى - المسلمون السنة، المسلمون الصوفيون، اليهود، الأرمن، الآشوريون، الكلدانيون، الزرادشتيون، والبهائيون. أنكرت على هذه الأقليات، في ظل الشاه، حقوقهم اللغوية والثقافية والدينية والإثنية - هذا علاوة على إنكار الحقوق المدنية على كل السكان. أدى هذا القمع إلى تولد رغبة في القتال ضد سلطة الدولة المركزية، وأرى أن هذه الرغبة قد أصبحت جزءاً من الحياة السياسية في إيران.

حينما وصل الركود الاقتصادي إلى إيران، تسببت الأجور المنخفضة، وساعات العمل الطويلة وبيئات العمل الرديئة في انتشار حالة من التذمر، واجهت دولة رضا شاه، بتزايد المعارضة من قبل النساء والعمال وأيضاً المجموعات الإثنية والدينية. غزت القوات البريطانية والروسية إيران عام ١٩٤١، لخوفهم من دعم رضا شاه للنازية، وأجبرت القوات المحتلة الشاه على التنازل عن العرش لابنه محمد رضا شاه (الذي سيشار إليه من الآن فصاعداً بلقب الشاه) وعلى مغادرة البلد.

طوال الأربعينيات مضت المجموعات السياسية التي كان رضا شاه قد قمعها - القوميون الليبراليون، الشيوعيون، والإسلاميون - في تنظيم صفوفهم وأتاحوا بذلك بدائل سياسية. في أعقاب الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٧، أنشأ محمد مصدق الجبهة القومية التي طالبت بإجراء انتخابات حرة، وتحسين الأوضاع الاقتصادية، وحرية الصحافة والحق في المشاركة السياسية. في عام ١٩٥٠، أدانت الجبهة القومية شركة النفط الأنجلو/ إيرانية لعدم دفعها جزءا كافيا من ريعها، ولتجاوزها الضرائب المحلية وتجاهلها، ورفضها تشغيل العمال الإيرانيين والتدخل في شئون إيران السيادية القومية. ساند حزب توده الشيوعي، والإسلاميون مصدق وطالبت الجبهة القومية بتأميم شركة النفط. في عام ١٩٥١، أدت التظاهرات في الشوارع وإضراب عمال النفط إلى انتصار حكومة مصدق القومية وسياستها لتأميم النفط. ثم مضى مصدق، وبدعم من الجماهير، في تحدى وضع الشاه، ويفعله هذا، أصبح أيقونة معاداة الإمبريالية، وبخاصة بالنسبة للمصريين الذين عانوا من هيمنة البريطانيين (انظر الفصل السابع).

كان تأميم إيران للنفط بمثابة ركوب موجة حركات معاداة الإمبريالية التي سادت المستعمرات السابقة والقائمة بدءا من الهند في عهد نهرو إلى مصر جمال عبدالناصر وانتشرت في أنحاء إفريقيا وأمريكا اللاتينية. كان رد فعل بريطانيا على التأميم هو استبعاد إيران من سوق النفط بشن حملة كوكبية لمقاطعة نفط إيران مما أدخل البلد في أزمة مالية. نجحت السى أى إيه واستخبارات M16 البريطانية في تدبير انقلاب ناجح في إيران عام ١٩٥٣ أطاح بمصدق، ورسخ نظام الشاه الديكتاتوري، وبمساعدة الوكالتين، قمع الشاه بضراوة الجبهة القومية وحزب توده ومضى يحكم دونما معارضة منظمة.

شهدت سنوات الستينيات والسبعينيات، في ظل الشاه، طفرة نفط اقتصادية ومعها هيمنة أمريكية على الحكومة. في تلك الفترة، شهد الاقتصاد الإيراني والمجتمع الإيراني تحولات بسرعة وزخماً غير مسبوقين. كانت سياسة التصنيع التي حلت محل الاستيراد تعنى مراكمة الصناعات النفطية ثروة إضافية وحصولها على التكنولوجيا الغربية وتمويل التصنيع وتشبيد البنية الأساسية ومصانع للتجميع وأيضاً لصناعة المكونات الصناعية المختلفة. من ثم كانت الدولة - التي أصبحت دولة ريعية - تستمد جزءاً أساسياً من دخلها القومي من نفطها عن طريق استخراجها على نطاق واسع وتصديره إلى البلاد الأخرى.

كانت دولة الشاه، بدعم غربي ومن الولايات المتحدة بخاصة، العامل الرئيسي لمراكمة رأس المال، لكن الدولة أيضاً، كانت هي التي نظمت العلاقات الاجتماعية داخل عملية الإنتاج. ومن خلال نفوذ الدولة ورأس المال والدين، تراوح قدر إتاحة الموارد المالية والسلطة السياسية وفقاً للطبقة الاجتماعية، والجنس والمجموعة الإثنية والدينية. في تلك الأثناء أيضاً، كان يحدث أنه كما ضعفت سلطة الدولة تقوم الجماعات المقموعة - العمال، النساء، الطلبة، الأقليات الدينية والعرقية بتنظيم نفسها وإجبار الدولة على الإصلاح. أجريت بعض الإصلاحات في مجالات التعليم والصحة والعمالة وبعض حقوق العمال والأقليات العرقية والدينية وعلاقات الجنس. وعلى الرغم من ذلك ظلت عملية التنمية الاقتصادية غير متوازنة بنيوياً ومكانياً. لم يُقد من التعليم العلماني، وإصلاح القوانين وقرص العمل سوى أقلية ضئيلة.

أثارت الثروة النفطية توقعات عجزت الدولة عن تحقيقها، أو أنها لم ترغب في تحقيقها. أدت سياسة التصنيع الذي يتطلب رأسمال كبيراً إلى

إهمال قطاعات الإنتاج الصغير والقطاع الزراعى. أدى ذلك إلى نمو سريع للمدن، وعدم المساواة فى الدخول والخلل الاجتماعى والاغتراب الثقافى. أنفق الشاه وعائلته الممتدة وأصفياءه المقربون المسئولون عن الدولة ومؤسساتها أموال النفط بنفسه وبدنوها فى مشروعات فخيمة مثل الاحتفالات السنوية الأسطورية بقيام الإمبراطورية الفارسية. أثار فسادهم، وأنشطتهم فى المضاربات العقارية والمالية، ومعها الإنفاقات الكبيرة على الجيش والشرطة السرية، ومؤسسات الطاقة النووية، والمشروعات العامة غير ذات الجدوى الاقتصادية، أثارت جميعها السخط الاجتماعى والسياسى على نطاق واسع. أقام نظام الشاه مقاراً للسى أى إيه والموساد اللذين ساعدا على تدريب السافاك، أى رجال الشرطة السرية الإيرانية الذين مارسوا الإرهاب على الإيرانيين.

وفى تلك الأثناء، مضى غالبية السكان يعانون الفقر والقمع السياسى ولم تتح لهم أدنى فرص التعليم والرعاية الصحية والعمل، وفيما تعاظم القمع زادت قوة حركة الاحتجاجات وواجهت دولة الشاه الاستبدادية معارضة أكثر قوة من جانب النساء والعمال والطلبة والمجموعات العرقية والقوميين والشيوعيين والإسلاميين.

وفى النهاية، أنتجت الحركة المعادية للشاه، بين عامى ١٩٧٨ و١٩٧٩ ثورة سياسية واجتماعية أطاحت بنظام هو أكثر الأنظمة وحشية وضراوة فى الشرق الأوسط. حدثت الثورة فى سياق سخط مدنى عارم. وفوارق اجتماعية واقتصادية متنامية وغضب شعبى ضد القمع السياسى. كان اللاعبون الأساسيون فى الثورة هم النساء والعمال والإسلاميين والقوميين واليسار. بيد أنه سرعان ما اتضحت التوترات الأيديولوجية بين تلك المجموعات. أكانت تلك ثورة من أجل الديمقراطية؟

معاداة الإمبريالية؟ الماركسية؟ التوجهات الإسلامية؟ القومية؟ حقوق النساء والعمال والأقليات؟ بدأت الانقسامات أيضا تظهر داخل تلك المجموعات نفسها كل منها على حدة.

### التوترات داخل الحركة الثورية:

#### النساء

في الستينيات والسبعينيات، وبرغم النمو الاقتصادي والإصلاحات في مجالات تعليم المرأة، وتوظيفها، وخلع الحجاب والاختلاط بين الجنسين فلم تُقدِّم معظم النساء من تلك التغييرات وظللن يعانين وطأة الفقر، هذا على الرغم من أن أقلية منهن استفادت بل واحتلت بعض منهن مناصب مهمة. حافظت الدولة العلمانية على شرعيتها بعمل بعض التنازلات التي تتوافق مع الأيديولوجيا الدينية المحافظة والتقاليد، من ثم عملت هوية الجندر على الحفاظ على التراتبية بين الجنسين، وتقسيم العمل على أساس الجنس، ونتيجة لذلك، على إخضاع النساء.

تسببت العلاقة بين التطور الرأسمالي الموالى للغرب والأيديولوجيا الدينية المحافظة في المعاناة لنساء الطبقة الوسطى التقليدية. كان عليهن تحمل الغربة وأيضا مراعاة القيم الإسلامية المحافظة لعدم الاختلاط وارتداء الشاور وفقا لإملاءات أسرهن وبخاصة الأقارب الذكور الذين كانوا ينظرون لثقافة الحداثة الغربية على أنها غير مناسبة تماما لنسائهم. انقسمت هؤلاء النساء بين قيم أسرهن التقليدية وبين مجتمع خارجي يدعو للقيم الغربية بما في هذا ارتداء آخر موضة الأزياء الغربية. حاولت الكثيرات حل المشكلة بالجمع بين تلك القيم المتنافرة. كنا يغادرن منازلهن مرتديات الحجاب ويخعلنه قبل الدخول إلى مدارسهن أو جامعاتهن أو أماكن عملهن، بيد أن الكثيرات اتخذن موقفا دفاعيا



وارتدين الحجاب كعلامة للاحتجاج على التغيرات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية غير المتوازنة أو العادلة. من جهة أخرى، فهؤلاء، بمراعاتهن تلك القيم والتقاليد دفعن الثمن بتصنيفهن على أنهن متخلفات في مدارسهن وجامعاتهن وأماكن عملهن في السبعينيات، تزايدت المشاركة السياسية الاحتجاجية للنساء بشكل لافت حيث أدركت الكثيرات منهن أنه طالما ظل الفقر والقمع في إيران، ستظل النظرة الدونية إلى النساء مهينة. من ثم لعبت النساء دورا مهما في التضال ضد نظام الشاه.

### العمال:

زادت عملية التصنيع في الستينيات والسبعينيات من أعداد العمال الصناعيين. وفيما ارتفعت الأجور الفعلية ارتفعت مستويات المعيشة إلى أن دهم الركود إيران في عامي ١٩٧٧/١٩٧٨، حيث ارتفعت معدلات البطالة وهبطت مستويات الأجور. قام عمال الكهرباء والمياه والمرافق الصحية، وصناعات النسيج، والإعمار، والآلات، وتجميع السيارات بالإضراب في أنحاء البلاد مطالبين بزيادة الأجور، ونظموا التظاهرات ضد ظروف العمل المزرية، كما قام العمال، في بعض أجزاء البلد، بتقوية تحالفاتهم مع رجال الدين المحليين. حينما أطلق رجال الشرطة الرصاص على المحتجين وأردوا بعضهم قتلى، اندلعت مزيد من التظاهرات بعد سبعة أيام من وفاتهم ثم أربعين يوما، وفقا لمقتضيات الثقافة الشيعية في إيران، ومن ثم، مضت وفيات المتظاهرين تؤدي إلى دورات أخرى من التظاهرات تندلع كل أربعين يوما. نتيجة لهذا، بدأ الشاه يتحدث عن الإصلاح وعن درجة من الحرية السياسية. لكن إضرابات العمال استمرت ووقعت تصادمات في الشوارع بين الأفراد العاديين في 'حياء الطبقة العاملة بالمدن وبين قوات الجيش. وكان كلما

زاد عدد القتلى في تظاهرات الشوارع، انقلبت غالبية السكان ضد الشاه.

كانت الاتحادات العمالية، وبخاصة عمال النفط، قد لعبت دورا مهما في تأمين النفط في الخمسينيات، بيد أنه في الستينيات والسبعينيات استُخدم مصطلح «النقابات» التي تُشرف عليها الدولة بدل مصطلح الاتحادات، وفي حالات كثيرة، ارتبط ممثلو العمال بالسافاك (البوليس السري)، وقاموا بالتجسس على العمال وكتابة التقارير عنهم. لكن، وعلى الرغم من ذلك تزايد عدد تلك النقابات أسيا إلى حوالي ٥١٩ نقابة عام ١٩٧٢ بدل ٣٠ نقابة في نهاية الستينيات، ظل عمال كثيرون مقاتلين وعلى وعى طبقى بمطالبهم الاقتصادية، وعلى الرغم من أنهم كانوا يعملون في ظل نظام مستبد، فقد نجحت بعض الإضرابات وحصل العمال على حقوقهم في التأمينات، والإجازات المرضية مدفوعة الأجر، ومعاشات لدى التقاعد، وبدلات بطالة.

في سبتمبر وأكتوبر، انضم مزيد من العاملين، بما فيهم العاملون في صناعات النفط من ذوي الياقات البيضاء والزرقاء إلى حركة الاحتجاجات مطالبين أيضا بالإصلاحات الاقتصادية والسياسية، توقفت الأعمال تماما في البنوك والمدارس والسكك الحديدية والطيران الداخلي ومكاتب البريد والصحف والجامعات والمكاتب ومصافي النفط ومصانع السيارات. والعقاقير الطبية. ألهمت الإضرابات - وبخاصة مشاركة ٣٠٠٠ من العاملين في مجال النفط، و١٠٠٠٠٠ موظف حكومي، و٥٠٠٠ من العاملين في البنوك، ألهمت بقية السكان، تظاهر الناس في المدن والقرى ضد نظام الشاه والسافاك سيئ السمعة.

استجاب الشاه بتقديم غصن الزيتون، وأطلق سراح عدد من رجال

الدين المعتقلين وأعضاء حزب توده الذين كانوا قد ظلوا في المعتقل منذ الخمسينيات. لكن الإضرابات استمرت وحلت لجان للإضرابات محل النقابات وسيطروا على المصانع ومقار الأعمال. توقف جميع أفراد الجيش، الذي كان يتكون بالكامل من المجندين، عن إطلاق النار على المتظاهرين وانضموا إليهم.

وفي النهاية، بلغت الأحداث ذروتها في فبراير ١٩٧٩، بإضراب عام، شمل إضراب ٧٠٠٠٠ من العاملين في النفط، وسقوط النظام الملكي. بعد الثورة شكلت لجان الإضراب - التي كانت قد لعبت دورا جوهريا - القيادات الرئيسية لمجالس الشورى الجديدة، أو مجالس العاملين.

**الإسلاميون:**

كان آية الله الخميني قد شجب نظام الشاه في عامي ١٩٦٢ و ١٩٦٣، بصفته فاسدا، لا ديموقراطيا، ولا يأبه لاحتياجات الشعب الاقتصادية، وهاجمه أيضا لمنع الولايات المتحدة «اتفاقية الامتيازات الأجنبية» التي اكتسب بمقتضاها الأمريكيون العاملون في إيران حصانة دبلوماسية. نتيجة لذلك، قام الشاه بإجبار الخميني على الذهاب إلى المنفى في العراق الذي أدى إلى أن يصبح الإسلاميون قتالين بتزايد. كان الإسلاميون الحداثيون، وبخاصة آية الله تالغانى وآية الله مطهرى، قد ذهبوا إلى أن الإسلام يتوافق مع الحداثة، وبإمكانه من خلال الإصلاح، أن يستوعب التغير الاجتماعى والتقدم والحريات السياسية.

كان الإسلاميون في إيران حتى المحافظون منهم، مهتمين بالأفكار الثقافية الغربية بما فيها الفكر الماركسى. رأى آية الله تالغانى أن العدالة الاجتماعية الإسلامية تتفق مع الموقف الماركسى حول توزيع الملكية والثروة والموارد الأخرى، أما عالم الاجتماع على شريعتى، والذي جئنا

على ذكره في المقدمة، فقد طرح رؤية أكثر توسعا هي مزيج من الإسلام والماركسية حيث رأى أن تعاليم الإسلام الخاصة بالعدالة الاجتماعية تتناغم مع الآراء الماركسية عن المساواة وتوزيع فائض القيمة والملكية الخاصة. تبنت منظمة مجاهدي خلق أيضا مزيجا من الماركسية والإسلامية. كانت لتلك الأفكار شعبية لدى الإيرانيين الذين راقهم الفكر الماركسي لكنهم كانوا أيضا يريدون الإبقاء على روابط ثقافتهم الشيعية. وعلى الرغم من أن على شريعتي توفي عام ١٩٧٧، فقد عملت أفكاره على حشد كثير من الإيرانيين وانضمامهم إلى النضال ضد دولة بهلوي. ألقت الأيديولوجيا الثورية القائمة على أساس الفكر الماركسي والشيوعي وكما عبر عنها شريعتي وتالفاني، ألقت بين الغالبية العظمى من الإيرانيين من مختلف المجموعات العلمانية والدينية. أتاح موقف الإسلاميين الفكري الذي انطلق من أسس ثقافية لهم حشد شرائح كبيرة من المجتمع بأكثر ما أتيح لليسار العلماني والقوميين الذين لم يتمكنوا من جذب غالبية السكان إلى أفكارهم.

كان آية الله الخميني، الإسلامي المحافظ والتقليدي، قد عارض في الستينيات حق النساء في التصويت، لكنه غير موقفه بعد ثورة ١٩٧٩ لأنه أدرك إسهام النساء في الحركة الثورية، واعترف لهن بهذا الحق. وعلى الرغم من أنه، قبل عام ١٩٧٩، لم يتفق مع شريعتي على المزج بين الأفكار الإسلامية والماركسية، إلا أنه، بعد الثورة ذهب إلى أن الأيديولوجيا والدولة الإسلامية ستعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية وتمكين الفقراء وتحرير إيران من الاستغلال الإمبريالي، ناقش الخميني الفقه الإسلامي المتغير الدينامي Fiqh Poya وميز بين «الإسلام الأمريكي والإسلامي المحمدي». كان يعنى بالإسلام الأمريكي أنظمة المنطقة الموالية للولايات المتحدة وإسرائيل.

كما تصدى أيضا للإسلاميين المتخلفين في ظل الشاه. نقد الأسلوب المحافظ في النظر إلى تنظيم الأسرة والنظام البنكي، وأنه بالإمكان اتساق الشريعة مع الحداثة. ومن منطلق أفكاره عن ولاية الفقيه، برر مفهوم الدولة الإسلامية المؤسسة على الشريعة (التي لا تتعارض مع الحداثة) والتي يحكمها العلماء. كانت نظريته عن ولاية الفقيه والتي صاغها في منفاه بمدينة النجف بالعراق أثناء الستينيات تتناقض جذريا مع رأى علماء الشيعة في القرن التاسع عشر، الذين ذهبوا إلى أنهم، وعلى الرغم من أنهم كان لهم المرجعية السياسية النهائية، إلا أن بإمكانهم ممارسة تلك السلطة فقط حينما تنتهك الحكومة الشريعة بشكل فاضح وتُعرض بذلك الجماعة الإسلامية للأخطار. لكن الخميني رأى أن العلمانية الغربية واستبداد أسرة بهلوى أثبتا أن العلاقات التاريخية بين الحكام والعلماء كما وجدت منذ أن أصبحت إيران ملكية شيعية في عام ١٥٠١ قد انتهت لأن ملوك أسرة بهلوى قد أضعفوا المذهب الشيعي، ومن ثم عاظمت النقلة التاريخية التي حصلت من سلطة العلماء السياسية.

### القوميون؛

في أعقاب الانقلاب الذي دبته الاستخبارات الأمريكية والبريطانية عام ١٩٥٣، واجه التيار القومي المعادى للإمبريالية الذي دعم مصدق رقابة صارمة وتم قمعه بوحشية بواسطة الشاه. تحولت إيران إلى دولة رئيسية مسلمة غير عربية موالية للغرب - للولايات المتحدة بخاصة. بيد أنه بين عام ١٩٦٠ و١٩٦١ تراخت القبضة على القوميين. أحيت الجبهة القومية التي كانت تقوم على أساس إرث مصدق القومي نفسها وجندت الطلبة والأكاديميين والموظفين والعمال وتجار البازارات. نظموا

إضرابات وتظاهرات كبيرة حشدت بعضها حوالي ١٠٠٠٠٠ شخص. لكن القبضة أحكمت مرة أخرى، وحظر الشاه الجبهة القومية واعتقل قادتها.

كانت الجبهة القومية تنظم مظلة ينضوي تحتها أفراد ومجموعات متنوعة مثل حركة التحرر بقيادة الإسلاميين الحداثيين. على سبيل المثال، أقام آية الله تلماني ومهدي بازارجان (كان قوميا ليبراليا وارتبط اسمه بفترة تأميمات النفط في عهد مصدق). أقاما علاقات وثيقة مع آية الله الخميني وصاغا برنامجا إسلاميا إصلاحيا لقيادة المعارضة ضد حكم الشاه. وعلى الرغم من القمع السياسي استمرت هذه المنظمة تمارس نشاطها في الخارج وفي الداخل الإيراني بأسلوب سرى. ركز حزب إيران المرتبط أيضا بالجبهة القومية أنشطته في أوساط كونفدرالية الطلبة الإيرانيين بالخارج، وبالمثل كانت الجماعة الاشتراكية تستمد قاعدة دعمها من الطلبة الإيرانيين في أوروبا وأمريكا.

قبيل سقوط الشاه مباشرة، فتح بعض أعضاء الجبهة القومية تفاوضات معه بشأن إدخال الديمقراطية لكن الحركة الثورية كانت غير معنية بالإصلاحات السياسية. وفيما تنامت الحركة، قام الشاه بتعيين شهبور بختياري، أحد القياديين في الجبهة، رئيسا للوزراء. لكن لم يكن بوسع بختياري إنقاذ الشاه أو منع الثورة. انضم آخرون من المعسكر القومي بمن فيهم كريم سنجابي وكان سياسيا ليبراليا وأحد مؤسسي الجبهة القومية، ومهدي بازارجان من الحركة الليبرالية انضموا إلى معسكر الخميني حيث كانوا على درجة من الضعف السياسي لا تمكنهم من تشكيل حركة جماهيرية بديلة. عُيّن بازارجان، بعد الثورة، رئيساً للوزراء في الحكومة الانتقالية. بيد أنه لم يكن كزعيم على درجة من القوة

تمكنه من طرح بديل علمانى ليبرالى، وكما سنرى فيما بعد، فقد كان نفوذ الخمينى قد بدأ يسيطر على الحركة الثورية.

### اليسار

أسهمت المجموعات الشيوعية والاشتراكية فى الحركة وفى نجاح ثورة ١٩٧٩، كان حزب توده قد ظل ناشطا وكان قد لعب دورا مهما فى تأميم النفط. شاركت فى الحركة الثورية أيضا مجموعات أخرى مثل الماركسيين/ اللينينيين، والتروتسكيين، والستاليين، والموميين وفدائى خلق، ومعهم كثير من النساء والعمال والمتقنين والطلبة المتعاطفين مع الأفكار الغربية وغير المرتبطين رسميا بأى تنظيم. يمكن القول إنه بإمكان أية حركة شيوعية أو اشتراكية قادرة على إنتاج قيادات مناسبة التعبير الكامل عن مطالب الشعب بالمساواة والقضاء على الفقر والاستخدام الصحيح لموارد إيران الطبيعية الهائلة من أجل تنمية البلاد. بيد أن اليسار ركز على نقد سياسة الشاه التنموية، حيث كان كثيرون يرون أنه، وعلى الرغم من أن عملية التصنيع كانت إيجابية نسبيا، بيد أن التنمية غير المتوازنة منعتهم من الاستفادة الكاملة من التنمية الاجتماعية/ الاقتصادية. أيضا، تجاهل اليسار قضية الديمقراطية الملحة التى لم يكن لها وجود فى ظل حكم أسرة بهلوى نتيجة لهذا، فشل اليسار فى حشد الطبقة العاملة ورغم أنهم كانوا المستفيدين الرئيسيين من عملية التصنيع، إلا أن الأزمة الاقتصادية ألحقت بهم عظيم الأضرار. وعلى الرغم من تأثير اليسار فى أوساط الطبقة الوسطى الحداثية، إلا أن هذا التأثير لم يمتد إلى القطاعات المتدينة.

كان الشيوعيون والاشتراكيون الإيرانيون مرتبطين بأسلوب مباشر أو غير مباشر، بالسياسات الستالينية السوفيتية، وكان ذلك النظام، كما

تبين لاحقاً، على وشك إنهاك نفسه، وكانت «الشيوعية» بالفعل قد خذلت شعوب الشرق الأوسط، بمن فيها إيران، كان يهيمن على الاتحاد السوفييتي نخبة ثرية فاسدة من بيروقراطيين الدولة يديرون شئون مجتمع تسوده عدم المساواة، وكان في هذا دلالة أكيدة على أن «الشيوعية» قد تخلت عن دورها التاريخي كنصير للشعوب المقموعة في جميع الأنحاء، وبخاصة تلك التي تستعمرها، أو كانت تستعمرها القوى الإمبريالية الغربية بما في هذا بلدان الشرق الأوسط. وكما ذكرنا، فإن فشل الاتحاد السوفييتي فهم الصهيونية على أنها صنعة الإمبريالية الغربية واعتراف ستالين بدولة إسرائيل ومساعدته في تسليحها أدى إلى التهميش البالغ للحركة الشيوعية في البلدان الإسلامية. وفي ظل تلك الأوضاع، كانت دهشة العالم بالغة، حينما خطف الإسلام، ذلك الدين العظيم القديم ليملاً الفراغ السياسي القائم، وكانت المساجد، لا المصانع أو حقول النفط، هي التي كانت مصدر توجيه الثورة.

#### الفترة الثورية: ١٩٧٩ - ١٩٨٠

بين عامي ١٩٧٨ و١٩٧٩، وطدت الطبقة العاملة والطبقات الوسطى التقليدية تحالفاتها مع الإسلاميين. لم تستطع غالبية الشعب التماهي مع المعارضة العلمانية، عبرت رسائل الإسلاميين عن مشاعر الفقراء في المدن وطموحاتهم بدرجة أكثر تأثيراً من المجموعات الليبرالية واليسارية. اتخذت المعارضة الإسلامية شكل القومية المستقلة عن نظام الشاه القومي وحليفه أمريكا فيما فشل اليساريون والقوميون في الحفاظ على استقلالهم الذاتي داخل إطار الحركة الثورية أو في إقامة عملية أسلمة بديلة. أدت الضغوط الناجمة إلى إنتاج حركة ثورية جماهيرية استمدت جوهرها من الماركسية والشيوعية، ونظمها الإسلاميون، ثم أطاحت بديكتاتورية الشاه البغيضة.



صعدت الجمهورية الإسلامية من رماذ ثورة ١٩٧٩ الإيرانية، والتي يمكن القول إنها الحدث الأكثر ديموقراطية في القرن العشرين والتي لا يستوعبها سوى القلة القليلة في العالم، وعلى الرغم من بعض القيود على الحقوق الديموقراطية في الجمهورية الإسلامية، إلا أنها ولدت من رحم حركة احتجاجات جماهيرية هائلة. طالبت الحركة بالديموقراطية، وإنهاء العلاقات مع الدول الإمبريالية والقضاء على الفقر، وإتاحة موارد الدولة للجميع. وعلى الرغم من التفسير المباشر الأساسي لمن قاموا بدفع ثورة ١٩٧٩، لكنه غالباً ما يساء فهمه. رأت الغالبية الثورة بصفتها خطوة أولى للتحرر من التنمية الاقتصادية والسياسية غير المتوازنة لدولة بهلوى. كان إعادة بزوغ تنظيمات نسائية وعمالية وإثنية ودينية متنوعة تتناضل من أجل حقوقها تعبيراً عن رغبة الشعب في التغيير بأساليب كثيرة. كان فشل اليسار والقوميين الليبراليين في تقديم بديل عملي قابل للحياة يعنى تصوت الغالبية دعماً للجمهورية الإسلامية في الاستفتاء الذي أجري في إبريل ١٩٧٩. بيد أن الدولة الإسلامية، وبمجرد أن ترسخت، بدأت تتجاهل نضالات المجموعات المختلفة من أجل حقوقها. كانت النساء أول من تحمل وطأة قمع الدولة التي عزلت العلمانيات وفضلت مشاركة المتدينات فقط، وذلك لصالح الدولة البطريركية. توفرت الفرص المادية للمتدينين من الرجال والنساء، الذين كانوا مهمشين في ظل دولة بهلوى العلمانية، وأتيح لهؤلاء المجال لممارسة درجة من السلطة. كان قرار الدولة ممارسة تقسيم صارم للعمل يقوم على الجنس وفرضها الحجاب وعدم الاختلاط يعنى أنها ترى أن مكان المرأة المناسب هو المنزل. اعتبرت الأمومة والزوجية أهم أدوار المرأة، أما كسب العيش فهو مسئولية الرجال. غدا سلوك المرأة في الأماكن العامة قضية مركزية. تم

فصل عدد كبير من النساء من وظائفهن لعدم التزامهن بالزى «الإسلامى» وقواعد السلوك الإسلامية، فيما دُفِعت أخريات إلى التقاعد المبكر أو أصبحت أعداداً زائدة فى أماكن عملهن<sup>(١)</sup>. دعمت سياسات الدولة الخاصة بعمالة النساء تقوية العلاقات البطيريركية فى مجالات التعليم والزواج من خلال قوانين وأحكام مؤسسة على التفسير التقليدى للشرعية. تم عكس ما حققته المرأة من تقدم ضئيل فى عصر الشاه. أعيد إلى الرجل الحق الحصرى فى الطلاق وفى الزواج من أربع نساء، وعدد غير محدود من الزوجات المؤقتة (Sighe) بدون إذن الزوجة الأولى. تم التصديق على تشريعات الأحوال الشخصية الإسلامية المحافظة التى كانت تتضمن حق الرجل فى منع زوجته من العمل، تطلب أن تحصل المرأة على إذن من أقاربها الذكور كي تعمل أو تسافر أو تغير مكان إقامتها، وحق الزوج، فى حالة الطلاق فى حضانة البنات بعد سن السابعة والأولاد بعد سن العامين، ثم ينتقل هذا الحق إلى أقاربه فى حالة وفاته؛ وحظرت وسائل منع الحمل والإجهاض، مثل ذلك نكسة خطيرة للملايين النساء اللاتى دعمن الثورة بمن فيهن المتدينات. وعمل ذلك أيضاً على كشف المثل المتناقضة التى حفزت الثورة. بيد أن هؤلاء النساء، وكما سنيين لاحقاً، استمررن يناضلن من أجل حقوقهن. منحت أنشطة النساء السياسية فى الفترة الثورية، وعملهن مدفوع الأجر والمجاني فى الثمانينيات، المرأة حساً بالوعى الجمعى بالتقابل مع دورهن المحدود بالمنزل.

(١) على الرغم من احتمال صحة كل هذا، إلا أن المؤلفة تلجأ إلى السرد المرسل، ولا تورد إحصائيات أو أمثلة واقعية، حياء ذلك، لا يملك القارئ الناقد سوى تقبله بشئ من التحفظ (الترجمة)

على المستوى الاقتصادى، عانت الطبقة العاملة والفقراء أيضا. تبنت الدولة الإسلامية اقتصادا إسلاميا متحكما به. وسعت القطاع العام على حساب القطاع الخاص. أيضا، أدى الحظر الدولى على التجارة مع إيران إلى عزل البلد عن الاقتصاد الكوكبى وإلى ركود اقتصادى عانت منه جميع قطاعات الاقتصاد ونجم عنه تراجع المخرجات وارتفاع معدل البطالة، علاوة على ذلك، أدى انهيار العملة الإيرانية فى السوق العالمى إلى إلحاق الضرر بتجارة إيران الخارجية وحدث تضخم وشح فى المعروض من السلع. تمت زيادة الأجور بضغط من مجالس شورى العمال، بيد أنه ونتيجة للتضخم، فقد انخفضت الأجور واقعا ولم تؤد الزيادات إلى مساعدة كثير من الأسر الأكثر فقرا. كما عملت البطالة والتضخم على تقلص القدرة الشرائية بشكل حاد.

فى تلك الفترة، تزامن القمع المحلى مع شعبية سياسة إيران الخارجية بالداخل وفى المنطقة. وكما سنذكر لاحقا، حظى موقف إيران ضد الإمبريالية الثقافية والهيمنة الأمريكية، ومازال يحظى، بشعبية كبيرة لدى مختلف الحركات فى الشرق الأوسط. ألهمت الثورة الإسلامية التنظيمات الشيعية فى أفغانستان وباكستان، ومنطقة الخليج، والعراق ولبنان ودفعتها إلى تنظيم صفوفها. عقب ذلك، غدا حزب الله فى لبنان قوة إقليمية لافتة. تحدثت إيران الأنظمة الاستبدادية التابعة للغرب فى المنطقة، فيما استمدت حركات المعارضة فى المنطقة وخارجها الإلهام من نجاح الثورة الإيرانية وتطلعت إلى طهران من أجل الدعم. وكنتيجة للحركات الإسلامية الناشطة فى أنحاء الكوكب، ازدهرت إيران سياسيا، وشعر الغرب بتهديد شعبيتها فى أنحاء المنطقة. فى ظل تلك الملابس احتلت مجموعة من الطلبة بقيادة بعض رجال الدين الناشطين السفارة

الأمريكية في طهران في نوفمبر ١٩٧٩ واحتفظوا بالعاملين فيها رهائن، وطالبوا الولايات المتحدة بتسليم الشاه إلى إيران، والاعتذار للشعب الإيراني عن تورطها في الانقلاب ضد مصدق عام ١٩٥٣، ومساندتها لحكم بهلوي. كان لذكريات انقلاب السي آي إيه عام ١٩٥٣ كبير الأثر على هذه الواقعة، وكانت بمثابة تحذير للولايات المتحدة ضد أية عملية محتملة تقوم بها، كما عملت على ترسيخ النظام الإسلامي.

تعاظم القمع السياسي الداخلي في أعقاب احتلال السفارة الأمريكية. كان حزب توده، والقوميون، والمثقفون الليبراليون وبعض مجموعات اليسار قد تبعوا النظام الإسلامي على أساس أن مواقفه كانت معادية للإمبريالية، لكن بمجرد أن رسخ النظام سلطته وجد كثير من أعضاء تلك الجماعات أنفسهم مضطهدين. في تلك المرحلة، ردت منظمة مجاهدي خلق بحملة اغتيالات وتفجيرات ضد رموز الدولة الإسلامية وفي مواجهة تلك الهجمات، قامت الدولة بسحق كل المعارضين دونما هوادة. تم تعذيب وإعدام الآلاف، وفر آلاف آخرون خارج البلاد.

وبالرغم من القمع السياسي والقيود الاجتماعية مضت الدولة قدما في برنامج إعادة توزيع الثروة وسعت إلى أساليب تشرك بها الفقراء والإسلاميين في المؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وكما يبين الفصل الثاني بالتفصيل، تم القضاء على الأحياء الفقيرة القذرة، وعلى الفقر المدقع؛ وارتفع معدل الإلمام بالقراءة والكتابة خلال جيل واحد. أتاحت الرعاية الصحية والتعليم، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع التوقعات الشخصية، وإلى مزيد من الضغط من أجل الديمقراطية التي أهملتها الدولة بالرغم من أنها كانت أحد مطالب الثورة المهمة.

#### الحرب الإيرانية العراقية، ١٩٨٠-١٩٨٨

هددت ثورة ١٩٧٩ المصالح الاقتصادية والاستراتيجية للولايات

المتحدة وحلفائها بالمنطقة. بعد الثورة، انسحبت إيران من جميع الأحلاف والتحالفات التجارية والعسكرية مع الغرب فى المنطقة، وأبعدت نفسها بخاصة عن الدول المنتجة للنفط فى الخليج التى كانت تربطها بالغرب علاقات اقتصادية تدر عليها الأموال. تمتعت الثورة بشعبية من قبل شعوب المنطقة حيث كان الكثيرون منهم يعانون اقتصاديا وسياسيا على أيدى الأنظمة الموالية للغرب التى لم تكن تأبه بفقرتهم وبطالتهم وافتقارهم للحقوق الأساسية وفرص التعليم والرعاية الصحية ناهيك عن الحقوق الديمقراطية للمشاركة السياسية.

كان آية الله الخميني يرى أن الثورة ليست قصيرا على إيران، فقد كانت ثورة من أجل جميع المحرومين فى العالم. لكنه أكد على أن بإمكانها أن تنتشر فقط إذا اقتنعت شعوب البلدان الأخرى بالحاجة إلى الإطاحة بالأنظمة الموالية للغرب. من ثم، رأى الغرب أن الثورة فى إيران تمثل تحديا للأنظمة الاستبدادية التابعة فى المنطقة.

كانت سياسة إيران الخارجية المعادية للإمبريالية تهدد صدام حسين بخاصة الذى كان قد تولى الرئاسة فى العراق عام ١٩٧٩. قرر غزو إقليم خوزستان الإيراني الثرى بالنفط وموطن أقلية إيرانية عربية. كان موقف الإدارة الأمريكية التى كانت مشغولة بأزمة الرهائن (نوفمبر ١٩٧٩ - يناير ١٩٨١) ملتبسا من اعتزام صدام غزو تلك المنطقة ولم تفعل شيئا لإثنائه عن المحاولة. كما شجع الملكيون الإيرانيون والذين كانت لهم روابط وثيقة مع الإدارة الأمريكية العراقيين على احتلال خوزستان باستدعائهم التاريخ الطويل لمظالم الأقلية الإثنية العربية من الحكومة المركزية فى طهران. يرى أديب مוגادام أن صدام حسين هو من ابتدع أسطورة العداء العربى / الفارسى المتوطن، وتحت شعار «تحرير عرب إيران المقموعين» هاجم البلاد فى سبتمبر ١٩٨٠.

بعمامة، نظر الغرب إلى اجتياح العراق لإيران بصفته وسيلة لإضعاف الثورة وإحلال نظام أكثر إذعانا محلها، أثناء المرحلة المبكرة من تلك الحرب ظلت إيران في موقف دفاعي، لكنها استعادت خوزستان بحلول عام ١٩٨٢ وأجبرت القوات العراقية على الانسحاب حتى الحدود. وعلى الرغم من عدم تلقى إيران أية مساعدات خارجية، فيما ساعدت دول المنطقة والقوى الدولية العراق بالأموال والسلاح والقوات، فقد التزمت إيران باستمرار القتال حتى الإطاحة بصدام حسين. وكما ستناقش في الفصل الخامس، كان دعم الدول الغربية لصدام حسين آنذاك يقوم على فرضية أن الحرب ستضعف إيران وتقلص من قدرتها على نشر «الأصولية الإسلامية»<sup>(١)</sup>. من ثم، التزم الغرب الصمت حينما استخدم صدام الأسلحة الكيميائية ضد الجنود الإيرانيين وحينما دمر بلدة حلبجة الكردية بالكامل، ولم تناقش تلك الأفعال علنا إلى أن غزا صدام الكويت عام ١٩٩٠. وكما تكتب شيرين عبادي (الفائزة بجائزة نوبل للسلام عام ٢٠٠٣) قائلة:

«سرعان ما استغنى صدام عن غاز الأعصاب وانتقل إلى استخدام سلاح أصبح مفضلا لديه وهو عامل حارق يعرف بغاز المسطردة. وبخلاف غاز الأعصاب فإن لغاز المسطردة رائحة مميزة مثل الثوم وليس له ترياق ويقتل ببطء بالأم لا تحتل، بعيد استنشاق الجنود في الجبهة الهبة الأولى، كانت أبصارهم تُقشَى ويبدأون في السعال نوّما توقف، و التقيؤ. وفيما كانت الساعات تمضي كانت جلودهم تبدأ في التقرح وتغمق وتصطبغ بحمرة قاتمة. ثم تبدأ رقع كاملة من جلودهم في التساقط وتسود إبطهم وأربياتهم. كان من يبقون على قيد الحياة ينقلون

(١) الأخرى أن الغرب قد أراد استنفاد قوة إيران والعراق في أن خدمة لمصالح إسرائيل وأمنها.

(الترجمة)

إلى المستشفيات لمدة تتراوح بين بضعة أيام وبضعة أسابيع.. وإذا استعادوا قدراتهم الوظيفية كانوا يعودون إلى الجبهة».

فى النهاية، دعت الأمم المتحدة إلى وقف إطلاق النيران وانسحاب القوات إلى الحدود لكنها لم تُدن غزو صدام لإيران واستخدامه الأسلحة الكيميائية سوى بعد سنوات عدة، اتضح فيما بعد أن الاستخبارات الأمريكية كانت على علم باستخدام صدام لتلك الأسلحة، بل إن إدارة ريجان أمدت صدام بصور للأقمار الاصطناعية عن مواقع انتشار القوات الإيرانية. فى عام ١٩٨٧، هاجم طيار عراقي، عن طريق الخطأ السفينة الأمريكية ستارك وقتل ثلاثين أمريكيا إلا أن إدارة ريجان ألقت بالمسئولية على «الإيرانيين البرابرة».

وفى يوليو ١٩٨٨، أسقطت سفينة حربية أمريكية كانت راسية بالخليج الفارسى طائرة ركاب إيرانية مما نجم عنه قتل ركابها البالغ عددهم ٢٩٠ شخص. لم يتقبل كثير من الإيرانيين ومن شعوب المنطقة أن الجيش الأمريكى المجهز بأرقى المعدات لم يستطع التمييز بين طائرة ركاب مدنية كبيرة والطائرات الحربية الصغيرة. لم يُدن ريجان هذا العمل الإجرامى بل إن الولايات المتحدة منحت قبطان الباخرة وساما خاصا، وكما تقول شيرين عبادى، كان من المحتم لمثل تلك الأفعال أن تزيد من العداء تجاه الولايات المتحدة فى إيران والمنطقة بأكملها.

بين عامى ١٩٨٣ و١٩٨٦، نقلت منظمة مجاهدى خلق مقرها الرئيسى وقيادتها إلى العراق واشتركت مع صدام فى الحرب ضد إيران. شن مقاتلوها فى عام ١٩٨٨ هجوما على إقليم كرمينشاه بهدف تمكين صدام من «تغيير النظام» فى إيران، حيث اعتقدوا، بل مازالوا يعتقدون، أنهم بقتالهم النظام فى إيران سيطيحون بالنظام الإسلامى من خلال إشعال انتفاضة ضده.

أثناء الحرب العراقية الإيرانية، توثق التحالف بين إسرائيل والولايات المتحدة حيث كانت الثورة قد تسببت في فقدانها حليفا إقليميا ذا قيمة كبيرة ممثلا في نظام الشاه. ووفقا لما سنذكره لاحقا، لم تعترف الجمهورية الإسلامية بدولة إسرائيل ورفعت شعار «تحرير بغداد من صدام حسين، تحرير فلسطين من الصهاينة ثم في النهاية مواجهة الولايات المتحدة أو الشيطان الأعظم». حظيت هذه السياسة الخارجية، وبغض النظر عن الملابسات السياسية الداخلية، بشعبية كبيرة في إيران والمنطقة.

وفي مواجهة شعبية إيران، مضت الولايات المتحدة والحكومات الغربية في فرض مزيد من العقوبات على إيران ومساندة المعارضة الإيرانية وبخاصة المكيون وتنظيم مجاهدي خلق الذين تعهدوا بتغيير النظام. كانت سياسة الولايات المتحدة ضد المجموعات الإسلامية غير متسقة، إذ إنهم ساندوا طالبان والقاعدة ضد الاتحاد السوفييتي واتخذوا موقفا عدائيا من النظام الإسلامي في إيران<sup>(١)</sup>. بيد أنه كلما هاجم الغرب إيران من خلال إعلامه وسياسته زادت شعبية إيران بين جماهير جيرانها. على أية حال، انتهت الحرب الإيرانية العراقية بعد أن فشل حصار إيران لمدينة البصرة. كانت حربا لا يمكن كسبها، وكان حصارها حوالى مليون قتيل ونصف المليون مشوه من الطرفين.

### طبيعة الدولة الإسلامية:

منذ بداية القرن العشرين، ظلت الحدود الفاصلة بين الإسلام المحافظ

(١) لعل ذلك يرجع إلى أن القاعدة وطالبان مجرد جماعات يمكن استخدامها عند الحاجة، ثم الانقلاب عليها واتخاذها ذريعة لشن الحروب. أما النظام الإسلامي في إيران فهو نظام دولة أثبت فاعليته وقدرته على التصدي للسلبات التي تمثلها سياسة الولايات المتحدة. (الترجمة)



والإسلام الليبرالى الديموقراطى فى إيران وخارجها فى حالة سيولة دائمة تؤثر فيها الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. كانت الثورة الإيرانية ثورة حدائية حضرية، لكن الدولة الإسلامية استخدمت القمع من أجل البقاء حينما واجهتها التحديات الداخلية والخارجية، وبخاصة حرب صدام حسين. بيد أنه لا بد من توضيح أن الدولة العلمانية الحديثة فى ظل الشاه كانت تفوق الدولة الإسلامية بكثير كدولة بطيركية قامعة. منذ عام ١٩٧٩، ظل جوهر مفهوم «حكم الشعب - hoko-mate mardomi» قويا وفاعلا فى إيران. بالطبع، فإن الشعب فى إيران، وفى بعض الحقب التاريخية، كان يعتقد الإسلام المحافظ أحيانا، وأحيانا أخرى الإسلام الليبرالى.

فى الثمانينيات، انتشر مفهوما «الملتزمين Moteahed» و«المتخصصين Motekhasenes» فى إيران. رأى المحافظون أن المواطنين الصالحين هم من يظهرون التزاما أيديولوجيا للنظام؛ أما المصلحون الليبراليون فقد ذهبوا إلى أن دور المواطنين الصالحين هو التخصص فى مواضيع علمية. أدى الجدل النشط حول الموضوع إلى تبنى الدولة والمؤسسات الأخرى للمصطلحين معا - أى لفكرة أنه ينبغى على المواطنين الصالحين أن يكونوا ملتزمين ومتخصصين فى آن. وفى هذا السياق، فإن نحن عرفنا التوجهات المحافظة على أنها الحفاظ على القيم التقليدية، سنجد أن الدولة، ومنذ عام ١٩٧٩، قد نجحت فى تجسير الفجوة بين ما هو محافظ وما هو ليبرالى بأكثر مما يفترض بعامة. أما الأهم فهو أن الحرب الإيرانية العراقية خلقت حالة طوارئ أدت إلى مزيد من مركزية الدولة وتحكمها، إذ إنها مضت فى فرض «الأسلمة» وقمع النساء والأقليات العرقية واليساريين والقوميين. أدت تلك الحرب إلى تراجع القومية الإيرانية وتصاعد مستوى متعاضد من التدين ومن ثقافة الجهاد الاستشهادى. كما أنتجت دولة قوية وشكلت طبيعتها وسياساتها القومية والخارجية وأتاحت بذلك للإسلاميين المحافظين ترسيخ سلطتهم.

قامت الدولة، أثناء الحرب، بقمع الحركات العلمانية: مجالس شورى العمال المستقلة، والتي حلت محلها اتحادات إسلامية. كما حلت محل تنظيمات النساء والطلبة العلمانية بتنظيمات أخرى ترعاها الدولة. شن النظام حملة ضارية ضد منظمة مجاهدي خلق والجماعات السياسية الأخرى المتعاطفة معها. في عام ١٩٨٠، أدى انفجار في المقر الرئيسي للحزب الجمهوري الإسلامي إلى مقتل ٧٢ من قياداته. ردت الدولة على هذا التفجير باعتقال وإعدام الآلاف من أعضاء تلك المجموعات السياسية ولقيت هذه الإجراءات تأييدا شعبيا واسعا. بيد أن بعض رجال الدين عارضوا تلاعب المحافظين بالبيئة السياسية وانتهاك حقوق الإنسان في المعتقلات. ظل آية الله منتظري، وحتى وفاته في ديسمبر ٢٠٠٩ معارضا لاستبداد الدولة، واحتج لدى آية الله الخميني بأقوى العبارات على الإعدامات والتعذيب في السجون. نجم عن ذلك أن عزله المحافظون.

بالطبع، يمثل هذا القمع السياسي وجها غير مقبول من الإسلام السياسي الحديث. بيد أن تلك الانتهاكات، وأسوأ منها، تحدث في ظل الدول العلمانية، من ثم، لا يجوز اعتبار أن الإسلام السياسي الحديث مجرد عودة إلى الاستبداد والبربرية كما يزعم أكاديميون ونشطاء الغرب، ومعهم الإعلام والسياسيون. فقد لجأت كل الثورات العظيمة الحديثة مثل الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ والثورة الروسية ١٩١٧ إلى الرعب المؤسسي من أجل ترسيخ سلطتها وإقامة النظام السياسي لما بعد الثورة، ولا تختلف إيران كثيرا عن هذا، على الرغم من أننا نرى أن مثل هذه السلوكيات غير مبررة<sup>(١)</sup>.

(١) هنا يجب إضافة أنه في حالة إيران، فإن دول الغرب والولايات المتحدة يستخدمون الأدوات الداخلية والخارجية لمحاربة النظام وزعزعة الاستقرار بأساليب أكثر تطورا لم تكن متوفرة أثناء الثورتين الفرنسية والروسية. (الترجمة)

لم يكن ثمة تيارات طاليانية أو وهابية جديدة بالأسلوب السعودي في إيران أبداً. ومنذ بداية الجمهورية الإسلامية، ظل ثمة صراع بين الإسلام المحافظ والإسلام الديموقراطى لأن غالبية الشعب الإيرانى يؤمنون بالفقه الإسلامى الدينامى المتجدد وبفكرة أن الإسلام يتسق مع الحداثة، فى حين تقوم التوجهات المحافظة للدولة ومؤسساتها على أساس تعزيز المواقف البطركية تجاه قضايا الجندر وعلى الحد من الحقوق الديموقراطية وإتاحة الأماكن العامة لجميع المواطنين، وفى هذا السياق، هيمن رجال الدين المحافظون، تدريجياً على الدولة وفقد رجال الدين الذين يؤمنون بالفقه المتجدد، مثل آية الله موسى أردبيلى وغيره، سلطتهم.

غدت نظرية ولاية الفقيه هى الفلسفة السياسية التى تبناها النظام الجديد. أدمجت هذه النظرية فى الفلسفة السياسية الحديثة للفصل بين مؤسسات الدولة - السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية، وفى هذا السياق، تم إضفاء أهمية خاصة على الانتخابات وأصوات الشعب أقيم مجلس الشورى (الرعاة أو الأوصياء) على غرار ما جاء به دستور الثورة الفرنسية وتشكل من عدد من رجال الدين أعطيت لهم سلطة الإشراف على جميع الانتخابات باستثناء المحلية منها، حيث يشرف هذا المجلس على الانتخابات النيابية والرئاسية ويقيم صلاحية المرشحين، ويشرف أيضاً على انتخابات مجلس الخبراء Majles Khebregan الذى يتألف من ستة وثمانين من كبار رجال الدين الذى يختار بدوره مرشد الثورة الإسلامية (حتى تاريخه، الخمينى ١٩٧٩ - ١٩٨٩؛ والخامنى ١٩٨٩ وإلى اليوم). فيما بعد اكتسبت تلك المؤسسات سلطة كبيرة لدرجة عدم إمكانية ضمان التعيين فى أى موقع دونما موافقة أعضائهما. كان هدف تشكيل «مجمع تشخيص المصلحة» هو منع أعضاء هذا المجلس سلطة

التوسط في الصراعات بين البرلمان ومجلس الأوصياء. من ثم، تقتضي عملية انتخاب القادة، وأعضاء البرلمان، ورئيس الجمهورية مشاركة النخب الإسلامية والشعب في الانتخابات، وعلى الرغم من أن النخب الإسلامية محافظة فإن النظام لا يتضمن الدين والدولة فقط، بل ممارسة الحكم الديني والديموقراطية معاً.

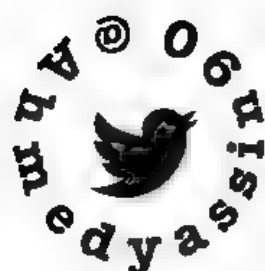
من ثم، فما يحدث على أرض الواقع هو أن أسلمة إيران تتمتع بتأييد جماهيري، مثلما يتمتع القادة بتأييد جماهيري قاعدي كما سنرى في الفصل القادم. اكتسب كل من خاتمي، وأحمدي نجاد ومير موسوي، على الرغم من اختلاف شخصياتهم وأرائهم السياسية تأييد غالبية من السكان. من ثم، لا يمكن القول بأن الدولة والمجتمع في إيران «أصوليون» بقدر ما هم حداثيون شرعيون يعتمدون على الحوار والتنافس بين من يريدون الحفاظ على الإسلام المحافظ وهؤلاء الذين يرغبون أن تعتنق الدولة الإسلام الديموقراطي الحديث. وكما سنرى في الفصل الثالث، فقد ظل ثمة تنافس تاريخي في مجالات الإسلام الشيعي الإيراني بين التقاليد المحافظة والليبرالية الديموقراطية، إلا أن كلاً من التوجهين حقق أهدافه من خلال العملية السياسية.

أما في المجال الاقتصادي فعلى الرغم من اقتصاد الحرب والقمع السياسي أثناء الحرب الإيرانية العراقية - تكريس الإنتاج والموارد للمجهود الحربي - فقد مضت الدولة الإسلامية، عن حق، في تحسين حياة ملايين الإيرانيين العاديين. في الثمانينيات أنشئت مؤسسات وصناديق عديدة - مثل مؤسسة المستضعفين، وصندوق المضحين الذين يشملون الجنود المشاركين في الحرب الإيرانية العراقية وعائلاتهم؛ ومؤسسة الشهيد التي تُعنى بأسر من ماتوا في الحرب، والباسيج (المتطوعين غير النظاميين في الحرب الإيرانية العراقية)، أما «لجنة الإمام الخميني، فكانت مهمتها مساعدة الفقراء؛ وأيضاً صندوق كتائب

محو أمية الكبار»؛ وأنشئت أيضا فرق لإعادة الإعمار. مولت الدولة تلك التنظيمات وأمدت الملايين من أفراد الطبقات العاملة الحضرية والريفية بالخدمات الاجتماعية.

نتيجة لهذا، أفد الكثيرون من المتدينين، رجالا ونساء، ومن أفراد الطبقات العاملة، مادياً من عملية الأسلمة ومنحوا الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامى دعمهم وتأييدهم. وفى تلك الفترة، قامت الدولة بتأميم البنوك وشركات التأمين والصناعات الرئيسية وأعادت توزيع الثروة بعد مصادرة ممتلكات الشاه وحلفائه - هرب ملاك رأس المال ونظراؤهم من البلد بعد ثورة ١٩٧٩. تم هدم مدن الصفيح وأسكن شاغلوها فى الممتلكات المصادرة وأعطيت أولوية التوظيف والتعليم لأفراد الطبقة الوسطى ذوى التوجهات الدينية، ولفقراء المدن والطبقة العاملة الذين أيدوا الثورة. وكان الإسلاميون قد همّشوا واستبعدوا أثناء عمليات التنمية التى تمت فى عهد الشاه فى الستينيات والسبعينيات. أتاح لهم الثورة الإسلامية الموارد المادية والأيدولوجية والفرصة لممارسة السلطة. من ثم، يمكن القول إن الأسلمة ولدت من رحم التحولات المادية.

ظهر، فى فترة ما بعد الحرب، ثلاثة تيارات سياسية رئيسية. البرجماتيون الذين اعتقدوا فى استقرار العلاقات الاقتصادية على المستويين المحلى والدولى؛ والمحافظون الملتزمون بالأيدولوجيا الإسلامية التقليدية والحق فى الملكية الخاصة، والراדיكاليون الذين كانوا ينادون بتصدير الثورة من خلال دعم النشاط الثوريين فى أرجاء الشرق الأوسط. وفى تلك الفترة، غيرت الدولة تدريجيا سياستها الاقتصادية للاكتفاء الذاتى وأنهت محاولة العمل فى عزلة عن الاقتصاد العالمى الذى يهيمن عليه الغرب، وبدلاً من ذلك حفزت العودة إلى التصنيع كبديل للاستيراد الذى ساد فترة ما قبل ١٩٧٩.



## الإصلاحيون والمحافظون والنضال من أجل الديمقراطية

كانت إعادة هيكلة الاقتصاد الإيراني في التسعينيات خطوة من أجل المزيد من الاندماج في الاقتصاد الكوكبي. وعلى الرغم من التركيز على الأحكام المالية الإسلامية الأخلاقية، فإنه سرعان ما تكيفت التنمية الاقتصادية غير المتوازنة مع الرأسمالية العالمية، وبالتناقض مع الحقبة الأولى للأسلمة، فقد عدلت القوانين والأحكام الاقتصادية لتتيح العمل لأسلوب إنتاج رأسمالي بنكهة إسلامية يقوم على ملكية الدولة والملكية الخاصة. ساعدت عوائد النفط على توليد التمويلات؛ وكانت حرب الخليج عام ١٩٩١ قد أدت إلى ارتفاع أسعار النفط مما أفاد إيران، وعلى الرغم من ذلك ظل الاقتصاد يعتمد بقوة على العائدات النفطية. الأمر الذي أدى إلى تخلف نمو إيران الاقتصادي عن مثيله التركي والكوري الجنوبي والماليزي التي أتاح لها تنوع اقتصاداتها أداء أفضل.

في ظل حكومة الرئيس علي أكبر رافسانجاني (١٩٨٩-١٩٩٧)، تولى محمد حسين عادلي محافظ البنك المركزي الإيراني (١٩٨٩-١٩٩٤) قيادة حزمة إصلاحات اقتصادية كان لها أثر حاسم في إعادة إعمار البلد بعد الحرب الإيرانية العراقية. تم الحفاظ على أسعار العملات الأجنبية والسياسية المالية؛ وأقيمت مناطق تجارة حرة في الجنوب الإيراني على جزر كيش (قيس) في الخليج؛ حفز تحرير سعر صرف العملات الأجنبية الخصخصة ومعدلات الاستيراد؛ كما أدت زيادة الضرائب إلى زيادة العائدات الحكومية. تضمن تخطيط التنمية الاستثمار في الصناعات النفطية، والبتروكيميائية والدوائية والغذائية، والزراعية وتصنيع السيارات وصناعات الكهرباء والإعمار كما تم إنشاء سدود وأنفاق ومطارات جديدة. أدت تلك الإجراءات إلى فترة من النمو

الاقتصادي النسبي وارتفاع مستويات الاستهلاك التي أدت بدورها إلى ازدهار نسبي وتوسع الطبقة الوسطى وارتفاع كبير في مستويات التعليم والمتوسطات المتوقعة لأعمار السكان. بيد أن التوسع الكبير في الخصخصة تم من خلال الحصول على قروض كبيرة من الأسواق الدولية. أعقبت قروض البنك الدولي بين عامي ١٩٩١ و١٩٩٤ فرض سياسات لإعادة الهيكلة وإلغاء التحكم في الأسعار وتقليص الدعم مما أدى إلى ارتفاع معدلات التضخم والبطالة. احتج العمال على تأخير أجورهم أو عدم دفعها، وعلى قضايا الرعاية الصحية وأمان بيئات العمل، وعلى الفوائد في عدد العمال نتيجة للتعاقدات من الباطن، في فترة رئاسة رافسانجاني الثانية، عرض على الولايات المتحدة استثمارات واسعة المدى في قطاع النفط والغاز بإيران، بيد أن إدارة



كلينتون رقصت العرض وفرضت، بدل ذلك، مزيداً من العقوبات. أدى ذلك بإيران إلى تعميق روابطها التجارية مع أوروبا والصين وروسيا والهند. وبحلول سنوات التسعينيات الأخيرة كانت إيران تتبع كبار الدعاة إلى اقتصادات السوق الحرة من خلال تقليص دور الدولة في الرعاية الاجتماعية وتشجيع الخصخصة في ظل تحكم الدولة. ومازال هذا التوجه مستمرا حتى اليوم.

تمتعت صناديق ومؤسسات الرعاية الاجتماعية الإسلامية التي أقيمت في الثمانينيات ومولتها لدولة ووفرت الخدمات الاجتماعية للملايين من الطبقات العاملة بالمدن والريف، تمتعت بدعم قاعدي جماهيري. تم تشجيع هذه المؤسسات في سنوات التسعينيات لتصبح مشاريع خاصة مستقلة عن الدولة. من ثم، تحولت تدريجياً إلى تنظيمات رأسمالية من خلال إنشاء الشركات القابضة والجمعيات الخيرية. والآن، فهي تمتلك وتدير بزنسات للإنشاءات، وتصدير واستيراد النفط والغاز والاتصالات. أيضاً، تعمل في أسواق المال والملكيات العقارية. وبروابطها القوية مع الدولة غدت وسائل للإثراء الذاتي، بدلا من وسائل لتوفير الخدمات الاجتماعية.

وعلى عكس ما يعتقده الغرب عن «الأصولية» الإسلامية، فقد تبنت إيران أثناء تلك الفترة السياسات الاقتصادية النيوليبرالية وشجعت الحكومة والبرلمان الخصخصة والمنظمات غير الحكومية كشرط مسبق للانتقال إلى نظام السوق والتحرير الاقتصادي الداخلي ونهج أكثر انفتاحا على الاقتصاد الدولي. وعلى الرغم من أن سياسة إيران الاقتصادية تغيرت بحيث تتوافق مع السياسة الاقتصادية الكوكبية، فقد واصلت الدولة الإيرانية كدولة اقتصاد ريعي - تعتمد على عائدات النفط في التنمية الاقتصادية - وتحت ضغط من مختلف تنظيمات المجتمع

المدنى، سياساتها التدخلية على أساس أن الدولة جزء من المجتمع المدنى وتخضع للضغوط السياسية التى تمارسها تنظيماته.

وتحت هذه الضغوط استثمرت الدولة فى الخدمات العامة التى أفادت العائلات منخفضة الدخل فى المناطق الريفية والحضرية معا. تدل المؤشرات التالية على تحسن الأوضاع:

- أفاد ٩٣٪ من السكان من مياه الشرب الصالحة.
- تمتع ٨٤٪ من السكان بالتركيبات والتجهيزات الصحية.
- تطعيم ٩٩٪ من الأطفال.
- معدل انتشار فيروس نقص المناعة HIV بين الكبار ٠.١٪. (الأكثر انخفاضا فى المنطقة).

- ارتفع عدد سكان المدن إلى ٧٠٪ من المجموع الكلى للسكان.
- بلغ متوسط العمر المتوقع ٧١ عاما بين النساء و ٧٠ عاما للرجال.
- نسبة استخدام وسائل منع الحمل ٧٧٪ (الأعلى فى المنطقة).
- ارتفعت نسبة الإلمام بالقراءة والكتابة من ٢٢٪ فى الستينيات إلى ٨٥٪ فى عام ٢٠٠٧ (٨٩٪ فى المناطق الحضرية و ٧٥٪ فى المناطق الريفية).

- ٦٥٪ من طلبة الجامعات إناث.
- نسبة وفيات الموليد ٣٩ من كل ألف مولود.
- تحسنت وسائل الاتصالات بمعدل ٤٠٠٪ (توفير الهواتف والإنترنت).

- بلغ معدل نمو السكان ١.٦٪ (مقارنة بمعدل ٣٪ فى الستينيات والسبعينيات) وذلك نتيجة لوسائل تنظيم الأسرة الفاعلة.
- بلغ متوسط عمر الزواج ٢٦ عاما للرجال و ٢٣ عاما للنساء (مقارنة بمتوسط ١٨ عاما للنساء و ٢٦ عاما للرجال فى عام ١٩٦٦).

وكما ذكرنا من قبل، فإن الأثر المهم لدولة الرفاه الإسلامية كان توفير التعليم لغالبية السكان. بيد أن الأولوية في التعليم كانت للإسلاميين والطبقات العاملة في المدن والريف وذلك من أجل تحقيق ازدهار أكبر وفي هذا دلالة مهمة إذ إن دولة الشاه في الستينيات والسبعينيات عملت على إثراء نخبة صغيرة ولم تفعل سوى أقل القليل لتنمية بقية البلاد. في عام ٢٠٠٦/٢٠٠٧ كان ثمة ١٤,٥ مليون طالب في إيران، كما أن ٩٣٪ من المدارس ملك للدولة؛ ويمثل هذا زيادة مقدارها ٦٠٪ مقارنة بالمعدل الذي كان موجودا قبل الثورة. في نفس العام كان ثمة ٢,٥ مليون طالب بمراحل التعليم العالي، ٦٪ منهم بأقسام الدراسات العليا.

تغيرت ثقافة التعليم في تلك الفترة، حيث اعتبر الكثيرون شهادة الثانوية العامة غير كافية، لدرجة أن العائلات في المناطق الريفية كانت ترسل أبنائها ويناتها إلى البلدات والمدن للالتحاق بالجامعات. كانت معظم البلدات والمدن تضم جامعتين أو ثلاثاً وعلى الرغم من ذلك كان الطلب على الالتحاق بالجامعات يتزايد كل عام بدرجة تفوق استيعاب الجامعات الموجودة، وكان الطلبة في أنحاء البلاد يتنقلون بين طهران والمدن الصغيرة وبالعكس بحثاً عن الكليات والمعاهد التي تناسبهم. لم يعد التعليم العالي مقصوراً على الطبقات الوسطى والعليا في المناطق الحضرية وأدى هذا الانفتاح إلى زيادة التنوع الطبقي والثقافي. يرى خوسروخاشار أنه قد تم إنجاز تقدم حقيقي في الأبحاث والأنشطة العلمية، وأن غالبية المشاركين هم الجيل الجديد الذي أوجد واقعياً جماعة علمية بإيران لم يكن لها وجود من قبل.

تشير الإحصائيات التي أجريت على سوق العمل أيضاً إلى معدل تنمية اقتصادية أعلى مقارنة بالستينيات والسبعينيات. في عام ١٩٧٣،

كان عدد الصناعات التي يعمل بها أكثر من عشرة أشخاص هو ٣٩٧٣، وفي عام ٢٠٠٧ زاد عددها ليصبح ١٦٠١٨ يعمل بها أكثر من مليون شخص؛ ٩٦٪ منها مملوكة للقطاع الخاص والبقية ملكية عامة تشرف عليها الدولة، توظف ٢٥٪ من تلك المصانع العامة ما بين ١٠ و ٤٩ عاملاً و ١٢٪ منها ما بين ٥٠ و ١٠٠ عامل، و ٦٣٪ يعمل بها أكثر من ١٠٠ عامل، وككل، يشغل ٢٢٪ من السكان بالزراعة، و ٢٧٪ بالصناعة، و ٤٩٪ في مجال الخدمات. يعمل بمؤسسات الدولة حوالي ٢,٣ مليون شخص (٦٦٪ منهم رجال، و ٣٤٪ نساء)، وككل أيضاً، توظف المشاريع الخاصة ٨١٪ من مجموع العاملين، والمؤسسات التي تشرف عليها الدولة ١٩٪.

ومعاً، يمكن تصنيف تلك المشاريع على أنها القطاع الرسمي للاقتصاد. ٣٩٪ من المتخصصين نساء (٣٠٪ من النساء اللاتي يعملن في قطاع الاقتصاد الرسمي متخصصات في مجالهن). علاوة على ذلك، تؤلف آلاف النساء الكتب، ويصنعن أفلاماً، ويمارسن مستويات عالية من الرياضة. ثمة ما يربو على ٢٠٠٠ امرأة عضوات في مجالس المدن والقرى. كما أن غالبية الصحفيين الذين يحضرون جلسات البرلمان ويغطون الأنباء البرلمانية هم من النساء، وتمارس النساء «التدوين» على الإنترنت بكثافة كما يشاركن في الإعلام الذي أصبح أنثوياً بتزايد.

أيضاً، ثمة مئات الآلاف من الصناعات الصغيرة في القطاع غير الرسمي توظف أقل من ١٠ عاملين. وبالإضافة إلى القطاعين الرسمي وغير الرسمي المعترف بهما رسمياً، يسهم عدد كبير من النساء والرجال في الاقتصاد بأساليب أخرى (بما في هذا الصناعات المنزلية)، ولا تظهر مئات الآلاف هذه في الإحصائيات، ذلك لأن الحصول على التراخيص و/أو التسجيل كمكان عمل صغير أو منطقة غير حكومية يستغرق وقتاً طويلاً. يلتحق، كل عام، مليون من العمال المهرة بالاقتصاد، بيد أنه لا يتم

استيعاب سوى الثلثين فقط بسهولة. مثلاً، يعمل الشبان والشابات من خريجي الجامعات فى الكافيهات التى تتزايد أعدادها فى المراكز الحضرية، ولا يعد هؤلاء، جزءاً من الاقتصاد الرسمى، وتفضل كثير من تلك، لمقاهى توظيف الشابات لأن ذلك يشجع النساء على ارتيادها، مما يؤدى أيضاً إلى تغيير طبيعة تلك الأماكن التقليدية.

يدعو كثيرون ممن يكتبون عن إيران إلى مزيد من تحرير الاقتصاد، وبخاصة غالبية مؤسسات الدولة التى يتحكم المحافظون فيها. بيد أن التنمية الاقتصادية المستدامة ومؤشرات التنمية البشرية تشير إلى الدور المهم الذى تلعبه الدولة فى توفير الموارد وتسهم فى توقعات الشباب والمتعلمين العالية بتزايد. ومثلما حدث فى بلدان نامية أخرى، فقد ارتفعت نسبة البطالة وتراجعت الخدمات الاجتماعية وهبط مستوى المعيشة بالنسبة لنسبة كبيرة من السكان، فى أعقاب انتهاء تدخل الدولة، مما أدى إلى استياء مدنى، فى أعقاب ثورة ١٩٧٩، أدى إعادة توزيع الثروة، وتحسن الرعاية الصحية والتعليم ومعدلات العمالة إلى يقظة وعى الشعب الاجتماعى/ السياسى، الأمر الذى أدى بدوره إلى نمو المجتمع المدنى واتساع مدى الإعلام وتنمى عدد التنظيمات الطلابية والنسائية والعمالية وأدت كل تلك العوامل معاً إلى خلق الحركة الإصلاحية وتولى خاتمى منصب الرئاسة.

### الحركة الإصلاحية،

منذ أواسط التسعينيات، ظل العمال والنساء والطلبة يطالبون بالتغيير الاجتماعى والسياسى. بعد سنوات القمع فى الثمانينيات، عبّرت الأحزاب والتنظيمات الإسلامية السياسية فى التسعينيات عن آراء مختلفة حول الشؤون الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والسياسة

الخارجية. تشجعت الصحافة في ظل الرئيس رافسانجاني. وداخل الأطر الإسلامية المحددة، مُنح حق الاقتراع للجميع دونما استثناءات، وكذلك حرية التعبير، وحرية الصحافة، وحرية التجمع. شعر الكثيرون أنهم يشاركون في الحياة السياسية وتابعوا بحماس المناقشات البرلمانية وعمل النظام القضائي والحكومة من خلال الإعلام. كانت هذه التعددية السياسية ومعها الحكم البرلماني جد مختلفة عن أساليب الحكم الأوتوقراطية لدولة الشاه العلمانية، ولم يكن أمام الدولة الإسلامية خيار سوى استيعاب هذا النظام التعددي المحدود.

أدت المشاركة السياسية للعمال والنساء والطلبة إلى الفوز الساحق الذي حققه محمد خاتمي في الانتخابات الرئاسية عام ١٩٩٧ إذ حصل على نسبة ٩٧٪ من الأصوات. أيضا، شهدت الانتخابات البرلمانية عام ١٩٩٧ هزيمة المحافظين وفوزا ساحقا للإصلاحيين، وبالمثل، فاز الإصلاحيون في انتخابات المجالس المحلية. وعلى الرغم من منع القوميين العلمانيين من تشكيل أحزاب سياسية، إلا أنه في أعقاب تلك الانتخابات، انضم الكثيرون ممن يعرفون أنفسهم على أنهم يساريون علمانيون وقوميون ليبراليون، إلى صفوف الإصلاحيين للمرة الأولى منذ قيام الدولة الإسلامية. أيضا، أيد عدد من رجال الدين الحركة، وانضمت نساء إسلاميات مثل عزم تالغاني (ابنة آية الله تالغاني) وفاطمة وفائزة هاشمي (ابنتي آية الله هاشمي رافسانجاني) وشهلا حبيبي (ابنة آية الله حبيبي) إلى الإصلاحيين. حاولت حكومة الرئيس خاتمي الإصلاحية بجدية مواجهة مشاكل الحداثة، وسط استقطاب بين جناحها المحافظ وجناحها الإصلاحي.. عكست العناصر الأكثر ديموقراطية داخل الحركة الإصلاحية الجوانب التي لم تستكملها الثورة الإيرانية حيث دعت إلى

توسع هائل في الديمقراطية فيما قوّت المطالبات المستدامة من قبل غالبية السكان الحركة الديمقراطية. بدأت الفنون والسينما والمسرح، والأدب والموسيقى، وتنوع الأزياء الإسلامية والدوريات والمجلات والصحف تزدهر وتحمل معها حساً جديداً بالإمكانيات، فاتحت الحركة الإصلاحية اليسار العلماني والمجموعات الليبرالية في أمر التعاون معها، كما دعمت الاتحادات العمالية الجينية والتنظيمات الطلابية والنسائية. وبحلول عام ٢٠٠٠ كان ثمة المناء من الإصدارات الجديدة - الصحف والمجلات والدوريات الثقافية. كما تم تداول أعمال المثقفين الأجانب مثل كارل بوبر، وهانا أرندت وإدوارد سعيد، وطوني كليف وألكس كالينيكوس ونعوم تشومسكي وأرونداتي روي ويورجن هيرماس، وأنطوني جيدنز وبير بورديو ومعهم ماركس ولينين وتروتسكي وستالين وماو، تداولها بحرية، بل سُمع أيضاً صوت النشطاء الإيرانيين العلمانيين.

تم تشجيع عملية تشكيل المنظمات غير الحكومية من قبل الحكومة والبرلمان طوال الفترة من عام ٢٠٠٠ وإلى عام ٢٠٠٤، إذ نُظر إلى تلك العملية كأسلوب لنقل مسؤولية الدولة عن توفير الرعاية الأساسية لمواطنيها إلى التنظيمات غير الحكومية، وتلقف الطلبة والنساء هذه الفرصة وأنشأوا تنظيمات أصبحت مكوناً مهماً في الحركة الديمقراطية على الرغم من شن الهيئات القضائية المحافظة كثيراً من الهجمات عليها. كانت تلك فترة صراع مرير على السلطة بين المحافظين الذين كانوا يفقدون كثيراً من التأييد الشعبي، وبين الإصلاحيين. وكنتيجة لذلك، لقيت بعض الجهود المزدهرة من أجل الحرية تبعات مأساوية. قُتل ثمانون من الكتاب والشعراء والنشطاء السياسيين العلمانيين والإسلاميين في ظروف غامضة. وفي الفترة ما بين فبراير ومايو عام ٢٠٠٠، أغلقت الهيئات القضائية التي يسيطر عليها المحافظون صحفاً ودوريات

ومجلات إصلاحية واعتقلت مئات المحررين والصحفيين والكتاب والناشطين<sup>(١)</sup>. وعلى الرغم من ذلك، واصلت حركة الديمقراطية نضالها، ومن ثم، تم الإفراج عن المعتقلين وعادت الإصدارات المحظورة إلى الظهور. نتيجة لذلك، ابتعد بعض الإصلاحيين بأسلوب راديكالي عن الإسلام كمبدأ تنظيمي للحياة العامة، فيما ظل آخرون متدينين وأكثر اعتدالاً؛ واتخذ الكثيرون موقفاً وسطاً بين الطرفين. منذ أواخر التسعينيات، عانى كثير من الإصلاحيين الإسلاميين الذين تدعمهم قطاعات من الطبقة العاملة والنساء والطلبة والشباب، عانوا من اضطهاد لا هوادة فيه على يد الهيئات القضائية. وفي واقع الأمر، فمنذ الثمانينات حينما تم قمع المعارضين اليساريين والقوميين، ركز المحافظون هجومهم على المسلمين الإصلاحيين. وعلى الرغم من الاضطهاد مضت حركة الإصلاحيين في نضالها من أجل التغيير وتصدت لسلطة المحافظين المؤسسية وحقت إصلاحات لبعض القوانين والأحكام لصالح النساء والعمال والطلبة.

في عام ٢٠٠٢، دعا مركز الحوار بين الحضارات، الذي أنشأه خاتمي الفيلسوف يورجن هابرماس لزيارة إيران، استضاف آية الله مهاجراني وزير الثقافة السابق وحليف خاتمي الذي قاتل من أجل تحرير الإعلام أثناء توليه منصبه، استضاف هذا الزيارة. علّق هابرماس قائلاً: «إن الفلاسفة وعلماء الاجتماع والصحفيين يتحدّون الحكم الديني في البلد على المستوى الرسمي وغير الرسمي». جادل الطلبة واشترك معهم في نقاشات بجامعة طهران الموقع الرمزي التاريخي لحركة احتجاجات

(١) مرة أخرى، تلجأ الكاتبة إلى السرد المرسل ولا تذكر أرقاماً محددة، أو الأسباب التي استند

إليها القضاء لاتخاذ تلك الإجراءات. (الترجمة)



الطلبة، والتي أصبحت منذ عام ١٩٧٩ الموقع الرسمي لأداء صلاة الجمعة حول علمانية الغرب. رأى هابرماس «أن صورة المجتمع الصامت الذي يدار مركزيا والواقع في قبضة الشرطة السرية لا تنطبق (على هذا المجتمع) على الأقل من الانطباعات التي تلقيتها من لقاءاتي مع مفكرين ومواطنين منطلقين غير مكبوحين وسكان حضريين واثقين بأنفسهم يتحدثون بتلقائية». وجد الشباب جدي الاطلاع ويستطيعون مناقشة القضايا السياسية علنا وبصراحة. وفي أثناء حوار معه عن العلاقة بين الدولة والمجتمع والدين والعلمانية علق بالقول «إن المناقشات في إيران تعطى الانطباع أحيانا أن المشاركين قد عادوا إلى إلى زمن الإصلاح الديني (في أوروبا)».

بيد أنه، شعر كثيرون من حركة الديموقراطية بالإحباط من مستوى الدعم المنخفض في البرلمان والحكومة للمضى في الإصلاحات. أوضحت مقاطعة الانتخابات المحلية درجة الإثباط هذه وأدت إلى فقدان كثير من الإصلاحيين مقاعدتهم. أما الانتخابات التشريعية لعام ٢٠٠٤ فقد أنتجت أكثر الأزمات التي واجهت حكام إيران الدينيين خطراً منذ عام ١٩٧٩، قام مجلس الأوصياء، وهي هيئة رقابة دستورية غير منتخبة مؤلفة من رجال الدين المحافظين، باعتبار المرشحين الإصلاحيين، ومن بينهم ثمانون عضوا إصلاحيا بالبرلمان يضمون أربع عشرة امرأة، اعتبارهم غير مؤهلين ورفض ترشحهم. احتج هؤلاء النواب، رجالا ونساء، بتنظيم الاعتصامات وتقديم استقالاتهم. حاولوا تأجيل الانتخابات لإجراء مزيد من التفاوضات، لكن المحافظين رفضوا. نتيجة لهذا، دعت الأحزاب الإصلاحية، بدعم من الحركة الديموقراطية إلى مقاطعة الانتخابات التشريعية. رأوا أن تلك الانتخابات غير عادلة أو حرة، وأنها سيتم حسمها بواسطة الشرطة والجيش. طلب الإصلاحيون والطلاب السماح

لهم بتنظيم عدد من التظاهرات الاحتجاجية لكن طلبهم رفض. بالرغم من ذلك قاموا بالاحتجاج من خلال كتابة المقالات على مواقعهم الإلكترونية وفي صحفهم الإصلاحية.

نتيجة لهذا، سيطر المحافظون على البرلمان في ربيع عام ٢٠٠٤، هذا علاوة على سيطرتهم على التلفزيون والإذاعة الإيرانية وعلى الجيش والشرطة. أثبط كثير من نشطاء القاعدة الشعبية من نهج قيادات الإصلاحيين التصالحية، واعتقدوا أنه كان ينبغي على الرئيس خاتمي التصدي للمحافظين حينما رفضوا إجراء مزيد من الإصلاحات، أو حينما أغلقت الهيئات القضائية الصحف والدوريات واعتقلت الصحفيين والطلبة والعمال والنساء، أو حينما تأجل إصلاح القوانين. أو تم التخلي عنه. نتيجة لذلك، غدا الكثيرون ينظرون، بتزايد، إلى القيادات الإصلاحية بصفتها مدافعة عن نظام الحكم الديني.

في عام ٢٠٠٥، أصبح محمود أحمدى نجاد رئيسا للجمهورية الإسلامية في انتخابات شارك فيها ٦٢٪ من السكان. قاطعت أقلية من المثقفين، بمن فيهم شيرين عبادي الفائزة بجائزة نوبل للسلام عام ٢٠٠٣، الانتخابات الرئاسية على أساس أنها تفتقد الشرعية وذلك لأن مجلس الأوصياء رفض المرشحات النساء. بيد أن عددا كبيرا من الشباب والنساء شاركوا في الانتخابات وبخاصة في دورتها الثانية. صوتت الغالبية لأحمدى نجاد، ليس على أسس دينية، بل لأسباب سياسية واقتصادية. لم يطرح مزيدا من الأسلمة، بل كان برنامجهم يقوم على أساس حل المشاكل الاقتصادية ومكافحة الفقر والفساد. كانت قيادات حركة الإصلاحيين قد فشلت في التعاطي مع هذه القضايا، وكما يذهب غيسارى وسنانداچي، فإن لدى المحافظين، وخاصة البرجماتيين منهم، أجندات للإصلاحات الاقتصادية أكثر اتساقا بكثير من نظرائهم

الإصلاحيين. كان انتخاب أحمدى نجاد، جزئياً، احتجاجاً من بعض قطاعات السكان الأكثر فقراً ضد الحكومة الإصلاحية التي انتقلت إلى اقتصاد الأسواق الحرة وحاولت تقليص نظام الرفاه الاجتماعى الإسلامى. وعلى المستوى السياسى، أكدت نتيجة الانتخابات الرئاسية على أوجه قصور قيادات الحركة الإصلاحية الذين منيوا بالفشل فى الانتخابات لكنها لم تكن علامة على هزيمة الحركة الديموقراطية ذاتها. وكانت انتخابات ٢٠٠٨ التشريعية دليلاً على ذلك، إذ فاز الإصلاحيون بمعدل ٣٠٪ من المقاعد بالرغم من عدم تأهل كثير من المرشحين من قبل القيادات المحافظة.

يبدو أن قصور النولة الإسلامية ومؤسساتها وتناقضاتها - دولة قامعة سياسياً لكنها ملتزمة برعاية الفقراء - قد عمل على تسييس غالبية العمال والنساء والأقليات العرقية والدينية وبخاصة من يدعمون منهم أسلمة المجتمع. ظلوا يكافحون ضد الظلم وعدم المساواة ولزيادة مشاركتهم فى جميع المجالات، علاوة على ذلك، فقد لعب دعم الغالبية للإصلاح دوراً مهماً فى تآكل شرعية الحكم الاستبدادى وتعزيز لقضايا الديموقراطية. تشارك الجمعيات غير الرسمية للعمال والنساء والطلبة والأقليات فى عملية المقرطة وكانت السبب فى انفصال الإصلاحيين عن المحافظين وبرزوغ «مجموعة المحافظين البرجماتيين»، بعض هؤلاء محاربون قداماء فى الحرب الإيرانية العراقية الذين يعملون تحت تأثير الإلزامات القومية والاقتصادية لا الأيديولوجيا الإسلامية الثورية.

من ثم، فإن من التخليل، بل والعنصرية، وصف الدولة الإيرانية بأنها «دولة دينية يهيمن عليها ملالى عصر أوسطيون». الدولة الإيرانية كدولة رأسمالية إسلامية، دولة قمعية وقد عملت منهجياً على تقويض الاستقلال الذاتى لمجالات النشاط الاجتماعى. بيد أنها أيضاً وفرت التعليم والرعاية

الصحية لغالبية السكان: يسجل شباب وشابات الطبقة العاملة في المناطق الريفية والحضرية أسماءهم في معاهد وكليات التعليم العالي بأعداد غير مسبوقة، كما أن لديهم توقعات كبيرة: الحق في الرعاية الصحية والتعليم والعمل، وحق النساء في اختيار ارتداء الحجاب أو عدم ارتدائه. أدت هذه العملية إلى زيادة الوعي بالطبقة والجنس والإثنية وبخاصة في أوساط الجيل الجديد، وكما سنبين لاحقاً، فعلى الرغم من كل مخاطر مواجهة سلطة الدولة، فقد شاركت مختلف المجموعات التي شكلت حركة الديمقراطية في حملات من أجل تحقيق المساواة بين الطبقات والإثنيات وبين الرجال والنساء، تحققت إصلاحات أكثر في قوانين الأحوال الشخصية، والتعليم والعمل أكثر مما تحقق في ظل غالبية الأنظمة التي تدعمها الولايات المتحدة في المنطقة. علاوة على ذلك، وبأسلوبها الخاص، فإنها ماضية بشجاعة في تحدى الطبيعة الدينية لحكم الدولة.

### حركة الديمقراطية:

١- النقابات العمالية: تعتبر النقابات العمالية مركزاً مهماً للسلطة في المجتمع المدني، يوضح تاريخها في إيران أنها لم تكن دائماً مؤسسات متجانسة. تمتع بعضها بدعم قاعدي، وعمل البعض الآخر عملاء للدولة. ظلت باقية بعد فترات طويلة من التواجد في ظل أنظمة قمعية، وكان لأنشطتها، في أزمنة مختلفة، دور مهم في إعادة تنشيط المجتمع المدني وإحيائه.

بيد أن الحركة العمالية الإيرانية في السنوات المبكرة للقرن العشرين أنجزت، من خلال الإضرابات واحتلال المصانع والتظاهرات، الحد الأدنى من معايير السلامة وبيئة العمل الصحية، وإجازات المرضية مدفوعة الأجر، و٤٨ ساعة عمل كل أسبوع، وإجازة يوم الجمعة مدفوعة الأجر،

وحقوق العمال الأساسية في تشكيل الاتحادات. كسبت العاملات بعضاً من مطالبهن مثل إجازة الأمومة وحقوق أمهات حديثي الولادة في اقتطاع جزء من الوقت مدفوع الأجر لإرضاع أطفالهن أثناء ساعات العمل.

أصبحت تلك الحقوق جزءاً من قانون العمل الإيراني، في عام ١٩٥١، أدى إضراب عمال النفط إلى انتصار حركة مصدق القومية وإلى تأميم النفط وانتهت تلك الفترة بالانقلاب الذي دبرته السي آي إيه. حلت النقابات محل الاتحادات العمالية وسيطر الحكم الملكي على حركة النقابات العمالية ومعها الحركات الاجتماعية الأخرى. أثناء ثورة ١٩٧٩، تولت لجان الإضرابات، التي حلت محل النقابات، تنظيم الإضرابات. وبعد الثورة أمدت لجان الإضرابات مجالس شورى العمال الجديدة بالقيادات. أدت الحملات التي نظمها العمال العاطلون في تلك المرحلة إلى إجبار الحكومة على إعادة فتح المصانع المغلقة، وفي بعض الحالات، قام العمال بأنفسهم بفتحها. كانت القيود الثقافية قد أثرت في حركة النساء قبل ثورة ١٩٧٩، فلم تكن كثيراً من العائلات تسمح لبناتها بالانضمام إلى النقابات، لكن أثناء ثورة ١٩٧٩ وبعدها أصبحت نساء كثيرات عضوات بمجالس الشورى العمالية بما في هذا مجالس الصناعات الدوائية والغذائية والنسيج. ناضلت هؤلاء العضوات من أجل إقامة حضانات في أماكن العمل، وفصول لمحو الأمية وتحسين أوضاع الصحة والسلامة وساعدت تلك الأنشطة على يقظة وعي النساء بأنفسهن كنساء وشاركن ولأول مرة في أنشطة الاتحادات العمالية بصفتن نساء. وكان لهذا دلالاته المتعددة: كانت مجالس الشورى تتعرض للهجوم؛ وكان الرجال والنساء يناضلون من أجل إنقاذها لكن العمال الرجال كانوا يعارضون تمثيل النساء. اعتقدت النساء أنه ينبغي تمثيلهن في المجالس بصفتن عاملات نساء وذلك لأن لديهن مطالب محددة خاصة بهن. في

عام ١٩٩٨ تم إنشاء الجمعية التجارية للصحفيات النساء، وكانت صحيفتهن «صوت النساء» تناقش قضايا مثل التمييز في الأجور بين النساء والرجال في المنشآت الإعلامية، وساعات العمل الطويلة للنساء، وعدم توليهن المناصب الإدارية وتأثير إغلاق عدد من المؤسسات الإعلامية بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠٢ على عمالة المرأة. ومنذ آنذاك، تم إنشاء «الجمعية التجارية للناشطات، والجمعية التجارية للمدرسات والجمعية التجارية للممرضات والجمعية التجارية للمحاميات. كان إنشاء تلك الجمعيات دلالة على أن النساء العاملات يجدن صعوبة في إيجاد ظروف يعمل فيها الرجال والنساء معا لتحديد حقوقهم الديمقراطية والسعي للحصول عليها. ومن ثم، فقد مضين يتحددين النقابات العمالية التي يهيمن عليها الرجال. وقد يؤدي هذا إلى تشكيل المزيد من الاتحادات العمالية للنساء، أو إلى إجبار تلك المؤسسات التي يهيمن عليها الرجال على الاعتراف بهن كعضوات فاعلات.

في بداية الثمانينيات، حلت جمعيات الشورى الإسلامية، محل جمعيات الشورى المستقلة، لكن مازالت الروح القتالية والإضرابات مستمرة. وعلى الرغم من أن الدولة الإسلامية تشرف على التنظيمات العمالية، إلا أن تلك التنظيمات، وبأسلوبها الخاص، ماضية في تحدى طبيعة الجمعيات الإسلامية إذ يرى عدد من النشطاء أن تطبيق مصطلح «إسلامية» على التنظيمات العمالية أدى إلى استبعاد عدد من العاملين ومن ثم إضعاف التنظيمات، ولذا تطالب بإنشاء منظمات عمالية مستقلة. وطوال التسعينيات، قام العمال بتنظيم احتجاجات ضد تأخير الأجور أو عدم دفعها، وأيضاً بشأن قضايا الصحة والسلامة، كما قاوموا وجود عمالة زائدة بسبب الخصخصة أو التعاقد من الباطن. في عام ٢٠٠١، نظم العمال ٢٠٢ احتجاج في أنحاء البلاد، وفي طهران بخاصة، وبشكل

أساسى فى مجال الصحة والتعليم، وأيضا صناعات النسيج والأحذية والمعادن والسيارات والملابس والنفط والبتروكيميايات والسجاد. أخذت تلك الاحتجاجات شكل الإضرابات والاعتصامات فى أماكن العمل، أو خارج الوزارات المختصة أو البرلمان وأيضا تقديم التماسات. كانت احتجاجات المدرسين لافتة بخاصة حيث أضرب الآلاف منهم فى جميع أنحاء البلاد، وأغلقت ٤٠٠ مدرسة أبوابها وسار الآلاف فى شوارع طهران وتجمعوا خارج البرلمان وخارج مكتب رئيس الوزراء. اعتُقل عدد منهم ثم أُفرج عنهم لاحقا.

فى ظل حكومة خاتمي، أدت البيئة السياسية المنفتحة إلى عدد أكبر من الإضرابات والاحتجاجات. أعاد اتحاد عمال النقل العام، الذى كان قد حُظر فى الثمانينيات، تشكيل نفسه. أما فى ظل حكومة أحمدى نجاد، فقد أُلقت الشرطة، فى ديسمبر ٢٠٠٥، القبض على اثنى عشر من قادة الاتحاد الذين كانوا يقومون بحملة من أجل الحق فى تنظيم صفوفهم للنضال من أجل أجور وبيئات عمل أفضل من خلال التفاوضات الجمعية. وبعد عدة أيام، تم اعتقال المزيد من أعضاء الاتحاد بعد تنظيمهم إضراباً للحافلات من أجل إطلاق سراح زملائهم. أفرجت الحكومة عن أعضاء الاتحاد المعتقلين باستثناء قائدهم منصور أوسانلو، من ثم، دعا الاتحاد إلى إضراب آخر للمطالبة بإطلاق سراحه، وتم اعتقال عدد آخر من العمال. دعا العمال إلى إضراب عام ونظموا مزيداً من الاحتجاجات وكانت مطالبهم تشمل إطلاق سراح قياداتهم وزملائهم، وعمل عقود لهم يتم التفاوض بشأنها جميعاً، والاعتراف باتحادهم. ردت الحكومة على تلك الإجراءات الجديدة باعتقال المزيد من أعضاء الاتحاد ومن أسر العمال المعتقلين ومعهم الطلبة والنشطاء الذين دعموا المضربين.

فى عام ٢٠٠٩، أضرب ١٢٠٠ من العاملين فى «شركة عربات السكن

الحديدية» وهى إحدى كبرى شركات تصنيع عربات القطارات فى إيران، للمطالبة بأجورهم التى لم تدفع. أيضا قام أربعمائة من العاملين فى شركة الألومنيوم الإيرانية بالإضراب لنفس السبب وقام عمال صناعات مختلفة فى أنحاء متفرقة من البلاد - بما فى هذا عمال مصنع الأهواز للأنابيب، ومصنع ماهيمان، وجوقه للمعدات الثقيلة، وصناعات إيران للاتصالات، ومصنع هافت تيب للسكر - قاموا بالإضراب. تم ضرب الكثير من العمال وتعذيبهم، رغم أن الحكومة لم تجرؤ على إعدامهم مثلما كان لابد وأن يحدث لو أن هذا قد وقع فى عهد الشاه. أخبرنى عيسى سهارخيز فى أحد لقاءاتى معه ما يلى:

«فى التسعينيات، تم خلق مساحة للجدل السياسى داخل الاتحادات العمالية ونقابات العمال. ونتيجة لذلك، مازال العمال ماضين فى إعلان مطالبهم حتى فى ظل حكومة أحمدى نجاد المحافظة وبالرغم من الاعتقالات. تم إغلاق وكالة أنباء عمال إيران التى كانت تقوم، بصفتها منشأة إعلامية عمالية، بربط العمال ببعضهم. لكن حل محلها صحيفتان: «العمل» و«العمال». يدرك العمال تماما سر نجاحهم - الوحدة والتكافل وعلى هذا الأساس يحاولون تكوين شبكات اتصال من خلال اتصالاتهم ونقاباتهم المستقلة. وعلى الرغم من أن إقامة تنظيمات عمالية واجهت القمع، إلا أنها نجحت فى ربط حركتهم مع الحركات الأخرى، ونتيجة لذلك، فإن قطاعات واسعة من المجتمع تدعمهم. من المهم أن ندرك أنه بالرغم من توقيف النشاط واعتقالهم فلا يمكن للسلطات استبعاد النقابات والاتحادات العمالية وقياداتهم تماما أو القضاء عليها. بيد أن الضغوط الخارجية مثل العقوبات المتواصلة والتهديدات المستمرة بالحرب تقوى من وضع المحافظين وتضعف موقف العمال والاتحادات العمالية». لدى العمال والاتحادات العمالية أعضاء فى البرلمان يقومون بالضغط



على الحكومة. لدى عدد من أعضاء البرلمان قاعدة داخل الاتحادات العمالية، ونخص بالذكر هنا سهيلة جلودا وزاده، عضوة البرلمان الإصلاحية، التي فازت بمقعدها في انتخابات عام ٢٠٠٤ من خلال أصوات العمال والاتحادات. عملت كأحدى قيادات «بيت العمال» التي كانت مؤسسة تشرف على تجميع منظمات العمال المختلفة، وتعمل كمركز لتوزيع حوافز العمال وعلاواتهم في ظل حكومة خاتمي. أضعف دور هذه المؤسسة في ظل حكومة أحمدى نجاد، لكن جلودا وزاده أنشأت قسما للنساء لتوفير التعليم والتدريب للعاملات، وكان إصلاح بعض القوانين مثل الاعتراف بالعائلات التي تقوم عليها امرأة، وإتاحة القروض والمعاشات للنساء، قد عمل على تحسين مستوياتهن المعيشية، أنشئ اتحاد الصحفيين في التسعينيات وبلغ عدد أعضائه ١٥٠٠، لكن في عام ٢٠٠٩ زاد عدد الأعضاء ليصبح ٤٥٠٠ على الرغم من القمع السياسي. أخبرتني ماشاء الله شمس الواعظين، وهي صحفية والمتحدثة باسم جمعية حرية الصحافة بالتالي:

«حينما يقومون بإغلاق الصحف، نعارض القرارات ونكتب خطابات احتجاج وتنظم الاعتصامات والتظاهرات، نعطى أسر المعتقلين مساعدات مالية، نواصل مطالباتنا بحرية الصحافة، وضمان أمن العمل الصحفي، والعدالة، والمحاكمات المنصفة للصحفيين المسجونين، نعمل أيضا على قضايا حقوق الإنسان والمساواة بين الرجل والمرأة. نشعر أننا سننجح تدريجيا في الوقوف والدفع بالحدود لإجبار الحكومة على التصرف بمسئولية».

### الطلبة

كانت الحركات الطلابية قبل عام ١٩٧٩ يسيطر عليها الطلاب اليساريون لكن الإسلاميون يسيطرون عليها الآن. لعبت منظمة «تبني

الوحدة» الطلابية دورا مهما في احتلال السفارة الأمريكية من نوفمبر ١٩٧٩ وحتى يناير ١٩٨١. ومنذ التسعينيات شهدت الحركة الطلابية تغييرات مهمة. والحركة الطلابية متنوعة تجمع بين الطلبة المتدينين والعلمانيين وبينما يعتقد البعض أنه يجب التركيز على المصالح الفئوية للطلبة يرى آخرون أن مدى الحركة ينبغي أن يتوسع ليشمل القضايا السياسية. ينتمي بعض الطلاب إلى جمعيات إسلامية فيما ينتمي آخرون إلى جمعيات يسارية وليبرالية. حدث وأن غيرت بعض الجمعيات الإسلامية أسماءها لتصبح جمعيات طلابية. أثناء فترة رئاسة خاتمي، أصبحت حركة «تبنى الوحدة Tahkime Vahdat» ذات هوية راديكالية والمركز الذي ينظم أنشطة الطلبة واجتماعاتهم ومؤتمراتهم، ثم أنشأت قسما للنساء تحت ضغط الطالبات. أُغلق عدد من تلك المراكز منذ عام ٢٠٠٧، ولدى محاولة بعض الطلبة إعادة فتحها حدثت مصادمات بين المحافظين والإصلاحيين. سيطر الطلبة المحافظون على بعض المراكز الأخرى بمساعدة الدولة ومؤسسات أخرى.

أصبحت بعض الجمعيات الإسلامية التي تشارك في الأنشطة السياسية راديكالية فيما حافظت على هويتها الإسلامية. أنشئت جمعية «أدوار تحكيم وحدات Advare Tahkim Vahdat» وهي منظمة للخريجين من طلبة الدراسات العليا الذين أنهوا دراستهم الجامعية ويرغبون أن يظلوا نشطاء في إطار الحركة الطلابية. وسع بعضهم مشاركتهم لتشمل الحركات النسائية والاتحادات العمالية باستخدام موقعين إلكترونيين يقومون من خلالهما بتوسيع شبكة اتصالاتهم.

في معظم الحالات ظلت الحركة الطلابية تتحرك خارج نطاق مصالح الطلبة الفئوية. تتراوح أهداف حملاتها بين تحسين قاعات الدراسة ومساكن الطلبة إلى المشاركة في الحملات الانتخابية، والمطالبة بالإفراج

عن الطلبة والمعلمين الذين يلقى القبض عليهم. وأحيانا تتحول مصلحة فتوى للطلبة إلى مطلب سياسى. نظمت الحركة تظاهرات واجتماعات داخل الجامعات وخارجها بالإضافة إلى المشاركة فى اللوبيات وأعمال الدفاع والتأييد.

فى عام ٢٠٠٤، نظم الطلبة حملة للإفراج عن هاشم أغاچارى أستاذ التاريخ وأحد أبطال الحرب مع العراق المعوقين، والذي حكم عليه بالإعدام بعد خطاب ألقاه رأى فيه أن الإسلام ليس حكرا على رجال الدين. وفر حكم الإعدام فرصة لطلبة الجامعات للتعبير عن غضبهم ضد النظام. استمروا فى صراعهم حتى ألغى حكم الإعدام وتم الإفراج عن البروفسور.

ترى كثير من الطالبات أن الحركة الطلابية قد سيطر عليها تاريخيا الطلبة الذكور إذ إنه لا يوجد سوى قلة من النساء بين قياداتها. من ثم، فإن الطالبات الناشطات كثيرا ما يشاركن فى الحركات الطلابية وفى الحركات النسائية معا. عبر دور الطالبات فى الحركة الطلابية عن نفسه فى الأسلوب الذى تغير به زى الطالبات، فعلى حين أنه كن ينبغى على الطالبات فى أواخر الثمانينيات وبدايات التسعينيات ارتداء الشادور الأسود، فقد تنوعت أزياءهن الآن مع الحفاظ على السمة الإسلامية (الاحتشام). من الحقيقى أنه تم اعتقال بعض الطالبات لتجاوزهن كل الحدود المقبولة، لكنهن ماضين لتحديد الحكومة بشجاعة كي يبرهن على أن الإسلام منحهن حق الاختيار. يدعم الطالبات كثير من زملائهن الطلبة الذين يرون أن حقوق النساء هى جزء من النضال من أجل الديمقراطية. فى عام ٢٠٠٨، قادت الطالبات حملة ضد نظام «الكوتة» فى الجامعات الذى يمنح الطلبة الذكور الأولوية فى الجامعات ويميز ضد الطالبات بالحد من خياراتهن وتقييد حريتهن فى الالتحاق بجامعات غير

إقليمية. يرين أن هدف تلك القواعد التمييزية هو التحكم في الحركة النسائية وتقييد فرصهن في الحركة الاجتماعية.

في أعقاب انتخابات ٢٠٠٩ الرئاسية الخلافية، وما أعقبها من تظاهرات، لعب الطلبة دوراً مهماً طوال العام الدراسي ونظموا تظاهرات داخل الجامعات للمطالبة بالديموقراطية وإنهاء القمع السياسي. تختلف آراؤهم إذ يعتقد البعض في فصل الدين عن الدولة ويرى آخرون وجوب كسر الأصناف الدينية التي تقيد البلاد. يؤمن البعض بإجراء إصلاحات حذرة ويرون أن الدين جزء أساسي من حياة الناس لا يمكن للدولة تجاهله. لا يعارضون جميعهم الثقافة الغربية بصفتها تلك، لكن يفضل كثير من الشباب الإيراني من جميع الطبقات «الموسيقى العالمية» - مزيج من الموسيقى العربية وموسيقى الراب والموسيقى الإيرانية. بيد أن تفضيل هذه الموسيقى له أبعاد سياسية عميقة تتعلق بحقوق المرأة وإنهاء الصراعات والفقر والجوع والقمع السياسي والتوجهات المحافظة ثمة أقلية ضئيلة منبهرة بالغرب وبخاصة بالولايات المتحدة، وفي الواقع فقد غادر بعض هؤلاء إيران ومعهم أموالهم واستقروا بلوس أنجلوس. ومن متفاهم الاختياري كونوا روابط موسيقية بين العالمين - أي موسيقى «طهرانجيليس» وهي مزيج من الموسيقى الغربية والإيرانية - من خلال الإنترنت. ولكي يكون لهم موطئ قدم في إيران، يكيف، موسيقيو الطهرانجيليس موسيقاهم لتتوافق مع الإيقاع الحقيقي للشارع الإيراني. وعلى الرغم من تكاثر كافيهاات الإنترنت، إلا أنها ليست متاحة للجميع. ومع ذلك، فقد انتشرت موسيقى الطهرانجيليس مثل النار في الهشيم. ترفض غالبية الطلبة فكرة أن التوجهات التقدمية مقصورة على الغرب. وفي نفس الوقت فهم يعارضون القواعد والأحكام التقليدية الجامدة التي يضعها رجال الدين المحافظون في إيران وينشطون في محاولتهم

لتشكيل نماذج تحررية تستند على خبراتهم، تتمازج فيها الثقافة الشرقية والإسلامية والإيرانية والغربية - مثل موسيقى طهرانجيليس.

تركب الحروب الأمريكية في العراق وأفغانستان الشباب، وفي نفس الوقت يغضبهم احتكار الدولة للمشاعر المعادية للإمبريالية، مع فرض المؤسسات المختلفة القيود عليهم وتعرض قيمهم للهجوم المستمر من قبل المحافظين. بالإمكان سماع أصوات الشباب والشابات في غرف الدردشة على الإنترنت، وعلى مواقعهم الإلكترونية وفي اجتماعات الطلبة. يقولون «إننا الضحايا الحقيقيون للمحافظين الأمريكيين والإسلاميين. لقد ناضلنا من أجل إقامة حكم إصلاحى لكن لم يتم الوفاء بمطالبنا. نطالب بالحريات المدنية، والحق في المشاركة في المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، الحق في اختيار ما نلبسه والحق في أن نحب الحياة وننعم بها».

### الأقليات العرقية والدينية:

حوالى ٩٩٪ من سكان إيران مسلمون، تشكل الجماعات الشيعية ٨٩٪ من هؤلاء والسنية ١٠٪ أما نسبة ١٪ الباقية فيتكونون من أقليات دينية من غير المسلمين مثل الأرمن والآشوريين والكالدانيين واليهود والزرداشتيين والبهاثيين والإيرانيين الذين تحولوا إلى المسيحية تتكون تشكيلة إيران الإثنية من ٣٥٪ من الفرس و١٦٪ آزاريين، و١٣٪ أكراد و١٠٪ جيلاكي/ مازادراني، و٧٪ من اللور و٣٪ عرب و٢٪ بلوشيين، و١٤٪ مجموعات إثنية وقومية أخرى بما فيها القاشقاي والبختياري وأناس من أصول أفغانية وعربية. الفارسية هي اللغة الرسمية ويتحدث بها غالبية السكان. يتحدث البعض أيضا باللغات التركية والكردية والبلوشية واللورية والعربية والجيلاكية والآشورية، وتستمر تلك التعددية اللغوية في النمو. يرى لوا بك أن المجموعات القبلية في إيران قد قاموا

تاريخيا باختراع هوياتهم وإعادة اختراعها وفقا للأحوال الاجتماعية الاقتصادية والاجتماعية السياسية المتغيرة. كانت كل قبيلة تتكون من أصول إثنولغوية وإثنودينية متنوعة. وطوال التاريخ تمكنت المجموعات من البقاء من خلال اختلاطها بالآخرين ونقل مزاياها السياسية والاجتماعية والثقافية بأسلوب مستدام.

الشيعية الإيرانيون متنوعون، يشكلون غالبية من الإيرانيين المتحدثين بالفارسية، وبعض العرب، والأزاريين المتحدثين بالتركية. من ثم فليست الغالبية الشيعية فارسية في مجموعها. أما غالبية الأكراد والبلوشيين فينتتمون إلى المذهب السني، وتعي الأقلية السنية جيدا تمايزها عن الشيعة. لم يحدث تاريخيا أبدا أن تكونت جبهة سنية في مواجهة الشيعة وذلك لأن كل مجموعة منهم مقسمة على أساس الطبقة والإثنية والنوع والجغرافيا واللغة وأيضا الدين. تعتبر المجموعة المتحدثين بالتركية أكبر أقلية إثنية ولغوية في إيران، وهي منقسمة بين مجموعات فرعية من الشيعة والسنة، وتم استيعاب غالبيتها، والأزاريين بخاصة، في الوسط الفارسي. يتركز الأكراد في غرب إيران بالمنطقة الحدودية مع العراق، فيما يتركز البلوشيون في جنوب شرقى إيران في المنطقة الحدودية مع باكستان ولم تبد أى من هاتين المجموعتين اهتماما كبيرا بـ «الفرسنة». أما العرب فيتركزون في جنوبى غرب إيران في المنطقة الثرية بالنفط بالقرب من الخليج الفارسي وفي المناطق الحدودية مع العراق والسعودية والكويت، وتلك المجموعات الثلاث تاريخ طويل في الحركات الانفصالية، أما التركمان السنة والأزاريون الشيعة فليس لديهم ميول انفصالية واضحة.

يبين تاريخ إيران أن الحركات الاجتماعية الأهلية ذات الطبيعة المعادية للكلونيالية والإمبريالية (مثل احتجاجات التبغ بين عامى ١٨٩٠ -

١٨٩٢، والثورة الدستورية بين عامي ١٩٠٦ و١٩١١، وحركة تأميم النفط عام ١٩٥١، وثورة ١٩٧٩) نجحت وذلك لدعم الجماهير القاعدية بشكل أساسي. ويناقض هذا الحركات القومية/ الانفصالية في القرن العشرين والتي لم تنجح لعدة عوامل. أولاً، كان حزب توده الشيوعي والاتحاد السوفييتي يدعمان الحركات الانفصالية القومية في أذربيجان وكردستان في أربعينيات القرن العشرين وتمكنا من استغلال الفروق والاختلافات الاجتماعية والاقتصادية التي كانت موجودة. بيد أن الاتحاد السوفييتي سحب دعمه لتلك الحركات بمجرد أن توصل إلى اتفاق مع الشاه. وكنتيجة لهذا، رفض الكثيرون التوجهات الانفصالية الإثنية التي تقوم على أساس من التدخل الأجنبي. وكما ذكرنا، فقد فشلت تلك الحركات أولاً لأنها لم تتمتع بدعم شعبي. ثانياً لو أن هؤلاء أعطوا الخيار للانضمام إلى العراق، في حالة الأكراد، أو الانتقال إلى السعودية والكويت في حالة العرب، أو لو خُير البلوشيون بين العيش في باكستان والعيش في إيران، أو لو خيرت كل من تلك الجماعات بين البقاء في إيران والإقامة في بلدها الخاص بها لاختار الجميع البقاء في إيران، وذلك لأنهم، وبالرغم من القمع السياسي، فإن تلك المجموعات تتمتع بإتاحة جميع الموارد مثل التعليم والرعاية الصحية والوظائف في إيران، أكثر بكثير من تلك التي ستتاح لها في البلدان المجاورة. ثالثاً، تم قمع جميع تلك الحركات الانفصالية بوحشية سواء في ظل حكم الشاه أو الجمهورية الإسلامية. من ثم، ظل نضال الأقليات القومية والإثنية ضمن سياق سياسات الحقوق والهوية.

أثناء حكم رضا شاه (١٩٢٥ - ١٩٤١) تم فرض عملية «الفرسنة» على جميع المجموعات الإثنية كجزء من التوجه نحو تقوية الدولة وتشجيع التصنيع والغربنة. هدف التدريس الإلجباري للغة الفارسية، وإعادة

تسمية البلاد إيران بدلا من فارس، وإعادة تسمية عدد من الأقاليم (أصبحت لورستان كرمانشاه، وعربستان خوزستان)، هدف إلى نزع إثنية إيران، وإقامة دولة قومية موحدة: أجبرت المجموعات الإثنية على الإذعان للقواعد والأحكام الجديدة، واتبع محمد رضا شاه (١٩٤١-١٩٧٩) نفس السياسة. وفي الستينيات، عملت سياسة إصلاح الأراضي على المزيد من تقليص سلطة المجموعات الإثنية والدينية. تحكمت الدولة في عدد من قادة المعارضة الإثنية والدينية واستوعبتهم في الدولة والمؤسسات الأخرى. تم حظر نشر أية إصدارات للغة الترككية أو البلوشية أو الكردية وآدابها، على الرغم من أن تلك المجموعات استمرت تتحدث لغاتها ولهجاتها المتنوعة ولم يؤد تعلم اللغة الفارسية وتدريسها إلى تعميم «الفرسنة».

دعت الجمهورية الإسلامية إلى إسلام عبر/ نولى من أجل خلق هوية إسلامية، من ثم تم قمع أية محاولة للانفصال بضراوة. بيد أن الأقليات الإثنية مازالت مستمرة في محاولاتها من أجل التضمين في الحياة الاجتماعية الاقتصادية في إيران. وفي نفس الوقت، عملت الدولة على تضمين الأقليات في مؤسسات صناعة السياسة الرسمية مثل البرلمان والمجالس المحلية كما اعترفت بالديانات الزرادشتية واليهودية والمسيحية (السابقة على الإسلام)، وتمثل هذه الأقليات في مؤسسات الدولة ولها الحق في ممارسة شعائرها وطقوسها الدينية وإجازاتها وأعيادها باستثناء البهائية التي لم يعترف بها كعقيدة دينية ويتعرض أتباعها للاضطهاد.

يفتقد ممثلو الأقليات السياسيون في مؤسسات الدولة السلطة السياسية. بيد أن باستطاعتهم التعبير عن معارضتهم ومناقشة احتياجات جماعاتهم ومطالبها. مثلا، أثناء حكومة مهدي بازرجان



الانتقالية عام ١٩٧٩، وفي أثناء صياغة الدستور والموافقة عليه، كانت المادة ١٢ منه تنص على أن الدين الرسمي لإيران هو العقيدة الشيعية الإثني عشرية. جرى جدل ساخن في «مجلس الخبراء» حيث اعترض النواب السنة وتم التصويت على المادة (أيدها ٥٢ عضواً، وعارضها عضوان وامتنع ثلاثة عن التصويت) وأقر المذهب الشيعي الإثني عشرى ديناً رسمياً للبلاد. أيضاً اعترض النواب السنة من مختلف المناطق على المادة ١٤ التي تعترف بالزرادشت واليهود والمسيحيين أقليات دينية لكنها لا تذكر السنة. رد رئيس المجلس بالقول إن الاعتراف بالمذهب الشيعي ديناً رسمياً لا يعنى أن الجماعات السنية غير معترف بها، الأخرى أنهم معترف بهم جزءاً من الغالبية المسلمة. بيد أن ممثلي الأقليات أصرّوا على مبدأ التعددية الدينية واحترام الخصوصيات الإثنية والمناطقية، أيضاً ارتفعت أصواتهم ضد التمييز الذي تفرضه عليهم البولة والمؤسسات الأخرى مثل عدم السماح لهم بتولى منصب رئاسة الجمهورية أو رئاسة الوزراء، أو مناصب أخرى كمسفراء أو رئاسة القوات المسلحة. توضح تلك الجدالات حول الإثنية والدين واللغة أن كل مجموعة في إيران تؤكد على جذورها التاريخية في التعايش مع المسلمين. مثلاً، يرى الزرادشت واليهود والمسيحيون أنهم ظلوا يعيشون في إيران منذ أكثر من ألفي عام، وعلى هذا الأساس يتحدون مفهوم كونهم أقلية. إذ إنهم كانوا في البلد قبل وقت طويل من تحول إيران إلى مجتمع مسلم.

يدافع نواب الأقليات في البرلمان بقوة وإقناع عن مصالح جماعاتهم. في عام ٢٠٠٦ تحدى موريس معتمد، النائب اليهودي بالبرلمان، الرئيس أحمدى نجاد بسبب إنكاره للهلو كوست. وعلى الرغم من حدود الجدل داخل البرلمان، إلا أن هذه الظاهرة تمثل قطيعة راديكالية مع الماضي.

كان نظام الشاه يؤكد على التجانس والتماثل في الآراء ومن ثم لم تُسمع أبدا نقاشات وجدالات علنية صريحة بين مختلف المجموعات. وعلى الرغم من وجود قدر من التمييز، فقد أوجد المناخ السياسي لما بعد الثورة فرصة لنواب الأقليات بالبرلمان لعرض قضاياهم ومناقشتها علنا. ويمثل هذا بوضوح نقلة باتجاه الديمقراطية وحقيقة وجود تنوع في المجتمع الإيراني لن تستطيع الدولة الإسلامية تجاهله.

يثبت عبدالعزيز المولودي، عالم الاجتماع الإيراني الكردي السني، بالوثائق أن وضع الأكراد في إيران اليوم قد شهد تحسنا مقارنة بوضعهم قبل الثورة بيد أنه بعد سقوط الشاه في إيران وصدام حسين في العراق تنامت طموحات غالبية الأكراد من السنة والشيعة بالاستقلال المحلي وهم يطالبون، لأن بتضمينهم في الحياة الاجتماعية الاقتصادية والسياسية في إيران كمواطنين لهم حقوق متساوية مع باقي المواطنين، كما تذهب نيرة توحيدى أيضا إلى أن مظالم الأقليات متجذرة في التوزيع غير المتساوي للسلطة والموارد.

وعلى الرغم من تحسن أوضاع الأقليات، فما زال التمييز ضدهم قائما. أكد محسن كاريقار في حوار معه، على شكل محدد من التمييز يمارس ضد السنة:

«ينص الدستور على أن للأقليات الدينية المعترف بها الحق في ممارسة شعائرها الدينية. وأماكن العبادة الخاصة بهم. وبأساليب معينة فإن لتلك الأقليات حقوقاً في إيران أكثر من نظرائهم في بلدان المنطقة الأخرى وحول العالم. بيد أن الأقلية السنية محرومة من نفس الحقوق المضمونة للأقليات الأخرى رغم أن عددهم أكبر من أية أقلية دينية أخرى. فالقانون يخول لهم أن تكون لهم أماكن عبادة خاصة بهم وأن يقيموا صلواتهم وفقا لثقافتهم الخاصة. لديهم مساجدهم الخاصة بهم

فى المدن والمناطق ذات الغالبية السنية، لكن ليس فى تلك المناطق ذات الغالبية الشيعية، هذا على الرغم من وجود كنائس ومعابد لليهود والزرادشت بها. أداء صلاة الجمعة فى المساجد اختياري لدى الشيعة لكنه يعتبر من الفرائض لدى أهل السنة، من ثم، فعدم وجود مساجد لهم يمنع من أداء تلك الفريضة، وعلى ذلك يذهب الكثيرون إلى السفارة الباكستانية لأداء صلاة الجمعة، ويعتبر هذا خزيًا. وعلى الرغم من وجود نواب لهم بالمجلس فهم قليلون بالنسبة لعدد الجالية السنية. إن الأقلية السنية أكبر من الأقلية اليهودية والزرادشتية والأرمنية وينبغى أن يكون لهم عدد أكبر من النواب، لكن الأمر ليس كذلك، أيضا، ثمة تمييز ضد الصوفيين، وعلى الرغم من أن لهم أماكن عبادتهم، أى الخانقات، فقد تم تدمير بعضها وبالطبع علينا أن نعترف أن الشيعة فى المملكة العربية السعودية والمسلمين فى إسرائيل يتعرضون للاضطهاد والقمع بقدر يفوق كثيرا كثيرا ما يتعرض له الأقليات السنية وغيرها فى إيران».

أيضا، تتحكم الدولة فى درجة تضمين الأقليات الدينية والإثنية فى مؤسسات صنع القرار السياسى. ثمة مقعدان للأرمن فى البرلمان، ومقعد للأشوريين ومقعد لليهود وآخر للزرادشت، أما الجاليات السنية فلها عدد مقاعد أكبر بكثير كأقلية دينية، وتمثل الأقاليم ذات الغالبية السنية. تشارك الأقليات الدينية فى الانتخابات التشريعية من خلال عملية، تناقسية مفتوحة لتسجيل المرشحين. تقتضى الانتخابات القيام بحملات الدعاية وتوزيع المنشورات فى أنحاء المدن. يتحدث المرشحون فى اجتماعات يعقدونها لكسب أصوات المجموعات يمكن للأفراد ترشيح أنفسهم فقط من خلال الهيئة الحكومية المختصة وليس من خلال مراكزهم الدينية والإثنية، وبهذا المعنى، تتحكم الدولة فى العملية، تبدى المجموعات. الإثنية الدينية استيعابها من هيمنة طهران المؤسسية على

تشكيل السياسة. يناقش ممثلو المجموعات الإثنية السنية والشيعية من خلال الوسائط الإعلامية مفهوم تقرير المصير للأزاريين والبلوشيين والعرب ويذهبون إلى أن الحركات الإثنية في إيران لم تكن أبدا انفصالية؛ الأخرى أنها جميعها تطالب بالمساواة داخل النظام. مثلا، أخبرني الناشط العربي الشيعي محمد بالتالي:

«نطالب، كإثنية عربية في إيران بحقوق متساوية مع الغالبية الفارسية. إن مطالبنا تتعلق بحقوق المواطنة من حيث اللغة والثقافة وإلغاء التمييز الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. ولهذا السبب توجد قلقا في أنحاء مختلفة من البلاد. لا نريد الانفصال عن إيران بل نريد حقوقا متساوية. قتل ١٢٠٠٠ من العرب في المعارك أثناء الحرب مع العراق. ثمة مسجونون سياسيون من مجموعات إثنية ودينية يتحدشون عن مظالمهم ويكتبون عنها. إن ٨٠٪ من سكان إقليم خوزستان هم من العرب ويعانون الفقر.

كما أن الأقلية السنية العربية أفقر الفقراء. يعترف الدستور باللغة العربية لغة ثانية للبلاد. وعلى الرغم من أننا نتحدث العربية فنحن لا نستطيع تعليمها للأطفال ولا نريد أن نستبدل بها الفارسية. نريد اللغتين معا. يستغل الأجانب وضعنا لشن الهجوم على إيران، لكن هؤلاء أجندتهم الخاصة. إذا قمنا بحل قضايانا بأنفسنا فسنكتسب سلطة كافية ولن نسمح للأجانب بالتدخل لاستغلال قضايانا على حسابنا. لا تتعلق مشكلة الأقليات بسياسات الدولة والمؤسسات الأخرى فحسب، لأن الخطابات العنصرية المعادية للقومية للأقليات تأتي من مثقفينا. ثمة أدبيات فارسية تصور العرب والأتراك على أنهم كائنات أئني. لم تضم حكومات خاتمي وأحمدي نجاد سوى عدد قليل من الأقليات، لكن هؤلاء

لا يتصدون للقمع الإثنو/ ديني. نحتاج إلى عدد أكثر من الأقليات في مناصب السلطة على المستويات المحلية والإقليمية والقومية من أجل التعاطي الجاد مع مظالمنا.

ينبغي النظر إلى التقسيم الشيعي/ السني في سياق الهويات الإثنو/ دينية والنضالات الأوسع للأقليات العرقية والدينية الذين يتحدون الدولة والمؤسسات الأخرى بمطالبهم المشروعة لحقوق المواطنة المتساوية. لم تُضعف المحاولات التي يقوم بها المجتمع والدولة الإيرانية من أجل «الفرسنة» والوحدة الإسلامية التنوع الإثنو/ ديني واللغوي، وفي هذا السياق، ترى الأقليات الدينية في لا مركزية الدولة سبيلا إلى تقوية الأمة، كما ترى أن إيران ككل ليست أعظم من مجموع أجزائها، الأخرى أن كل جماعة على حدة ضرورية في تركيبة الدولة وقوتها. من ثم، تشكل الأقليات جزءا من الحركة الديمقراطية الأوسع التي تناضل من أجل إقامة دولة مسئولة تعامل جميع مواطنيها على قدم المساواة. بينت لي ما شاء الله شمس الواعظين أنه:

«طوال التاريخ الإسلامي ظل ثمة حركات إصلاحية في الموروثات السنية والشيعية معا. تلعب حركة الإصلاح الإيرانية اليوم دورا مهما بخاصة حيث إنها ترى فصل الدين عن السياسة والدولة. إذا نجحنا في ذلك فستقلص الفجوة بين المذهبين الشيعي والسني الأمر الذي لا بد وأن يمثل انتصارا تاريخيا للإسلام الديمقراطي مقابل الإسلام المحافظ. نستطيع النجاح في الإتيان بالديموقراطية إلى إيران والمنطقة».

النساء؛

ثمة ثراء في الأدبيات عن دور النساء في مرحلة ما بعد ثورة ١٩٧٩ في إيران. وكما ذكرنا سابقا، لعبت النساء دورا مهما داخل الحركة

الإصلاحية في التسعينيات. في عام ١٩٩٧، وقبل الانتخابات الرئاسية، تحدث عزيم تالغانى، مؤسسة جمعية النساء الإسلامية في إيران، الدستور على أساس أنه لا يسمح للنساء بالترشح لرئاسة الجمهورية الإسلامية وأعلنت نفسها مرشحة للرئاسة. ومنذ آنذاك، ظلت النساء يثرن هذه القضية لدى كل انتخابات رئاسية وينظمن اعتصامات وتظاهرات لإسماع أصواتهن. قلن إن حركتهن متنوعة سياسيا ودينيا، لكنها موحدة من حيث إنها تحاول إجبار المرشحين على الاعتراف بمطالب حقوق المرأة ودور النساء العضوى فى إطار الديمقراطية. أدى نضالهن إلى إثارة الجدل لدى كل انتخابات رئاسية حتى أن البرلمان والإعلام اللذين يهيمن عليهما المحافظون أجبرا على مناقشة القضية، وظهرت دوريات، وصحف ومواقع إلكترونية ومدونات تتحدى المرشحين حول تاريخهم فى الماضى ووعودهم بشأن المستقبل. لعبت ناشرة ورئيسة تحرير دورية «رئان» (النساء) الشهرية، شهلة شركات - دورا عاما فى خلق منبر لقضايا حقوق المرأة. أغلقت الدورية عام ٢٠٠٧. تشكلت تحالفات جديدة بين القوميين المتدينين والعلمانيين والإصلاحيين. أجبرت نضالات النساء السياسية عددا من المرشحين المحافظين والإصلاحيين على مناقشة قضايا الديمقراطية.

تذهب جميلة كاديغار المتخصصة فى علم السياسة والجندر والإسلاميات إلى أنه «ليس ثمة دليل فى القرآن يشير إلى عدم جواز تولى النساء المناصب القضائية». ذكرت لى أن:

«ناقش عدد من رجال الدين مثل الصانعى وجناتى قضايا النساء مثل حقهن فى أن يصبحن رئيسات للجمهورية وقاضيات، وأيضا قضية إصلاح قوانين الأحوال الشخصية والمساواة بين الرجال والنساء فى

قانون الـدية.. إلخ، وهذه خطوة إيجابية إلى الأمام على الرغم من حقيقة أن المؤسسات المحافظة هي العقبة الحقيقية في طريق إصلاح القوانين والأحكام. إن وحدة النساء مهمة، سواء كن من المفكرات الجديـدات المتدينات أو علمانيات أو ربـات منازل، أو موظفات. إن المشكلة اليوم هي الفجوة الواسعة بين النخبة والعاديات من النساء. نحن بحاجة إلى الوصول إلى العاديات من النساء والعابيين من الرجال، فإن المشكلة لا تقتصر على هيمنة الرجال بل تتمثل في أن الكثيرات يقبلن تلك الهيمنة على أنها المعيار والوضع العادي».

نتح عن الضغط من أجل إصلاح قانون وأحكام الأحوال الشخصية تغيرات مهمة. يستشير رؤساء المحاكم المستشارات القضائيات اللاتي يتولين مناصب قضائية قبل إصدار أحكام نهائية بالطلاق. أيضا، تخضع عقود الزواج للفتيات اللاتي تقل أعمارهن عن ١٢ عاما، والفتية الأقل من ١٥ عاما لموافقة الوالدين، كما أن عملية رفع سن بلوغ الفتيات إلى ١٣ عاما بدلا من تسعة أعوام جارية. يمنح نص جديد في قانون الزواج النساء الحق في تطليق أنفسهن وحضانة الأطفال والحق في منع الزوج من الزواج من زوجة ثانية بشرط النص على هذه الحقوق في وثيقة الزواج. تتلقى الأسر التي تقوم على شئونها امرأة معاشات كما أن لها الحق في تلقي القروض. يوجد الآن في جميع المصالح الحكومية لجان نسائية، وتحتوي جميع الصحف والمجلات والدوريات صفحات نسائية. يسمع بالإجهاض في أوضاع معينة. واليوم، يماثل عدد المقاعد البرلمانية التي تحتلها النساء نظيرتها في تركيا ويمثل عدد المهنيات النساء مثله في كوريا الجنوبية. تضم حكومة أحمدى نجاد التي تشكلت عام ٢٠٠٩ وزيرة للصحة هي الدكتورة مارزية واحد داستجردي.

شهد العقد الأول من القرن الحادى والعشرين انطلاق عدد من الحملات - بينها حملة المليون توقيع، والحملة ضد عقوبة الرجم حتى الموت، وحملة أمهات من أجل السلام - حققت نجاحا نسبيا وحظيت بتأييد عدد من رجال الدين. تمكنت النساء فى عام ٢٠٠٧ من خلال حملة ناجحة من تغيير القانون بحيث يُسمح لأطفال النساء الإيرانيات المتزوجات من أجانب الحصول على جنسية الأم الإيرانية وحقوقها فى المواطنة إذا كان الأطفال مولودين بإيران وعاشوا بها لمدة ثمانية عشر عاما أو أكثر. أيضا، تحدثت النساء القانون التمييزى الذى يحظر على النساء ارتياد الملاعب الرياضية فى معية الرجال، ورغم أنه ثمة قسم للشخصيات المهمة VIP مخصص للنساء فى ستاد كرة القدم بطهران، فإن حاملات بطاقات هذا القسم يتظاهرن ويطالبن بالدخول كمواطنات متساويات فى الحقوق.

فى سبتمبر ٢٠٠٨، تمكنت مجموعة من الناشطات اللاتى كنّ يقدن حملة ضد مشروع قانون «حماية الأسرة» الجديد من جعل أعضاء فى البرلمان يضغطون ضده ونجحن فى منع صدوره. ذهبن إلى أن مشروع القانون كان ضد حقوق المرأة المتعلقة بالزواج والطلاق وتمكن من تغيير بندين مهمين فى القانون: لا يستطيع الزوج الزواج مرة أخرى بدون موافقة زوجته الأولى، وإعفاء المهور من الضرائب على أساس أن فى هذا تمييزاً ضد الفقيرات.

بالنسبة لكثير من ناشطات حقوق المرأة، فإن إصلاح القوانين والأحكام هو نصف القضية فقط، إذ ينبغى أن تكون حقوق المرأة مستدامة وذات صفة مؤسسية. ولا يمكن تحقيق هذه المهمة سوى بالتعاوى مع الفقر وتوفير فرص العمل للنساء.



كانت إلهه كولعى، أستاذ السياسة والدراسات الدولية بجامعة طهران عضوة بالبرلمان فى الفترة ما بين ١٩٩٦ و ٢٠٠٠. وفى تلك الفترة، وبفضل جهود النساء، تغيرت عدة قوانين لصالح المرأة. مثلاً، منحت النساء حق حضانة أطفالهن الصبية والفتيات حتى سن السابعة مقارنة بالقوانين السابقة التى كانت تمنحهن حق حضانة الأبناء الذكور حتى سن العامين والبنات حتى سن التاسعة. يوافق الرجال أحياناً على أن تكون للنساء الحضانة كي يتمتعوا بحرية الزواج بامرأة أخرى، لكن لا تستطيع كثير من النساء قبول حضانة أطفالهن نظراً ل فقرهن.

تشترك عدد من ناشطات حقوق المرأة فى وضع استراتيجيات لتقليص الفقر بين النساء وإتاحة فرص عمل لهن. فخر السادات محتشمى يور هى المدير التنفيذى لجمعية النساء صاحبات المشاريع. تقوم بتنظيم ورش عمل، وحلقات نقاش ومؤتمرات حول النساء والعمل تهدف إلى توفير فرص العمل للنساء. وكما ذكرنا سابقاً فإنه ثمة عدد كبير من المتعلّقات لم يستوعبهن سوق العمل. من خلال هذه الجمعية تتاح للكثيرات الموارد اللازمة لإقامة مشاريعهن متوسطة الحجم والصغيرة ولتشغيل نساء أخريات. تحاول تلك المنظمة أيضاً جعل النساء مرئيّات وإثبات الفائدة الاجتماعية لعمل النساء بالنسبة للأسرة والجماعة.

تترأس فخر السادات محتشمى يور أيضاً مجلس إدارة «جمعية التاريخ والباحثات النساء». تعمل المؤرخات وزميلاتهن فى تلك المنظمة من أجل قراءة لتاريخ إيران من منظور نسوى. يتحدّين القراءات الذكورية المحافظة للإسلام والنصوص الإسلامية تلك القراءات التى تُنتج التمييز ضد النساء، ويقمن بتنظيم حلقات بحثية ومؤتمرات فى أنحاء

البلاد تحظى بالشعبية في أوساط الطالبات، تسهم تلك الباحثات الشابات في جعل النساء مرئيات في التاريخ الإسلامي والإيراني - أي أنهن يلقين الضوء على النساء من ذوات الإسهامات القيمة في الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية. من ثم، تكتسب تلك الباحثات الشابات الثقة من خلال استخدام النماذج والأمثلة التاريخية من أجل تحدى الإسلاميين الذين يستخدمون النصوص الإسلامية لعزل النساء واستبعادهن. تبين مثل تلك الخبرات المعاشة المواجهات التي تقوم بها النساء على أساس يومي واشتياكهن مع الدولة والبطيركية والبنى الاجتماعية والسياسية الأخرى، ونضالهن لتغيير علاقات الجندر المحافظة.

قبل الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٩ تشكل تنظيم «تحالف النساء» لإعلان مطالب النساء وتمكن بهذا من وضع قضايا حقوق المرأة في مركز الحملات الانتخابية. لعبت إلهه كولعى دورا مهما في حملة مير موسى الانتخابية، وكذلك فعلت جميلة كاديغار في حملة مهدي كروبي. لعبت زهرة راهناقارد، الأكاديمية وزوجة مير حسين موسى دورا حاسما في عرض مظالم المرأة في حملته الانتخابية. وعلى الرغم من أن قيادات مختلف الحملات غادرت البلد نتيجة للقمع السياسي، فمازالت النساء يواصلن النضال من أجل حقوقهن ومن أجل الديمقراطية، كان حضور النساء في الأحداث الخلافية التي أعقبت الانتخابات مرثيا بوضوح إذ شاركت ملايين منهن في التظاهرات.

وعلى الرغم من القمع السياسي، فإن ثمة درجة عالية من الوعي بقضايا الجندر في إيران اليوم، كما تم إصلاح عدد من القوانين والأحكام الخاصة بقضايا المرأة أكثر كثيرا من أي وقت سابق. تتمتع

النساء في إيران اليوم بحقوق تفوق نظيرتها التي تتمتع بها النساء في أنحاء الشرق الأوسط.

«انتفاضات» ٢٠٠٩-٢٠١٠ والحركة الخضراء، (١)

(١) صدر مؤخرا عند من الكتب توضح الدور الذي تلعبه المواقع الإلكترونية الاجتماعية في تنفيذ الاستراتيجيات الأمريكية، نذكر منها كتاب أفسانه مقدم (اسم مستعار). «الموت للديكتاتور مشاهد الانتخابات الإيرانية وتحويل الجمهورية الإسلامية» وكتاب أنابيل سربرين وغلاد خياباتي «بلوستان (مدونستان). الإنترنت والحياة السياسية في إيران».

من بين ما توضحه هذه الكتب وغيرها أن الحكومة الأمريكية تقوم بتنظيم وفود تمثل الوسائط الإعلامية الجديدة إلى الشرق الأوسط من أجل خدمة المصالح الأمريكية ونشر القيم الأمريكية وكسب عقول الشباب وقلوبهم.

مهندس تلك الزيارات هو جاريد كوهين، طفل وزارة الخارجية الأمريكية المعجزة (اكتشفته كوندليزا رايس) الذي جال جميع أنحاء أمريكا اللاتينية والشرق الأوسط وقام ببناء الجسور مع شركات الإنترنت الكبيرة مثل يوتيوب وتويتر واستخدم الميديا الاجتماعية لتحقيق أهداف الإمبريالية الأمريكية في تلك المناطق

تشكلت في وزارة الخارجية فرق رقمية للتدوين والمواقع الإلكترونية بالفارسية، والعربية والأوردية وغيرها، تشارك شباب تلك المناطق في أحاديث وتحاول كسبهم بلطف وديبلوماسية إلى جانب السياسات الأمريكية العامة. رأت هيلاري كلينتون إمكانيات هائلة لتنفيذ أهداف السياسة الأمريكية الخارجية من خلال الفيس بوك وغيره وأطلقت حملة «الحرية للإنترنت» التي تزامنت مع حملة أوياما لتجميل وجه السياسة الأمريكية دونما تغييرها. عينت كوهين رئيسا لجمعية عمل على الإنترنت تحدث تأثيرها من أسفل وتشجع الشباب على الحديث إلى بعضهم وإلى أمريكا.

أنشاء التظاهرات «الانتفاضة» التي أعقبت الانتخابات الرئاسية الإيرانية، امتلأت مواقع تويتر وغيرها بالأنباء عما أسمى «ثورة تويتر». استخدمت الموبايلات والإنترنت بكثافة لتحديد مواعيد التظاهرات وأماكنها ونشر صور أعمال القمع. لجأ الشباب المؤيدون لأحمدي نجاد للوسائل ذاتها لنشر رسائلهم وكسب التأييد لموقفهم. =

فى انتخابات يونيو ٢٠٠٩، أعيد انتخاب أحمدى نجاد لفترة رئاسة ثانية. تحدى ملايين المحتجين نتائج الانتخابات، وارتدوا اللون الأخضر - لون الإسلام - لتأييد مير حسين موسى المرشح الخاسر. اتهم الإعلام الموالى للحكومة والسياسيون المؤيدون لها موسى، الذى كان قد أصبح قائدا للمعارضة على أرض الواقع، بمحاولة الإطاحة بالنظام الإسلامى الإيرانى. زعم موسى وكروبي (من الأعضاء المؤسسين لجمعية رجال الدين المقاتلين) ومعهما غيرهما من المرشحين الذين خسروا الانتخابات، ويتأييد من الرئيس السابق خاتمي، أن الحكومة الجديدة غير شرعية ونادوا بمواصلة الاحتجاجات، توفى بعض المحتجين أثناء التظاهرات التى تلت، وأصيب وسجن الآلاف.

تم تعذيب بعض قيادى الحركة وإجبرهم على الاعتراف بأنهم كانوا يتآمرون مع قوى أجنبية؛ عمل تأييد الغرب للحركة، الذى كان تعبيرا عن

---

= يصف كتاب «الموت للدكتاتور..» كيف تصاعدت الحملة ضد فوز أحمدى نجاد لتصبح «انتفاضة» فوضوية تعوزها القيادات والتوجه ضد رجال الدين والحرس الثورى حتى باتت تهدد الجمهورية الإسلامية ذاتها.

بعد قمع التظاهرات واقتفاء أثر القياديين من خلال التنصت على الموبايلات، لجأ المحتجون إلى حواسبهم وتبادلوا البرمجيات المضادة للاختراق التى زودتهم بها وزارة الخارجية الأمريكية، وبحثوا عن الأخبار على الفيس بوك ويوتيوب وتويتر.

نشطت «غرف العمليات» الرقمية الغربية، والأمريكية بخاصة، لنشر الشائعات والأخبار الكاذبة وكأن مصدرها إيران، مثل خبر اعتقال مير موسى، وزودت المعارضين بالبرمجيات المضادة للاختراق، وكان الكونجرس الأمريكى قد خصص عشرين مليون دولار لإنشاء حسابات على مواقع إلكترونية وتوزيع برمجيات للتهرب من جهود الحكومة لتعويق الإنترنت والرقابة عليها (الترجمة، عن L.R.B، ديسمبر ٢٠١٠).

مشاعر الإسلاموفوبيا الكوكبية المتنامية، على تأجيج مخاوف الحكومة الإيرانية من محاولات الغرب لتغيير النظام.

فى الواقع، فإن حركة المعارضة تعتبر بحسم أن استقلال إيران هو واقع تم اكتسابه بشق الأنفس وأنجز بتضحيات كبيرة أثناء ثورة ١٩٧٩. وكما يؤكد أديب مقدم، فلن يسمح للعملاء الأجانب باستغلال الحركة والتلاعب بها. وفى الواقع، يحمل كثير من المحتجين صور محمد مصدق ويقولون إنه لن يُسمح للتاريخ بأن يكرر نفسه، بتعبير آخر، كانوا يريدون الديمقراطية لا التدخل الأجنبى كذلك الذى حدث فى الانقلاب الذى دبرته الاستخبارات الأمريكية والبريطانية ضد مصدق. وخلافا لتكهنات الغرب، فإن حركة الاحتجاج لا تحركها «الطبقة الوسطى العلمانية الحديثة فى المناطق الحضرية والتى يمثلها مير موسى» والتى دائماً ما توضع فى تقابل مع الطبقات العاملة المتدينة ممثلة بالحكومة. تستمد المعارضة الديمقراطية والقوى الحكومية الدعم من المجموعتين فقد أقاد الكثيرون على جانبي الصراع من أوجه دعم الدولة واستثماراتها وعائدات النفط، لكن الغالبية يعارضون القمع السياسى يدعمهم فى ذلك عدد من السياسيين ورجال الدين النافذين.

ظلت صلاة الجمعة متبراً لآراء رجال الدين السياسية المختلفة. ألقى هاشمى رفسانجانى، رئيس الجمهورية الأسبق ورئيس «مجلس الخبراء» خطبة الجمعة يوم ١٣ يوليو ٢٠٠٩ وُعلن فيها تأييده للحركة الديمقراطية ونقد القمع السياسى ودعا إلى الوحدة الوطنية. فيما بعد، رفض إلقاء خطب الجمعة أخرى من أجل تلافى المصادمات المحتملة بين المجموعات المتنافسة، وبين حركة الديمقراطية والشرطة. تزامن يوم الجمعة ١٨ سبتمبر ٢٠٠٩، مع يوم القدس فى نهاية شهر رمضان. كان

هذا اليوم، بعد ثورة ١٩٧٩، قد أصبح مناسبة سنوية لنصرة الفلسطينيين، وأيضا، وفقا لما قاله الإمام الخميني، لمعارضة كل أشكال الظلم والقمع. حل رجل دين موالٍ للسلطة محل رفسانجاني الذي اعتاد، تقليديا، إلقاء خطبة الجمعة في تلك المناسبة.

وجه مهدي كروبي، أحد المرشحين الذين خسروا الانتخابات، النقد للحكومة لسماعها بتعذيب المحتجين المعتقلين (بما في هذا الاغتصاب والتحرشات الجنسية) وطالب بمحاكمة كل من استخدم العنف ضد المحتجين. أيضا، نقد على لاريجاني رئيس البرلمان (والذي استبعده أحمدى نجاد كرئيس للمفاوضين في ملف إيران النووي) ومحمد باقر قاليباف عمدة طهران، ومحسن رضائي، القائد السابق للحرس الثوري وثالث المرشحين الذين هزموا في الانتخابات الرئاسية، نقدوا جميعهم القمع الذي استخدم ضد المحتجين. في نوفمبر ٢٠٠٩، عبّر محمود وحيدنيا، عالم الرياضيات الشهير البالغ من العمر ٢٥ عاما، في لقاء بين آية الله خامنئي ونخبة من علماء البلد بث وقائعه على الهواء مباشرة، عبّر عن نقده للقمع الوحشي الذي مورس بعد الانتخابات، وشجب إعلام الدولة لتغطيته المنحازة وتساهل عن السبب الذي من أجله يعتبر قادة الجمهورية الإسلامية فوق النقد. ونتيجة لهذا اللقاء، شكلت لجنة برلمانية لتفحص أعمال العنف التي استخدمت بعد الانتخابات وتم إلقاء القبض على عدد من المسؤولين الذين اتهموا بتعذيب وموت واغتصاب بعض المعتقلين السياسيين.

تواصلت الاحتجاجات طوال ٢٠٠٩ وحتى ٢٠١٠. في ديسمبر ٢٠٠٩، توفي آية الله العظمى منتظري، الناقد الصريح للحكومة. شارك مئات آلاف المحتجين في جنازته. وبعد أسبوع وفي احتفالات يوم عاشوراء

الذى يعتبر رمزيا يوما للعدالة، واجه المحتجون القمع الوحشى وقتل البعض فى مواجهات مع الشرطة وأصيب وسجن المئات، تم تنظيم تظاهرة أخرى بمناسبة العيد الحادى والثلاثين لثورة ١٩٧٩، تنطلق يوم ١١ فبراير ٢٠١٠. لكن السلطات، واستباقا منها للتظاهرات، اعتقلت المئات بما فى هذا القيادات الطلابية وناشطات حقوق المرأة وعدد من الصحفيين والمدونين. صاحب ذلك إجراءات أمن مشددة وتعتيم إعلامى وتعطيل إرسال الرسائل القصيرة والرقابة على الإنترنت وبذلك تمكنت السلطات من الإمساك بزمام الأمور. كان افتقاد الحركة للقادة وعدم معرفة الناس ما ينبغى عليهم فعله وإلى أين يتبغى عليهم أن يتوجهوا، كان يعنى تفوق التظاهرات المؤيدة للحكومة على المعارضين بكثير.

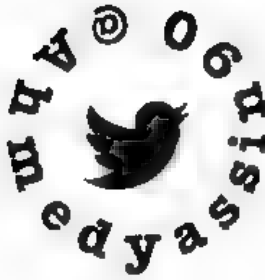
برهن ذلك على قدرة الدولة على ترسيخ سلطتها من خلال العنف والتخويف والقمع السياسى. بيد أن ثمة انقسامات عميقة بين النخبة الحاكمة: يرى البعض أنه ينبغى الانفتاح على الاقتصاد الكوكبى والثقافة الكوكبية فيما يستغل آخرون تهديد أمريكا وإسرائيل الدائم بشن حرب على إيران، وفرض العقوبات عليها من أجل إخماد صوت ناشطى الديمقراطية. وبالمثل، تشهد المؤسسات الإسلامية أيضا انقسامات عميقة، وكما ذكرنا من قبل، فقد أقيمت تلك المؤسسات بعد ثورة ١٩٧٩ لحماية مصالح الشعب لكنها تحولت بعد ذلك إلى مشاريع رأسمالية. مازال البعض داخل تلك المؤسسات متمسكين بمبادئ ثورة ١٩٧٩ وبالعامل من أجل مصالح الشعب فيما يستخدم الآخرون الأيديولوجيا الإسلامية لحماية مصالحهم الخاصة. نجد تلك الانقسامات أيضا فى القوات المسلحة والجهات الأمنية التى أنشئت بعد ثورة ١٩٧٩ للدفاع عن الثورة والبلد، لكنها أصبحت بمرور الوقت متورطة فى رعاية مصالحها

المالية والمادية. فتحت التظاهرات التي مازالت مستمرة منذ يونيو ٢٠٠٩ مساحة جديدة للأفكار السياسية الراديكالية في الوعي الإيراني التاريخي، ومن ثم، يتمتع ناشطو الديمقراطية بالثقة في النفس ويرون حركتهم استمراراً للثورة الدستورية بين عامي ١٩٠٦-١٩٠٧، وتأميم البترول عام ١٩٥١ وثورة ١٩٧٩. يعتقدون أن مطلبين من مطالب ثورة ١٩٧٩ الثلاثة قد أنجزا أي الاستقلال وانتهاء الحكم الملكي، وهم يناضلون الآن من أجل تحقيق المطلب الثالث وهو التحرر من قمع الدولة. يرى كثير من نشطاء الديمقراطية أن حركتهم الإصلاحية هي علامة لنهاية تعايشهم مع المحافظين ويذهبون إلى أنهم يواجهون نظاما محافظا ذا قاعدة ضيقة عمل على إجبار نشطاء الديمقراطية على اتخاذ وضع للمعارضة المستدامة. وفي هذا السياق، فمن المحتمل لمنظمتهم «الطريق الأخضر إلى الأمل» أن تتحول إلى حركة للمجتمع المدني ونضال دائم من أجل الديمقراطية. أوضحت الحركة الخضراء داخل إيران أن روابط الشعب الأيديولوجية بالنظام القائم بدأت في التمزق. بيد أن درجة التأييد للنظام الحاكم توضح أيضا أن قطاعات عريضة من المجتمع لم يتحرروا من الأفكار التي تعميهم عن واقع هذا النظام القمعي. تعتقد القطاعات المختلفة من المجتمع في مدرجات مختلفة عن الدولة والنظام، ولم تتمكن الحركة الخضراء حتى الآن من ترجمة أزمة ما بعد انتخابات يونيو ٢٠٠٩ إلى قضية يجتمع حولها الجميع، لم تُبدِ القيادات قدرتها على قيادة الحركة بل سعت بدلا من ذلك إلى التوصل إلى تسويات مع المحافظين.

سيسجل التاريخ حركة الديمقراطية في إيران منذ عام ١٩٧٩، مع نقاط قوتها ومكامن ضعفها، بصفتها إحدى أهم الحركات في العالم في



نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادى والعشرين. وعلى الرغم من تقويض القمع السياسى من قبل النظام الاجتماعى البطريركى السلطوى لأنشطتها، إلا أنها تحدث ببسالة السلطة المؤسسية ونفوذها، وحققت أهدافا مهمة. يُعترف بها بصفاتها مجموعة اجتماعية ذات مصالح مشتركة لها حق مشروع على المجتمع.



## الإسلاميون المحدثون

### التقسيم السني/ الشيعي:

يتميز التاريخ الشيعي في إيران بالاستمرارية والتغير في آن، في الفترة المبكرة، أي في حوالى القرن السابع، تحدث المجموعات الشيعية، بصفتها أقلية شرعية الخلفاء وتسلسلهم. أثناء حكم الأسرة الصفوية<sup>(١)</sup> في إيران (بين القرنين السادس عشر والثامن عشر) تقبل رجال الدين الشيعة الملكية الصفوية حامية للمذهب الشيعي راعية له. وبعد ثورة ١٩٧٩ حينما وصل رجال الدين الشيعة إلى السلطة، قاموا بتحدى الحكام الظالمين على نطاق المنطقة والكوكب. بيد أن حكم رجال الدين الشيعة اليوم يواجه التحدى من قبل الإسلاميين المحدثين الذين يحاولون فصل الدين عن السياسة والدولة. يتفحص هذا الفصل هذه التطورات التاريخية ويذهب إلى أن السياسة الخارجية الإيرانية القوية التي تحوز الإعجاب في بلدان الشرق الأوسط لها جذورها في التحويل الدينامي المتجدد للفلسفة الشيعية فيما يتعلق بالحق في تحدى الحكام المستبدين:

(١) سلالة ملكت في إيران ١٥٠١ - ١٧٣٦ كانت طريقة صوفية نشأت في أردبيل، تنتسب إلى صفى الدين الأردبيلي. أسس الدولة إسماعيل آ. الأق قيونلو واتخذ تبريز عاصمة وتلقب بالشاه وأعلن الشيعة مذهب الدولة هزمه العثمانيون في جالدران، نقل ههماسب آ العاصمة إلى قزوين عام ١٥٥٥ بعد سقوط تبريز بيد العثمانيين ثم نقلها عباس آ الكبير إلى أصفهان عام ١٥٩٢ احتل الأفغان أصفهان عام ١٧٢٢ فطردهم القائد نادر شاه وأعلن نفسه ملك عام ١٧٣٦ وامقرضت السلالة بموت عباس الثالث (الترجمة عن معجم المجد في الأعلام)

ثمة ١,٣ مليار مسلم في العالم، ١٥٪ منهم شيعة و ٨٥٪ من أهل السنة. تتركز المجموعات الشيعية في الشرق الأوسط - من لبنان إلى باكستان - حيث تتساوى أعداد السنة والشيعة.

تحىي المجموعات الشيعية في العاشر من محرم ذكرى استشهاد الإمام الحسين حفيد رسول الله بكربلاء في عام ٦٨٠م، كما يحيون ذكرى الأربعين لاستشهاده ويرون أنه قُتل وهو يقاوم الطغيان. ترمز تلك المناسبات والتجمعات المشحونة عاطفياً إلى معارضة الحكام القامعين اليوم، لأن المجموعات الشيعية أقلية في كثير من المجتمعات الإسلامية بالشرق الأوسط وشمال إفريقيا ووسط آسيا وجنوبها (باستثناء إيران والعراق). أبقت تلك المجموعات بصفقتها أقلية، طوال تاريخها، على إحياء ذكرى تلك الأحداث، ليس فقط بصفقتها صراعاً تاريخياً، بل كتحدٍ

ضد الحكام المستبدين والعدوان الأجنبي اليوم، لا تسمح لهم الحكومات أحيانا بذلك لأنها تنتظر إلى تلك المناسبات بصفتها تحديا للأنظمة الحاكمة.

توضح أمثلة عديدة هذه المشاعر القوية. تم تحدى دور شاهات أسرة بهلوى فى إيران بأسلوب أدى إلى ثورة ١٩٧٩، وكذلك دور صدام حسين فى العراق، ودور إسرائيل فى لبنان وفلسطين. حينما سقط نظام حسين فى ربيع ٢٠٠٢ أحيى ٢ مليون شيعى فى كربلاء ذكرى الأربعين لاستشهاد الحسين، وكان صدام حسين قد حضر تلك التجمعات لسنوات عديدة. تظاهر هؤلاء لتوضيح هويتهم السياسية/ الدينية التى كان صدام حسين قد أنكرها عليهم. عبر عشرات الآلاف من الإيرانيين ومعظمهم من الفقراء وكبار السن، وليس معهم سوى لقايات أطعمتهم، عبروا الحدود

الإيرانية العراقية لزيارة أضرحة الأئمة الشيعة في العراق والتي كان صدام قد حظر عليهم زيارتها. كانت أضرحة الأئمة الشيعة في العراق وسوريا وأنحاء أخرى، بقبابها الذهبية، وقراميدها الخضراء والزرقاء، وجدرانها التي تغطيها المرايا، وثرياتها وسجاجيدها، كانت هدايا من الملوك والشاهات الإيرانيين، وكذلك أثرياء التجار الإيرانيين وظلت المطابخ الكبيرة الملحقة بتلك الأضرحة تطعم الفقراء في أنحاء المجتمعات ذات الغالبية الإسلامية.

تعود أصول الانقسام الشيعي السنّي إلى سنوات الإسلام المبكرة، ولا يتعلق هذا الانقسام فقط بالاختلافات الأيديولوجية، بل بالقراءات المختلفة للتاريخ والسلطة السياسية والهيمنة والخضوع وتفرد الهوية، كما يرى شريعتي. بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) عام ٦٣٢م، اتبع غالبية المسلمين التقاليد القبلية لاختيار رئيس الأمة الإسلامية من قبل مجلس من الحكماء من كبار السن الموقرين، من ثم، اختار المجلس أبا بكر خليفة للرسول، فيما رأت مجموعة صغيرة من الصحابة ابن عم الرسول وصهره علي بن أبي طالب أحق بخلافته. أصبح أبوبكر هو الخليفة وتقبل على نتيجة الإجماع، بعد أبي بكر، تم اختيار عمر، ثم عثمان، وأصبح على الخليفة الرابع، بيد أن الشيعة (أتباع على) مضوا يتحدثون تلك الاختيارات، ويرون حتى اليوم أن خلافة الرسول يجب أن تنحصر في آل البيت، أي نسل علي وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين. يزعمون أن الرسول، أثناء عودته من مكة يعد حجة الوداع، أعلن علياً، لدى غدير خم، خليفة له، من ثم أصبح علياً قائدهم الأول، وانحصرت القيادة في أحد عشر من نسله.

منذ وقتئذ انقسم المسلمون إلى فريقين: أهل السنة والجماعة، الذين يرون نظام الخلافة استمراراً للنبوة، والشيعة من أتباع علي الذين يرون

الإمامة استمرارا لرسالة النبي. وكما يذهب محمد غوثشاني وجميلة كاديقار، لم يسائل خطاب الشيعة السياسي، بصفتهم حزبا دينيا/ سياسيا مسألة خلافة الرسول فقط، بل أيضا مسألة زعامة الأمم الإسلامية وشرعية تلك الزعامات.

أثناء الفترة بين عامي ٦٣٢ و٦٦١، حينما خلف أبا بكر عمر ثم عثمان ثم علي في النهاية، تعاظم الصراع بين المذهبين. قتل أبو لؤلؤة المجوسي، أسير الحرب الإيراني، عمر، ثم قُتل عثمان على يد بعض الجنود المسلمين المتمردين. كان أبو بكر قد تحدى علياً، وتحدثه بعده السيدة عائشة، ثم معاوية (ابن عم عثمان والذي كان حاكم دمشق)، ثم قُتل في النهاية.

بعد وفاة علي، وفي ظل الحكم الأموي (٦٦١ - ٧٥٠) تحول نظام الخلافة من علاقة متداخلة بين الدين والسياسة والقيادة، إلى فصل بين الدين والسياسة، وأوكلوا المهام الدينية إلى علماء الدين. قبلت غالبية أهل السنة النظام الجديد، لكن الشيعة مضوا في تحديهم للأمويين. انتفض الحسين بن علي وأهل الكوفة ضد الحكام الأمويين وواجه الحسين وشقيقه الحسن وجنودهم الجيش الأموي السوري في كربلاء وهزمهم القائد الأموي. وافقت السيدة زينب، شقيقة الحسين، رأس شقيقها إلى دمشق، حيث نجحت في الدفاع عن حياة ابنه، الحسن بن الحسين الذي خلف والده كرابع إمام شيعي. ضمنت زينب بنجاحها في هذه المهمة استمرار المذهب الشيعي ودُفنت في دمشق، وأصبح ضريحها مزارا للحجاج الشيعة.

قام خلفاء بني أمية الذين حكموا من دمشق، والخلفاء العباسيون الذين حكموا من بغداد (٧٥٠ - ١٢٥٨) بسجن الأئمة الشيعة وقتلهم. كانت مساجدهم تهاجم أثناء احتفالات عاشوراء وإحياء ذكرى أربعين

استشهاد الحسين . هرب القادة الشيعة إلى إيران وأفغانستان والهند، وكنتيجة لذلك ظهرت الأضرحة والمقامات التي تؤمها المجموعات الشيعية في جميع أنحاء تلك البلاد (شريعتي).

تمكنت بعض الجماعات الشيعية من حكم أهل السنة لفترات قصيرة. مثلاً، حكم البويهيون الفرس بغداد في منتصف القرن العاشر، وحكم الفاطميون مصر لمدة قرنين. بيد أن تلك الفترات كانت قصيرة نسبياً، وعاشت الجماعات الشيعية في غالبية الأحيان كأقلية يحكمهم أهل السنة. مضت الجماعات الشيعية في تحدى شرعية الحكام الأمويين والعباسيين في دمشق وبغداد، ورأوا أن خط القيادة استمر حتى عام ٨٧٤م حينما أخفى الله، بمعجزة، الإمام الثاني عشر، أو المهدي وهو في عمر التاسعة.

وفي هذا السياق، تعتقد الجماعات الشيعية أن عودة الإمام المهدي ستأتي معه بنهية الزمان والعدالة الربانية الكاملة. غدت تلك النظرة المسيانية التي تماثل نظيرتها لدى اليهود والمسيحيين والزرادشت، الخطاب الجديد المهيمن للمذهب الشيعي بإيران.

تشمل المدارس الفقهية السنية المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي. وتشمل المدرسة الشيعية الإثني عشرية (في إيران بشكل رئيسي) والإسماعيلية، والعلوية (في سوريا بشكل أساسي) والزيدية. ظهرت الصوفية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر في العراق ومصر؛ وتماثل المذهب الشيعي في بعض أوجهها. يُنظر إلى الأئمة الشيعيين وقادة الطرق الصوفية على أنهم وسطاء بين الله والبشر. ويحب الصوفيون علياً بأكثر مما يحبه الشيعة. ولّد تأثير الصوفية اهتماماً بالشيعة في كثير من المجتمعات السنية ورفض أهل السنة المتشددون الشيعة والصوفية معاً، وتعرض الجماعات الصوفية لنفس

الهجوم الذي تتعرض له الشيوعية. أما في سوريا، فثمة تناغم بين الجماعات السنية والشيوعية. يتحدى الإخوان المسلمون في سوريا الحكومة التي يهيمن عليها الشيعة العلويون الإسماعيليون، لكن الحكومة اعتمدت على الصوفية وتستمد شرعيتها منها.

وعلى الرغم من هذه الصراعات التاريخية فإن تلك المجموعات متنوعة. ينقسم أتباع كل طائفة على أسس من اللغة والإثنية والطبقية والجنس والجغرافيا والمعتقدات السياسية والمستويات المختلفة من الدين والعلمانية. هذه المجموعات عربية وفارسية وأفغانية وشمال إفريقية وآسيوية وجنوب آسيوية وجنوب شرق آسيوية ولكل منها هوياتها القومية والثقافية المتميزة. وعلى الرغم من أنها خاضت صراعات فيما بينها، فقد عاشت أيضا في تناغم وصداقة من خلال التزاوج وتمازج المجموعات وبخاصة في العراق. وكما سنرى في الفصل الخامس، فعلى الرغم من أنها تقاوت فيما بينها، لكنها أيضا حاربت العدو المشترك. ليس العداء بين تلك الجماعات بدرجة عمق العداء بين البروتستانت والكاثوليك.

يتبع أهل السنة القرآن والسنة النبوية. وفي هذا السياق، يتم الفصل بين الدين والدولة، وهو مبدأ يحظى بالاحترام من المراكز الإسلامية المهمة مثل الأزهر بالقاهرة. تعتبر الحكومات والدولة في الدول ذات الغالبية المسلمة ممثلة للدين ولأتباع الرسول في الشأن السياسي. ومن ثم، يقتصر دور علماء الدين على التعاطي مع الأمور الدينية لا السياسية. بالنسبة للمجموعات الشيوعية، يعتبر مفهوما العقل والاجتهاد (إعمال العقل والعقلانية) على درجة كبيرة من الأهمية (شريعتي). يتيح هذان المفهومان للمجتهدين التوصل إلى تأويلات وقراءات جديدة تتوافق مع الزمان والمكان. يتيح لهم هذا فهم المعنى المحدد للقرآن من خلال



التعليقات وفهم المعنى المضمّر من خلال التّأويل. وكما يرى راحنينا، فإن مفهوم الاجتهاد «يشكل الجسر بين التعاليم الإلهية الصالحة للأبد وبين المتطلبات التي يحددها الزمن لأي عصر». يرى البعض أن كبار الفقهاء السنة قد أغلقوا باب الاجتهاد منذ القرن الثالث عشر، فيما يرى آخرون أنه قد أغلق منذ القرن العاشر. بيد أنه، وحتى يومنا هذا، فما زال الحوار قائما بين علماء الدين السنة حول ما إن كان للاجتهاد أهمية. أما بالنسبة لعلماء الدين الشيعة، فإن مفهومي «العقل» و«الاجتهاد» يُتّحان لهم تأويل الشئون الاجتماعية السياسية والاجتماعية الاقتصادية بأساليب قد تكون ديمقراطية أو محافظة أو أوتوقراطية أو تتسق مع نظام الحكم الديني.

يرفض علماء الدين السنة هذه التأويلات أحيانا، ويأخذون بها أحيانا أخرى. مثلا، بيّن لي محمد حسين عادلي، محافظ بنك إيران المركزي فيما بين عامي ١٩٨٩ و١٩٩٤، كيف مكنه تأويله للشرعية من إصلاح النظام المصرفي الإيراني بحيث يعمل وفقا لمقتضيات العالم اليوم، وذكر أن غالبية المجتمعات السنية قد أخذت بهذا الإصلاح

«أوجدنا رابطة للمصارف الإسلامية. ناقشنا القضية مع الاقتصاديين المسلمين في إيران وفي المجتمعات ذات الغالبية المسلمة، وأيضا مع رجال الدين والعلماء المسلمين. أصبح الإصلاح هو المعيار في إيران وحقق نجاحا، ومنذ وقتئذ، تم قبول هذا النظام في بعض المجتمعات ذات الغالبية السنية وجارى العمل به».

في المذهب الشيعي يتم تقليد أرفع رجال الدين مكانة «مراجع التقليد» تساعد تبرعات أفراد الجماعة رجال الدين على القيام بأعمال خيرية وتعليم طلبة الحوزات العلمية. مثلا، تبعث الجماعات الشيعية في أنحاء الشرق الأوسط بتبرعاتها إلى آيات الله العظمى مثل السيستاني في

العراق، وفضل الله في لبنان، وعدد من آيات الله في إيران. كان كبار رجال الدين الشيعة، تاريخياً، يقيمون بمدينة النجف في العراق أو قم في إيران حيث ظلت ثمة روابط قوية بينهم وبين تجار البازارات.

وعلى الرغم من تطابق أساليب العبادة بين أهل السنة والشيعة، إلا أن ثمة بعض الاختلافات الطفيفة. فحينما يصلي الشيعة تظل أيديهم إلى جانبهم، على حين يعقدها أهل السنة فوق صدورهم. بيد أن أهم تمايز بين الطائفتين هو أهمية الصور البصرية لدى الشيعة حيث تماثل الأعمال الفنية الشيعية تلك الموجودة لدى بعض الفئات المسيحية وتشمل الأشكال البشرية. لكن مثل تلك التمثيلات تلقى الاستنكار والشجب من جانب علماء السنة بصفتها انحرافاً عن الإسلام وتعبيراً عن عبادة الأصنام. يمثل مفهوم النجاسة أيضاً تمايزاً بين شيعة إيران وأهل السنة. وهذا مفهوم ظل يعتنقه الزرادشتيون، وهي العقيدة الدينية في فارس قبل الإسلام، كما يوجد في الهندوسية بالهند، يرى الزرادشتيون من لا يؤمنون بعقيدتهم أنجاساً وسبيلهم إلى التطهر هو اعتناق الزرداشتية. أيضاً يعتقد الشيعة أن الاستشهاد يقوى المذهب الشيعي، كما في حالة الإمام الحسين، بينما ظل أهل السنة، تاريخياً، يستنكرون الاستشهاد إلى أن اعتنقه المتطرفون منهم في شكل التفجيرات الانتحارية.

### إيران والإمبراطورية الإسلامية؛

في زمن صعود الإسلام، كانت الإمبراطوريتان البيزنطية والساسانية القوتين الرئيسيتين بالمنطقة، وكانت اليهودية والمسيحية والزرداشتية هي الديانات المهيمنة في الإمبراطوريتين. ارتبط الإسلام بوضوح وتحفظ في آن مع الموروثات الراسخة في المنطقة. وفقاً للإسلام، فإن محمداً نبى يكمل رسالة الأنبياء اليهود والمسيح، ويضم القرآن عدداً من القصص

التي تتناظر تلك الموجودة بالإنجيل. نتيجة لهذا، لم يكن استيعاب الموروثات الاجتماعية للسكان اليهود والمسيحيين في الحياة الإسلامية صعباً، كما أن من اعتنقوا الإسلام من المسيحيين واليهود والزرادشتيين أتوا معهم بموروثاتهم وأعرافهم. أتت العديد من القيم والممارسات الاجتماعية مثل الحجاب، والعذرية، واقتناء الحريم من فارس القديمة ومن الموروث الزرادشتي. أيضاً، كانت النساء من الجماعات المسيحية شرق الأوسطية يرتدين الحجاب. أما مفهوم الزواج الإسلامي فكان يماثل نظيره في الديانتين اليهودية والزرادشتية. وكانت الأسرة، والجماعة التي تقوم على الأسرة بين المؤسسات التي ورثها الإسلام وأبقى عليها.

في زمن الرسول، كانت الجماعات العربية تعيش في شبه الجزيرة العربية والعراق وسوريا الكبرى (بلاد الشام) التي تتألف من سوريا وفلسطين، وكان الإسلام ديناً حضرياً. وفي غضون جيل واحد بعد وفاة الرسول، كان العرب المسلمون قد فتحوا إيران وهرمت جيوشهم القوتين العظيمين بالمنطقة، أي فارس ومصر، وأجبرت البيزنطيين على الخروج من الشرق الأدنى. فتحت جيوش المسلمين أيضاً بلاداً تمتد من شمال إفريقيا وحتى غرب أوروبا، وسرعان ما توسعت حدود الإمبراطورية الإسلامية من الهند إلى آسيا الوسطى والغرب. في الفترة التي تشكلت فيها الإمبراطورية الإسلامية أصبحت مصر والعراق بلدين عربيين إسلاميين، أما إيران، فلم تستعرب لكنها تأسلمت. لم تستنفد عملية التحول إلى الإسلام طاقة إيران الثقافية بل أوجدت هوية إيرانية متميزة داخل العالم الإسلامي، وشهدت نهضة ثقافية عظيمة كان من بين تجلياتها أشعار الفريوسي والنظامي والسعدي والحافظ. كان يكمن في قلب بقاء الهوية القومية الإيرانية مزيج من بقاء النخبة السياسية

والاجتماعية القديمة وامتلاك ثقة ثقافية بالذات. راق الفاتحين المسلمون الموروث الإداري للملوك الساسانيين، والتقدم الاقتصادي في إيران ونظامها الضرائبي. وقد أدى هذا ومعه تمسك ملوك الإمبراطورية الساسانية (٢٢٤ - ٦١٥م) بالقيم الثقافية الإيرانية إلى الحفاظ على الهوية الإيرانية المتميزة - وبقيت اللغة الفارسية غير العربية وغير السامية. كان الفتح الإسلامي قد استغرق قرونا حتى اكتمل مما أتاح الفرصة لبقاء بُنى السلطة المحلية، ومعها النخب الإيرانية الذين اعتنقوا الإسلام وكيفوه وفقا لمجتمعهم وحافظوا على الموروثات الثقافية والسياسية القديمة. ومع ذلك فقد أدمج تاريخ إيران قبل الإسلام مع الموروث العربي الكلاسيكي.

حينما انهارت السلالة الساسانية، استمرت الزرادشتية ديانة للنخبة والطبقات العليا. استمر الحكام المحليون يحكمون وفقا للتقاليد الساسانية، وبخاصة في منطقة بحر قزوين. حدث التحول إلى الإسلام من خلال جاذبية الدين الجديد واستغرقت العملية عدة قرون. لم تُفرض القوانين العربية الإسلامية على الإيرانيين. في القرن التاسع، قام الزرادشتيون الذين كانوا مازالوا يمارسون دينهم ويحتلون مواقع السلطة في الإدارة بترجمة الأدب الفارسي إلى العربية. أيضا، كانت إسهامات العلماء الإيرانيين من أمثال الرازي وابن سينا في مجال العلوم والطب ودور إيران في نشر تلك الإسهامات في أوروبا من خلال اللغة العربية على قدر كبير من الأهمية.

### صعود الشيعة إلى السلطة؛

في القرنين العاشر والحادي عشر، كان المذهب الشيعي قويا في شمال إفريقيا وجنوبي سوريا فيما كانت إيران مركز الفقه السني. بيد أن إيران وفرت ملاذا للجماعات الشيعية الهاربة من الاضطهاد في بغداد

ودمشق. وفيما تراجع المذهب الشيعي في شمال إفريقيا وسوريا، غدت إيران مركزاً له ومن ضمن تجليات هذا، أن رضا، الإمام الشيعي الثامن، مدفون في مدينة مشهد فيما دُفِنَت شقيقته معصومة بمدينة قم، ويؤم ملايين الحجاج الشيعة من إيران وخارجها ضريحيهما كل عام. أتت الشيعة الإثنى عشرية إلى إيران أثناء حكم الصفويين حيث كان إسماعيل الصفوي قد هزم المغول عام ١٥٠١ وأقام ملك الصفويين. تنافس العثمانيون والصفويون على الهيمنة على العالم الإسلامي، وأضفت الحروب بين الإمبراطوريتين هويات دينية متميزة على الإيرانيين والأتراك والعرب. وفي النهاية، رسخ الصفويون، الذين كانوا في الأصل أخوية صوفية سنية، المذهب الشيعي ديناً رسمياً في إيران كوسيلة لتمييز أنفسهم عن العثمانيين، منافسيهم الرئيسيين. وفيما أقاموا هم الإمبراطورية الشيعية حكم العثمانيون الأراضي العربية وجعلوا من الآستانة في عام ١٥١٧ مركز العقيدة السنية. لم يقتصر الاختلاف بين تلك القوتين العظميين على الشأن الديني، بل كان الصراع بينهما يدور حول من يحكم العالم الإسلامي. أُجبرت كثير من المجموعات الشيعية في المناطق ذات الغالبية السنية على الذهاب إلى المنفى وقتل بعضهم، وأوجد هذا مزيداً من الصراع بين المذهبين. كان العثمانيون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم خلفاء المسلمين ويرون في حكومة إيران الشيعية القوة تهديداً لهم.

وفي هذا السياق، سعى الشاهات الصفويون إلى الوحدة مع علماء الشيعة وكان هؤلاء العلماء بحاجة إلى دعم شاهات الصفويين، واعتمد بقاء الطرفين وازدهارهما على بعضهما، في تلك الفترة تغير الخطاب السياسي الشيعي، فقد أصبح المذهب الشيعي الدين الرسمي وحصل بعض علماء الدين الشيعة على سلطة نسبية. لم يعد الشيعة أقلية مقموعة

بل غالبية كبيرة مدمجة في النظام السياسي. في تلك الفترة أيضا كانت العلاقة بين القيادات السياسية وعلماء الشيعة في جوهر الخطاب الشيعي بدلا من الصراعات التي سادت الفترة السابقة. ولذلك، تغيرت طبيعة الجدل: اعتبرت المجموعات الشيعية الصفويين حكومة شرعية إلى أن يظهر الإمام الثاني عشر ليؤسس النظام الإسلامي الشرعي الحق.

ازدهرت الأنشطة الإيرانية/ الشيعية تحت حكم الصفويين. أوجد شاه عباس الذي تولى السلطة عام ١٥٨٧ نسخة حديثة من الهوية الثقافية الإيرانية القديمة وكان المذهب الشيعي أداتياً في تشكيل هوية قومية متميزة. ومن اللافت أن ذلك ناظر الفترة المبكرة في تشكل الدول القومية الحديثة في أوروبا الغربية. اختار عباس مدينة إصفهان القديمة عاصمة له وسميت إصفهان نصف إى چاهان، أي إصفهان نصف الدنيا. ازدهر المعمار المذهل، ويعتبر المسجد الأزرق الرائع مثالا واحدا فقط، وكذلك أساليب الرسم الجديدة، وأشكال الخطوط الفنية. أصبح ميدان إى ناغشى إى چاهان بمجمعى مسجديه الرائعين، وتشكيلات السيرامك التي لا نظير لها، وبازاره، أصبح مركزا مزدهرا للثقافة والتجارة الدولية. استقدم الصفويون علماء الدين الشيعة من لبنان وشبه الجزيرة العربية والبحرين من أجل تعميق جذور المذهب الشيعي. عمل هؤلاء العلماء ورجال الدين تحت رعاية الصفويين وأرسوا أسس الأبحاث، والحوزات والمكتبات والمساجد الشيعية في إيران. وهكذا، أصبح للشيعة منذ وقتئذ روابط قوية مع إيران. مثلا، تعود الروابط بين إيران والشيعة في جنوب لبنان والعراق إلى قرون عديدة مضت ويوضح هذا سبب أن رجال الدين الشيعة النافذين في تلك البلاد لهم جذور إيرانية. مثلا، تعود أصول آية الله السيستاني العراقي إلى إيران.

بيد أن سطوة العلماء الشيعة زوت في الفترة ما بين سقوط الصفويين

(١٥٠١-١٧٢٢) وحتى تولّى القاجاريين السلطة (١٧٩٤-١٩٢٥). لم يستطع شاهات القاجار الذين حكموا من خلال القوة العسكرية والقمع السياسى، تجاهل سلطة رجال الدين، أدى ضعف إدارة الدولة وعدم قدرة الشاهات القاجاريين على الوفاء باحتياجات السكان المادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، إلى زيادة شعبية رجال الدين وإسهامهم النشط فى القضايا الاجتماعية/الاقتصادية والسياسية فى تلك الفترة، كان عالم الدين الإسلامى الشيعى الإيرانى أسد عبادى المعروف بجمال الدين الأفغانى (١٨٢٨-١٨٩٧) رائدا للحدثة الإسلامية وناشطا معاديا للإمبريالية. رفض الأفغانى التيارات الإسلامية المحافظة والمحاكاة العمياء للغرب، بادر بالعدالة وحكم القانون فى سياق معارٍ للاستعمار وللاستبداد الدولة، كان أول من بادر بما أصبح توجهها متناميا لتغيير الإسلام من مجرد عقيدة دينية إلى أيديولوجيا سياسية دينية. وكما سنبين فى الفصل السابع، جذبت أفكار الأفغانى رائد الإصلاح الدينى فى مصر الشيخ محمد عبده حينما التقيا فى الأزهر بالقاهرة. ومعا، كان لهما إسهام عظيم فى الفكر الإسلامى الحديث، كان لهذا التوجه أن يستمر من نهاية القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين. فى نهاية القرن التاسع عشر، لعب علماء الدين الإيرانيون دورا مهما فى حركة التبغ الاحتجاجية ضد البريطانيين وفى الثورة الدستورية بين عامى ١٩٠٥-١٩٠٦، وفى حركة جانجالى (الغابة Jun- gle) ما بين عامى ١٩١٤-١٩٢٠ ضد حكم القاجار.

### تهديش رجال الدين الشيعة فى القرن العشرين

أثناء حكم أسرة بهلوى شاه (١٩٢٥-١٩٧٩) لعبت الشيعة كحركة سياسية دينية دورا معارضا مرة أخرى. وكما أوضحنا فى الفصل الأول، أدت التطورات الاجتماعية الاقتصادية أثناء حكم رضا شاه

ومحمد رضا شاه وفى ظل نفوذ البريطانيين أولا، ثم الأمريكين، أدت إلى تهميش قطاعات عريضة من المجتمع الإيراني بمن فيهم رجال الدين. دعم آية الله كاشانى حركة مصدق القومية، وفى الستينيات، بزغ آية الله الخمينى شخصية سياسية دينية مهمة.

بيد أن غالبية رجال الدين الإيرانيين وافقوا على إضفاء الشرعية على الحكم الملكى طالما ظل الشاه يدافع عن الهوية الشيعية. وعلى الرغم من أن آية الله الخمينى كان يعتقد فى فصل الدين عن السياسة، إلا أنه، وكما ذكرنا فى الفصل الأول، غير موقفه فى نهاية حكم الشاه، وتحت ضغط الأوضاع السياسية، رأى أنه يتبغى أن يكون للدين دور مهم من أجل إنهاء حكم الشاه وعلى هذا الأساس، رأى أيضا أنه يجب تنفيذ مبدأ ولاية الفقيه رغم أنه أكد على وجوب أن تتوافق الممارسات الدينية مع الظروف الراهنة، هذا فى وقت كانت غالبية الشعب تعارض سياسة الشاه الداخلية، والخارجية أيضا، وبخاصة علاقته مع إسرائيل.

وفى هذا السياق تم إحياء قراءة معاصرة للموروث الشيعى لتحدى الحكومات الظالمة والحكام الظالمين والتصدى لهم، وكما أوضحنا فى الفصل الأول أيضا، نقد على شريعتى، آنذاك، رجال الدين لعدم اهتمامهم بالوضع السياسى وعدم مشاركتهم فى الثورة. وعلى الفور، وجه كثير من رجال الدين النقد لشريعتى على أساس أن موقفهم لم يتغير، إذ إنه يجب انتظار عودة الإمام الثانى عشر الذين سيأتى بالعدالة للعالم. رد عليهم شريعتى بقوله إنه لا يجوز للجماعات الشيعية أن ترضى فقط بمجرد الانتظار السلبي حتى يعود الإمام الثانى عشر بل يجب أن يعملوا بجِد ونشاط كي يسرعوا عودته.

رأى شريعتى أن الدين يمكن أن يصبح دنيويا من خلال ثقافة النقد. من ثم، بإمكان الدين استيعاب جميع الأيديولوجيات بما فى هذا



الماركسية ورؤى فرويد وسارتر ولاهوت التحرير الأمريكي اللاتيني وما بعد الحداثة والليبرالية. استخدم تحليل الماركسية والاشتراكية الطبقي لكنه نقد الشيوعية السوفييتية وكذلك الليبرالية والوجودية. رأى شريعتى أنه يمكن تحقيق الحرية والمساواة بتحرير «الله وحبه من احتكار الدين، وتحرير الحرية من احتكار الرأسمالية والمساواة من احتكار الماركسية». وذهب إلى أن الاستعمار والإمبريالية هما عدوا الإسلام الرئيسيان، وأن الماركسية أيديولوجية منافسة له؛ وأن الشيوعية معنية بالدفاع عن الفقراء والمهمشين وتحقيق العدالة. طرح رؤية شعبية حداثة وقاتالية إسلامية كان لها تأثيرها على أفكار شرائع عريضة فى إيران والشرق الأوسط. عارض كثير من علماء الدين بمن فيهم عدد من الإسلاميين الحداثيين مثل آية الله مطهرى آراء شريعتى ووصفوها بأنها متطرفة. وعلى الرغم من النقد الكثير الذى وجّه إليه، ألقى شريعتى محاضرات كثيرة فى حسينية الإرشاد وهى مركز للخطاب الإسلامى الحداثى بطهران. ذهب إلى أن الإسلام هو أيديولوجيا، وثورة اجتماعية يهدف إلى تشكيل مجتمع حر لا طبقى على أساس المساواة والعدالة، يعيش فيه أناس مستنبطون مسئولون وأحرار. تحدث بلغة جديدة وجدت طريقها إلى عقول جمهوره الذى كان يتكون من آلاف البشر تمتلئ بهم حسينية الإرشاد. كانت رسالته التى اضطلع بها هى تحديث فهم الإسلام وكان يبغض المثابرة فى اتباع التقاليد والأعراف والمؤسسات العتيفة ويعتقد أن التغيير حتمى، وبهذا ولّد حركة اجتماعية أدت فى النهاية إلى ثورة ١٩٧٩.

رحّب العالم الشيعى بالثورة الإيرانية بفخر واعتزاز. غدت إيران نموذجا للجماعات الشيعية فى المنطقة للنضال من أجل حقوقهم. وفى أنحاء الشرق الأوسط حدثت تظاهرات شيعية وأعمال شغب وتصادمات

مع الأنظمة الحاكمة. مثلاً، تسببت الانتفاضات في البحرين والكويت في مشاعر القلق وبخاصة من جانب السلطات السعودية إذ إن عمال النفط بالمنطقة الشرقية شيعية في غالبيتهم، وشهدت تلك المنطقة أعمال شغب سياسية في عامي ١٩٧٩ - ١٩٨٠، قام السعوديون على إثرها بأعمال قمعية ضد الناشطين من عمال النفط المؤيدين لإيران. وكما سئرى لاحقاً، كانت نظرة كثير من المجموعات السنية في المنطقة تجاه إيران إيجابية وبخاصة فيما يتعلق بدورها في المنطقة والتحول الذي حدث في سياستها حيث اتخذت موقفاً مناصراً للفلسطينيين بعد أن كانت مؤيدة لإسرائيل وتحولت من صديق للحكومات الموالية للولايات المتحدة إلى داعمة للفقراء والمهمشين في المنطقة. أيضاً، نظرت مجموعات اليسار إلى الإسلام بمزيد من الاهتمام، حيث إن الإسلام بالنسبة لإيران هو أيديولوجيا مقاومة أزرت الفقراء والطبقات العاملة، ومن خلال الحشد الجماهيري نجحت في الإطاحة بأحد أعنى الأنظمة في المنطقة.

#### «المفكرون المتدينون الجدد، وتعدي حكم رجال الدين»

قبل ثورة ١٩٧٩، ارتبط مفهوم «المفكرين المتدينين الجدد» بأعمال على شريعتي وآية الله تالغاني. وبعد الثورة سار عدد من السياسيين ورجال الدين على النهج ذاته ووضعوا أسس الإصلاح. وبعد إقامة الجمهورية الإسلامية تحولت الحركة الشيعية الإيرانية إلى حكم شيعي ومنذ الأيام الأولى للجمهورية الإسلامية رأى آية الله العظمى مطهرى نظرية ولاية الفقيه رأياً أيديولوجياً لا ينبغي أن يؤدي إلى إشراك رجال الدين في السياسة والحكومة إذ إن دورهم إشرافي هدفه منع الممارسات التي تتعارض مع الشريعة. وكما أوردنا في الفصل الأول، بُعيد ثورة ١٩٧٩، أدت عوامل داخلية وخارجية إلى زيادة دور رجال الدين المحافظين ونفوذهم في الدولة والمؤسسات الأخرى. وبعد آية الله مطهرى، أصبح

آية الله منتظري على قمة من يتحدثون دستور إيران الشيوقراطي (الديني) وظل حتى وفاته ناقدا لدور رجال الدين الإشرافي وتصدى لتفعيل نظرية ولاية الفقيه، ونتيجة لانتقاده القيادات حل آية الله الخامني محله خليفة مختارا لآية الله الخميني، وفرضت على منتظري الإقامة الجبرية في عام ١٩٩٧.

ثمة مستويات عدة للنقد الذي يوجه لنظرية ولاية الفقيه. يرى البعض أن النظرية كانت وليدة وقتها حيث كان ينبغي على رجال الدين، في الفترة الثورية في نهاية السبعينيات، المشاركة في الحياة السياسية لضمان نجاح الثورة، لكن الآن، فإن ثمة حاجة للفصل بين الدين والسياسة. ويذهب آخرون إلى أن بعض التأويلات لنظرية ولاية الفقيه أوجدت رد فعل سلبي في المجتمع بإمكانه أن يؤدي إلى تراجع مستوى التمسك بالدين. على حين يتخذ البعض موقفا ضد ولاية الفقيه من منطلق علماني، بل إن ثمة من يرون وجوب عدم اشتغال رجال الدين بالسياسة إطلاقا وأنه ينبغي عليهم فقط الحفاظ على الدين، وبعمامة، فقد دفعت تلك الانتقادات الصريحة بإيران في اتجاه نحو العلمانية.

في عام ١٩٩٣، استخدم خاتمي أيضا مصطلح «المفكرين المتدينين الجدد» ورأى أن ثمة حاجة إلى شكل جديد من التوجهات الثقافية من أجل الإعلاء من شأن الدين وحقوق الإنسان. ذهب إلى أن الغرب لا يمثل فقط الاستعمار والإمبريالية لكنه أيضا أنبت أفكار ماركس وهيكل وجوته، ويمثل الحداثة والحرية والديموقراطية. كما رأى المفكر الإسلامي عبد الكريم سوروش أن بإمكان هذا الشكل من التوجه الثقافي التعلم من الغرب دون أن يكون عبدا له.

ومن هذه المنطلقات تعاون كثير من «المفكرين المتدينين الجدد» من رجال دين وصحفيين ومثقفين مع إدارة خاتمي، فيما اتخذ آخرون موقفا

أكثر نقداً من التوجهات الدينية المحافظة، وهكذا، استُخدم مصطلح «المفكرين المتدينين الجدد» في إيران لوصف الإسلاميين الذين يرون أن ثمة اتساقاً متبادلاً بين الحداثة والإسلام حيث إنه بالإمكان تأويل المفاهيم الإسلامية وإعادة تأويلها بما يتوافق مع الزمان والمكان. يعتقد هذا التوجه بعض الليبراليين، والنيوليبراليين، وبعض اليساريين الذين يؤمنون بالديموقراطية الاجتماعية، يكمن في عمق تحليلهم الرأي القائل إن القادة السياسيين المحافظين يعملون على تقوية الدين الشعبي من أجل حشد الجماهير لتحقيق مصالحهم الخاصة. نجح هذا الإسلام الشعبي أثناء فترة الثورة، ثم بعد ذلك في تعبئة الجماهير إبان الحرب مع العراق. يُستخدم القياس بين الإسلام المبكر والمذهب الشيعي آلية قوية بخاصة في تعبئة الناس. بالنسبة لهؤلاء «المفكرين المتدينين الجدد» فقد ضعفت فكرة الدين الشعبي إذ إن القضايا الدينية الأيديولوجية لا تحل مظالم جماهير الناس التي تتمحور حول قضايا مادية. كان إسلام الثمانينيات تطفئ عليه الأيديولوجيا أما الآن، فقد تغيرت مدركات الناس وهوياتهم. أثار وعد توفير التعليم والرعاية الصحية والعمل للفقراء والمهمشين في الثمانينيات والتسعينيات، توقعات الناس وآمالهم، لكن فشل حكومة خاتمي الإصلاحية وحكومة أحمددي/ نجاد المحافظة في الوفاء بتوقعات الشباب والمتعلمين زاد من زخم المطالبة بمستويات مقبولة من التعليم والعمل والرفاه الاجتماعي والديموقراطية.

نتيجة لذلك، ينقد كثير من «المفكرين المتدينين الجدد» دور رجال الدين الذين يمارسون السلطة من خلال الدولة وغيرها من المؤسسات، حتى أن بعض رجال الدين الذين يتبنون تلك التوجهات الجديدة سُجنوا نتيجة لآرائهم. في عام ١٩٩٨، اعتُقل محسن كاديقار لمقارنته الخطاب الشيعي بالطغيان والحكم المستبد. ذهب إلى أن:

«سجل الثورة ليس بالمجيد إذا نظر إليه من منطلق مطالب الشعب، والشعار الذى أصبح موتيفة الثورة أى: الاستقلال، الحرية، الثورة الإسلامية.. القضاء على القمع الملكى وإقامة العدالة، الإيجابية الوحيدة فى صحيفة ما حققته الثورة هو الشعار الأول إذ إن إيران اليوم تتمتع باستقلال نسبي عن القوى الأجنبية. لكن الثورة لم تتجع سوى فى تغيير وجه الحكم الملكى فى إيران؛ ظل الحكم المستبد والعلاقات الملكية سليمة لم تمس، وأعيد إنتاجها فى شكل الفقيه الوالى المستبد. فالشعب لا يستطيع اختيار الوالى الفقيه مباشرة، وأيضا ليس ثمة تحكم فى أسلوبه أو حكمه، ولا يستطيع فصله من منصبه إذا عمل ضد إرادة الشعب، ومثل الملك المستبد، يظل الوالى الفقيه فى منصبه طوال حياته، وهو فوق القانون. كما أن الثورة أثبتت الإيرانيين من حيث الحرية إذ إن إحدى متطلباتها السابقة هى حرية المعارضة، أى الدرجة التى يستطيع بها من يعارضون الحكومة، وأساليب حكاهم أن ينشطوا فى المجتمع ويعبروا عن آرائهم».

أيضا، ألقى القبض على رجل دين آخر، هو يوسف إيشكقارى فى عام ٢٠٠٠ بعد عودته من مؤتمر برلين ناقش فيه الإسلام والديموقراطية اعترف فى خطابه الذى ألقاه هناك بأنه حتى إذ هُزم خاتمى فى عمله فقد أصبحت الديموقراطية الأولوية الأولى كما أنه ثمة إجماع غير مسبوق بين المثقفين والنخب السياسية، على أن الاستبداد التاريخى قد انتهى فى إيران وبالمثل، فإن ثمة رجال دين منشقين وصحفيين، وأكاديميين من أمثال محمد شابستارى وعبدالكريم سوروش وسيد هاجريان وحبيب الله پيمان، وما شاء الله شمس الواعظين ماضين فى تحدى الدولة وغيرها من المؤسسات ومناقشة الحد الذى يمكن به فصل النظرية الدينية والجماعة الدينية عن مجريات السياسة وسلطة الدولة.

هدفهم هو تقدم الديمقراطية خطوة خطوة، والتعلم أثناء تلك العملية ومن خلالها. يرى هؤلاء «المفكرون المتدينون الجدد» أن من الممكن تحقيق حكم إسلامي عادل يماثل النظام الذي ساد في الأيام الأولى للإسلام حينما أضفيت أهمية خاصة على العدالة وحقوق الإنسان.

يركز هؤلاء المفكرون، بصفاتهم مثقفين إسلاميين شيعة، على النظام الذي اتبعه عليّ في الحكم في أيام الإسلام الأولى. ذهب حبيب الله پيمان في حوار معي إلى أن:

«علياً اعترف بحقوق الجميع، حتى هؤلاء الذين اختلف معهم، وحتى غير المؤمنين، تقبل التنوع واعترف بحقوقهم. إن جوهر الديمقراطية هو الاعتراف بأن المجتمعات مؤلفة من مجموعات وأديان متنوعة. للأفراد والمجموعات حقوق يجب أن يعترف بها الأفراد الآخرون والحكومات. وفي ظل مثل هذه الديمقراطية ينبغي أن يكون الجميع متساوين أمام القانون. ينبغي أن يكون للناس الحق في المشاركة في صنع القرارات، وكما نص القرآن، فإن الإمامة تقتضي العدالة، أي أن على القادة أن يكونوا عادلين كي يقيموا العدالة. لابد أن يقوم الحكم على أساس ديمقراطية الشورى».

أيضاً، تحدى الفيلسوف والفقيه النافذ محمد مجتهد شابستانى الأرثوذكسية الحاكمة، إذ إنه يؤمن بالعلاقة الجدلية بين العقيدة والمعرفة ويقترح انفتاح الفقه الإسلامى على الفلسفة المعاصرة. أما بخصوص الفردانية والديموقراطية وحقوق الإنسان، فيرى فصل القيم الدينية عن الوقائع الدنيوية لأنه يؤمن بأن المبادئ الدينية المطلقة لا يمكن تطبيقها بحذافيرها.

أما آية الله صانعى، داعم إصلاح قوانين الأحوال الشخصية لصالح النساء، فيرى أن القوانين والأحكام الشرعية يجب تأويلها بما يتفق مع

الزمان والمكان. كان لدعمه أهمية في أنشطة النساء ونضالهن من أجل إصلاح القوانين والأحكام التمييزية. كانت المنظمات غير الحكومية لنساء الأقليات ومعها المنظمات النسائية غير الحكومية الأخرى قد قامت بحملة طوال التسعينيات لإصلاح قانون الدية. وفقا للبند رقم ٨٨١ من القانون المدني، والبندين رقم ١٠ و ٥٩، لا يدفع المسلم/ المسلمة، في حالة القتل الخطأ لشخص ينتمى إلى أقلية دينية لأسرته، سوى  $\frac{1}{3}$  من الدية التي يدفعها في حالة ما إن كان القتيل/ القتيلة مسلما/ مسلمة، أيضا، فإن مبلغ الدية التي تدفع عن الأنثى نصف ما يُدفع عن الرجل. في عام ٢٠٠٢، نجحت المنظمات غير الحكومية للأقليات الدينية (الزرادشت، واليهود والأرمن) في إصلاح هذا القانون وتغييره لصالح الأقليات. وفي أعقاب هذا الانتصار، بدأت المنظمات غير الحكومية النسائية والمحاميات وعضوات المجلس في الضغط من أجل قيمة متساوية للدية في حالة القتل الرجال والنساء. مثل هذا تحديا كبيرا من جانب النساء من جميع الهويات الإثنية والدينية للقوانين الشرعية الإسلامية في إيران. وفي عام ٢٠٠٨، ونتيجة لحملات النساء، تمت الموافقة، وعلى أسس صحية في أن تكون قيمة الدية عن النساء والرجال متساوية. في هذا الصدد، قالت لى مرضية مرتضى:

«في البداية قلنا إنه إن أصيب الرجال والنساء بأمراض لها علاقة بالدم، فينبغي أن تكون الدية متساوية وبدعم عدد من آيات الله، تمت الموافقة على ذلك. ثم مضينا نضغط على السلطات لتعمم ذلك على قتل الحوادث. قد يرفض «مجلس الأوصياء» هذه المساواة لأن رجال الدين المحافظين قد يفسرون هذا الإصلاح على أنه يناقض أحكام الشريعة. وإذا حدث ذلك سنحيل مطلبنا إلى «مجلس الضرورات» بحجة أنه ينبغي

القبول به لأنه يتفق مع احتياجات المجتمع الحالية وكلنا ثقة أنه سيتم قبوله».

وفقا لفريدة ماشيني، إحدى ناشطات حقوق النساء، فإن «ثمة ٢,٥ مليون أسرة تعولها نساء. علينا تغيير الأحكام لتتوافق مع احتياجات العصر. وفقا للإسلام، يمكن للدين أن يكون جزءا من السياسة بموافقة الشعب فقط». نأتى بحجة مقنعة بأن نتحدى القادة المحافظين الذين غيروا القوانين والأحكام التي يعمل وفقها النظام المصرفي الإسلامي لكي يجعلوا الاقتصاد الإيراني متسقا مع النظام الكوكبي، وفي نفس الوقت يرفضون تغيير قوانين الأسرة لصالح النساء. وفي هذا الصدد تذهب إلى أنه:

«ثمة أناس في إيران يرون المساواة بين النوعين على أنها أيديولوجيا غربية بخيلة ستضعف الإسلام. تعمل شيطنة الغرب لإيران على تقوية موقفهم. وبالمقابل، فثمة من يرون أن جذور قهر النساء مصدرها الإسلام. واليوم، فلدينا حركة بين هذين الرأيين اللذين تفصل بينهما مسافة شاسعة. إن خطاب التفكير الديني الجديد كحركة جديدة يؤكد على أهمية الإسلام في إيران. نعتقد أن أحكام الشريعة تاريخيا قد فسرها رجال لخدمة مصالح مجتمع يهيمن عليه الذكور، وأبقوا على قمع المرأة مؤيدا باسم الدين. نحن نتحدى القراءة الذكورية للإسلام. تعمل مشاركة النساء المتنامية في المجال العام للحياة على تحدى المواقف البطريركية. تريد النساء تأويلا مختلفا للدين وفقا لمقتضيات عالم اليوم، وهذا هو الأسلوب الوحيد للحفاظ على الدين».

يعتقد «المفكرون المتدينون الجدد» أن الدين لا يمكنه أن يقمع إرادة الشعب، الأخرى، فإن دوره في السياسة لابد أن يستمد شرعيته من



التأييد الشعبى. يتحدثون القيادات حينما تبتعد عن مصالح عامة الناس، وكما ذكرنا فى الفصل الثانى، يخلق القمع السياسى، والتحكم فى الإعلام، والقيود التى تفرضها الدولة على عمل الصحافة الحرة، وعلى حرية التجمع والكلام، تخلق العقبات فى طريق نشطاء الديموقراطية الذين يعملون على تطوير روابط دينامية تفاعلية مع عامة الناس. لقد كان للضغوط الداخلية والخارجية أثرها السلبى على حركة الديموقراطية ونجم عنها وجود فجوات بين النخبة وجماهير القاعدة. وعلى الرغم من ذلك، فإن «المفكرين المتدينين الجدد» عميقو التجذر فى مجتمعهم لأنهم يعملون داخل الأطر والتقاليد الإسلامية. ومن ثم، لابد أن ينجحوا يوماً فى اكتساب الدعم الشعبى.

فى أعقاب انتخابات الرئاسة و«الانتفاضة» فى صيف ٢٠٠٩، أعلن آية الله العظمى منتظري تأييده لحركة الديموقراطية ودعا الناس إلى مواصلة احتجاجهم. رأى أن:

«رجال الدين الشيعة وقفوا إلى جانب الشعب، واليوم فإن ثمة انقساماً. يتمسك أحد الأطراف بالسلطة بأية وسيلة كانت، ويستمر الطرف الآخر فى الوقوف إلى جانب الشعب ويضفى أهمية على حقوق الشعب أكبر مما يضفيه على حقوق النظام. من ثم، فإن رجال الدين الشيعة يواجهون خياراً تاريخياً: إما أن يصبحوا أداة أيديولوجية لنظام استبدادى أو يقفوا إلى جانب الشعب ويعربوا إلى ثقافة الاحتجاج الشيعة».

حذر سلطات الدولة بقوله إنه إذا لم يستطع الناس رفع أصواتهم بشأن حقوقهم المشروعة، وإذا تم قمع تظاهراتهم، ستتطور تعقيدات بإمكانها أن تؤدى إلى اقتلاع الحكومة. وكما ذهب باجر موين «إن

معارضة (منتظري) السياسية للظلم مثلت فعل تحدٍ مهما حاول تغيير أساس الفقه الشيعي من حماية حق المؤمنين إلى حماية حق المواطن». كان هو رجل الدين الوحيد الذي أصدر فتوى يدعو فيها إلى احترام حقوق البهائيين. وفي هذا الصدد، فقد «وسع حدود الفقه الشيعي ليشمل مجال حقوق الإنسان». يرى محسن كاديغار أن للمواطنين الحق في الاحتجاج وفقا للدستور:

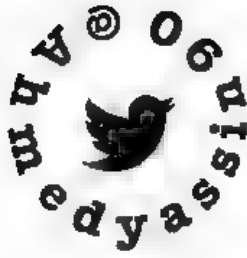
«إن احتجاجنا سلمى ونحن نولة إسلامية حقة تحترم حقوق الإنسان وحقوق النساء، وتسمح للناس بأن ينتخبوا قاداتهم الدينيين والنيويين بحرية. وفي مثل هذا المجتمع، ليس للقادة الدينيين الحق في تقرير كيفية قيادة الدولة بالتعارض مع غالبية الشعب. وعلى المدى الطويل، ليس بوسع النظام أن يقف في مواجهة ملايين المتظاهرين السلميين، إلا إذا تخير ارتكاب المذابح، وإن فعل ذلك، فسيفقد شرعيته تماما».

يوضح تحليل للديناميات السياسية الداخلية في إيران، كدولة ظلت دينية/ سياسية منذ ثورة ١٩٧٩، يوضح أن التناقضات المتعضونة في الدولة الإسلامية في سبيلها لتغيير حدود الإسلام المحافظ، بحيث تؤدي إلى ظهور حركة ديمقراطية مهمة. وكما سنوضح في الفصول التالية، تتمتع إيران بشعبية لدى غالبية اللبنانيين والفلسطينيين والمصريين لأنها البلد الوحيد في المنطقة الذي يعارض الصهيونية والإمبريالية ويتصدى لهما.

بيد أن دعم الشعوب في أنحاء الشرق الأوسط لحركة الديمقراطية في إيران محدود وغير يقيني وذلك لدعم السياسيين والإعلام في الغرب لها. يرى كثيرون أن سياسة إيران القمعية الداخلية تتعارض مع سياساتها الإقليمية المعادية للصهيونية والإمبريالية. لقد اعتنقوا فكرة

الإسلام الديموقراطى ويرون أنه ينبغى للإسلام كأيدولوجيا مقاومة القمع والهيمنة ، لسياسية السلطوية. وفى هذا السياق، يمكن القول إن موقف رجال الدين الإصلاحيين فى إيران - الذى يناظر موقف أية الله فضل الله فى لبنان، وآية الله السيستانى فى العراق سيسهم فى تشكيل مستقبل الديموقراطية فى الشرق الأوسط.





## علاقة إيران بـلبنان وحزب الله

تعود العلاقة الإيرانية اللبنانية إلى الأزمنة القديمة حينما حكمت إمبراطورية الأخمينيين الفارسية شاطئاً فينيقياً بين عامي ٥٢٩ ق م إلى ٣٣٢ ق م (١). وحينما قهر الإسكندر الأكبر الإمبراطورية الفارسية أصبحت لبنان جزءاً من المملكة السلوقية الهلنستية (٢)، وفي القرن الأول قبل الميلاد أصبحت لبنان جزءاً من إقليم سوريا الروماني. وفي عام ٦١٤ ميلادي، استولى الحكام الساسانيون على القدس. وفي القرن السابع الميلادي، فتح العرب لبنان وغدت تحت سيطرة المسلمين. كانت الجماعات الشيعية الإثنا عشرية قد سكنت منطقة جبل عامل جنوبي لبنان وسهل البقاع منذ القرن التاسع الميلادي، وأثناء فترة حكم الصليبيين في سوريا، ظهر الدروز المسلمون في أجزاء شتى من سوريا بما فيها جبل لبنان في الجنوب، زادت العلاقة التاريخية بين إيران والجماعات اللبنانية بدرجة لافتة في القرن السادس عشر حينما دعا الصفويون علماء الشيعة اللبنانيين إلى تعميق جذور المذهب الشيعي في إيران.

(١) الأخمينيون سلالة فارسية أسسها قورش (القرن ٧ ق. م)، أشهر ملوكها قورش الكبير وقمبيز، وداريوس وأحشويرش. امتدت إمبراطوريتهم إلى بلاد اليونان وفينيقيا ومصر. انقرضت بموت داريوس ٣ بعد أن قهره الإسكندر ٣٣٠ ق. م. تشهد على حضارتهم الرفيعة آثار پرسبوليس وشوش (الترجمة عن : معجم المُنجد في الأعلام).

(٢) أسسها سلوقس الأول من قواد الإسكندر ملك ٣١٢ - ٢٨١ ق. م. امتدت من الهندوس إلى المتوسط

طوال ذلك التاريخ المعقد حدثت الصراعات، والتناغمات والتحالفات بين الجماعات المختلفة بشكل خاص. انتشرت التحالفات العائلية على أساس الدين، وكما يرى أسامة مقدسى، فالطائفية كـ «معرفة حديثة» هي من صنع الهيمنة الاستعمارية الأوروبية من خلال الإمبراطورية العثمانية. مثلاً، اعترف الموارنة والدروز بالقوى الأوروبية حماة لطوائفهم بدلاً من حكام لبنان المحليين. عمّق هذا عملية الهوية الطائفية السياسية.

قامت دولة لبنان الحالية عام ١٩٢٠ حينما استغل الفرنسيون عصبة الأمم واقتطعوا جزءاً من سوريا ليقوموا «لبنان الكبير» وُجدت الحدود الحالية لدولة لبنان القومية وفقاً لقرار عصبة الأمم هذا، وشملت منطقة جبل لبنان العثمانية ذات الغالبية المسيحية (الموطن الأصلي للموارنة)

ومعها المناطق المجاورة بما في هذا سهل البقاع والجنوب،  
فيما بين عامي ١٩٢٠ و١٩٧٥، هيمن الموارنة على الدولة اللبنانية  
وسياستها، وحدّثوا هوية لبنان وفقاً لمصالحهم الثقافية والطبقية. شاركت  
النخب السنّية أيضاً في الشئون السياسية. ووضع تشكيل «الميثاق  
الوطني» الأسس لنظام سياسي طائفي ضَمَنَ تمثيلاً منخفضاً للشيعة.  
قُسِّمَ مجلس الوزراء بالتساوي بين الأعضاء الموارنة والسنة، وخُصِّصَ  
للشيعة ١٠ من مقاعد البرلمان البالغ عددها ٥٥ مقعداً.  
حصلت لبنان على استقلالها عام ١٩٤٣، ومنذ آنذاك ظلّ رئيس  
الجمهورية مارونياً، ورئيس الوزراء سنّياً، أما منصب رئيس البرلمان الذي  
لا يكاد يكون له سلطة، فكان من نصيب الشيعة، هذا على الرغم من أن

الطائفة الشيعية تمثل نسبة أكبر من السكان. (كما سنرى، غير ظهور حزب الله كحزب سياسى موازين القوة هذه). أفاد الموارنة، والسنة الحصريون من هذه البنية الاجتماعية السياسية، فيما ظل سكان الجنوب، وغالبيتهم من الشيعة، بدون مستشفيات أو مدارس أو أنظمة للرئ. لكن فى عام ١٩٥٨، فى عهد الرئيس شهاب، بُنيت بعض الطرق والمدارس فى الجنوب وتم إدخال المحاصيل التى تُغَلّ النقود لزراعتها فى المناطق الريفية. أيضا وفرت الهيئات العسكرية والمدنية بعض الوظائف للشيعة. شجع هذا هجرتهم إلى جنوب بيروت، بيد أن الفقر والبطالة ظلّا السمة الغالبة وعُرفت هذه الضاحية باسم «حزام البؤس» حينما كان أفراد الطائفة الشيعية والمجموعات الفلسطينية (غالبيتهم من السنة) يعملون أجراء باليومية، ويعيشون فى فقر مدقع مستبعدين تماما عن بقية المجتمع. أما الإقطاعيون الشيعة فكانوا يدعمون أفراد طائفتهم شفاهايا فقط لكنهم كانوا يحمون مصالحهم المادية ومصالح طبقتهم، وهاجروا إلى أوروبا والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية وغرب إفريقيا وإلى دول أخرى. شكل غالبية الشيعة «طبقة طائفية». إذ كانوا أكثر الفقراء فقرا. عاظم الاحتلال الإسرائيلى لجنوب لبنان من الوضع التعليمى والوظيفى والاقتصادى المتردى للمجموعات الشيعية، وشكّل سكان الأحياء القذرة فى الضاحية الجنوبية «حزام البؤس» أكثر القطاعات حرمانا فى المجتمع اللبنانى. كان كثير من الشيعة قبل ذلك، فى الخمسينيات والستينيات قد أصبحوا أعضاء فى الأحزاب الناصرية مثل حزب البعث، والحزب السوري الاجتماعى القومى، والحزب الشيوعى اللبنانى، وغيرها من الأحزاب القومية العربية واليسارية، وفيما كانوا يعيشون فى فقر ويعانون التهميش الاجتماعى السياسى، تم تسييسهم وردّكتهم بتأثير

من دعوات القومية العربية والأيدولوجيات والتنظيمات الاشتراكية والشيوعية. بعد «سبتمبر الأسود» عام ١٩٧٠، حينما سحق الملك حسين منظمة التحرير الفلسطينية في الأردن، هرب كثير من الفلسطينيين إلى لبنان، وانتقل كثير منهم، بعد حرب عام ١٩٧٢ إلى الجنوب اللبناني، أدى عدم التنظيم المفرط بين مقاتلي منظمة التحرير في الأحياء الشيعية إلى اقتطاع الأراضي والمزارع من الشيعة لإقامة مخيمات للاجئين الفلسطينيين مما أدى إلى حدوث توترات بين الفلسطينيين والشيعة. بيد أن الشيعة، مثل آخرين من الشعب اللبناني، انضموا إلى منظمة التحرير والجهة الشعبية لتحرير فلسطين للتصدي لاجتياحات إسرائيل للبنان التي دعمها الغرب. أيضا كان تعاون الشيعة مع تلك المنظمات إشارة إلى معارضتهم لفساد رجال الدين الشيعة وتخلفهم والذين كانوا يساندون الطبقة الإقطاعية الشيعية.

منذ عام ١٩٤٨، قامت عدة منظمات خيرية شيعية في لبنان. وفي عام ١٩٥٩ ذهب السيد الإمام موسى الصدر رجل الدين الإيراني الذي كان له روابط عائلية لبنانية، إلى لبنان ليحل محل زعيم ديني شيعي بمدينة صور في جنوب لبنان. أقام بمساعدة عدد من المجموعات الدينية في إيران، عدة مؤسسات خيرية في الجنوب اللبناني لمساعدة المجموعات الشيعية. قدّم لهم أيديولوجيا بديلة عن أيديولوجيا الأحزاب اليسارية والقومية وحاول بناء هوية إسلامية جمعية قابلة للحياة. استخدم مراسم عاشوراء لإقامة التكافل وتطوير الوعي السياسي. في عام ١٩٦٣، ترسخت مكانة الصدر في بيروت وصور، وفي عام ١٩٧٨ أنشأ محمد حسين فضل الله جمعية المبرة الخيرية التي توسعت فيما بعد لتضم مستشفيات ومدارس، ودوراً للأيتام ومراكز ثقافية وكان التمويل يأتيها



من أثرياء الشيعة في المنطقة وفي غرب إفريقيا من أموال الخمس والزكاة، ومن مناسبات جمع الاكتتابات والتبرعات - التي مازال يجمع فيها ملايين الدولارات كل عام.

في عام ١٩٦٩، تعاون الصدر وفضل الله لإنشاء المجلس الشيعي الأعلى، وفي عام ١٩٧٤ قادا إضرابا عاما وطالبا بمساعدة المقتلعين من الجنوب اللبناني نتيجة للهجمات الإسرائيلية. أنشأ عام ١٩٧٤ حركة المحرومين وطالبا بإصلاح النظام اللبناني. حينما اندلعت الحرب الأهلية اللبنانية في عام ١٩٧٥، انبثق عن الحركة جناح عسكري هو حركة أمل للمقاومة وأنشئت معسكرات تدريب فيها نشطاء شيعة في العراق وإيران والسعودية وغيرها.

في عام ١٩٧٥، أنزل بالشيعة أكبر عدد من الضحايا والمصابين على أيدي الميليشيات المارونية. وفي عام ١٩٧٦ اقتلَعَ ١٠٠٠٠٠ شيعي وأعيد توطينهم في الجنوب حيث الكثافة السكانية المفرطة - الأمر الذي أدى إلى انتشار الراديكالية بينهم. في عام ١٩٧٨ اجتاحت إسرائيل لبنان وقُتل وهُجّر مئات الآلاف من السكان. أدت هذه الحرب، ومعها الحرب الأهلية إلى إضعاف قدرة اليسار والقوميين على الدفاع عن حقوق الفقراء في تلك المنطقة.

وفي ظل تلك الأوضاع، توسعت أنشطة حركة أمل، وظهر الدين كعامل تعبئة بين الشيعة اللبنانيين. نظر الإسلاميون، وبخاصة الشيعة اللبنانيون، إلى ثورة ١٩٧٩ الإيرانية بصفتها رواية مضادة قوية للحادثة الغربية.

قبل ثورة ١٩٧٩، كانت الجماعات الشيعية في الشرق الأوسط تربطهم نزعات قوية برجال الدين في إيران. تحولت بعد الثورة علاقات هذه

المجموعات إلى علاقات مع الدولة في إيران، من ثم كانت الثورة مناسبة مهمة للشيعة في أنحاء العالم، وبخاصة للشيعة في لبنان. وكما توضح الأكاديمية متى حرب:

«إيران مهمة للشيعة لأن ثورتها جعلتهم مهمين في التاريخ. لا يتعلق الأمر كله بالعلاقة الدينية بل بالعلاقة السياسية. مع إضفاء الصبغة المؤسسية على الحركة الشيعية الإسلامية اللبنانية في الثمانينيات، ضعت كتب التاريخ قصص أبطال شيعيين وأبطال جبل عامل، لم نكن نتحدث عنهم مطلقاً قبل ذلك لأن الشيعة كانوا قطاعاً اجتماعياً مهمشاً ومقموعاً».

نظرت المجموعات الشيعية في جميع أنحاء العالم الإسلامي إلى الثورة الإيرانية على أنها ثورة كل المسلمين ورأها كثير من السنة في الشرق الأوسط هي ونتائجها على أنها ظاهرة إيجابية.

**ظهور حزب الله:**

كان ظهور حزب الله نتيجة مباشرة لاجتياح إسرائيل للبنان عامي ١٩٧٨ و١٩٨٢ ومساندة الغرب لذلك الاجتياح. كان الاجتياحان وحشيّين ومدمرين إلى أقصى درجة، وغير مشروعين وفقاً للجمعية العامة للأمم المتحدة. كان اجتياح عام ١٩٨٢ أعظم هولاً وفداحة بكثير من اجتياح عام ١٩٧٨، قامت أثناءه إسرائيل، بمنهجية ودونما تمييز، بقصف البلدات والمدن والقرى والمدارس والمستشفيات ووضعت بيروت تحت الحصار لمدة ثلاثة أشهر. كما كانت مسئولة مباشرة عن مذابح صابرا وشاتيلا. وإضافة إلى العدد الهائل من القتلى والمصابين، انتقل عدد كبير من اللاجئين مرة أخرى إلى «حزام البؤس».

أدت الاجتياحات إلى تشظية الحركات الشيعية والفلسطينية

المعارضة لسياسات الولايات المتحدة وإسرائيل، أضعف غياب أيديولوجيات منطقية مقررة داخليا، وغياب التنظيم العسكري والسياسي المطلوب من أجل كسب دعم القواعد الجماهيرية، أضعف منظمة التحرير واليسار العلماني والقوميين. هذا علاوة على أن التدخلات العسكرية والسياسية الإسرائيلية التي دعمها الغرب (أثناء حصار بيروت، ذهبت نصف موازنة المساعدات الخارجية للولايات المتحدة كاملة إلى إسرائيل) كانت لها دور كبير في إضعاف تلك التنظيمات. أدى اجتياح عام ١٩٨٢ إلى تدمير منظمة التحرير الفلسطينية، التي أُجبرت فيما بعد في عام ١٩٨٨ على الاعتراف بدولة إسرائيل. حينما غادرت منظمة التحرير لبنان عام ١٩٨٢ إلى منفاهما في تونس، ازداد وضع اللاجئين سوءا لأن المنظمة كانت توفر لهم التعليم والعمل والرعاية الصحية.

في يونيو ١٩٨٢، انضم قائد أمل، نبيه برى، إلى لجنة الإنقاذ الوطني التي شكلها إلياس سركيس رئيس جمهورية لبنان. كان هدف اللجنة التي كانت تضم أيضا بشير الجميل، هو أن تحل ميلشيا القوات اللبنانية المارونية الموالية لإسرائيل ومعها الجيش اللبناني محل منظمة التحرير في غرب بيروت. تعاون برى مع المؤسسة المارونية وتصدى لمنظمة التحرير في جنوب لبنان. لم يتقبل غالبية اللبنانيين والفلسطينيين هذا الموقف منه. انشق عدد من مسئولى حركة أمل وكونوا حزب الله.

في سبتمبر ١٩٨٢، قُتل بشير الجميل، رئيس حزب الكتائب ورئيس الجمهورية المنتخب في حادث تفجير. انتقم الكتائبيون المسيحيون لموته بمذابح صابرا وشاتيلا. وبإشراف من الجيش الإسرائيلي ومن وزير الدفاع آرييل شارون، هجمت ميلشيات الكتائب اللبنانية على معسكرى صابرا وشاتيلا، واغتصبوا، وشوهوا، وقتلوا آلاف اللاجئين الفلسطينيين

المدنيين. لم يكن ضحايا صابرا وشاتيلا هم الفلسطينيين فقط، بل أيضا اللاجئين الشيعة الذين شكلوا ربع عدد القتلى.

وبعد ذلك، ومن عام ١٩٨٥ إلى عام ١٩٨٨، هاجمت حركة أمل معسكر الرشيدية في الجنوب وحاصرتة، ومع صابرا وشاتيلا في برج البراجنة حيث كان السكان قد تعرضوا للمذابح على يد الإسرائيليين والكتائبيين كما ذكرنا من قبل. أدى هذا إلى زواء حركة أمل وتزايد شعبية حزب الله الذي كان قد أثبت التزامه بدعم الفلسطينيين وليس فقط بتمكين الشيعة في لبنان.

أدى نضال حزب الله المستدام ضد إسرائيل فيما بين عامي ١٩٨٢، و١٩٨٥ إلى انسحاب إسرائيل من بيروت. مهد هذا الطريق لمقاتلي حزب الله، الذي ساعدته إيران، أن يصبحوا أبطالاً في أنحاء المنطقة منذ الثمانينيات وحتى الآن. لقيت استراتيجيته ونضاله ضد إسرائيل شعبية من مناصري حماس في الأراضي الفلسطينية، في عام ١٩٨٤ وقعت تصادمات بين أمل وحزب الله وأعلن حزب الله نفسه حركة مقاومة إسلامية. في عام ١٩٨٧، وقعت تصادمات بين مقاتلي حزب الله والقوات السورية في بيروت الغربية حينما رفضوا تسليم قواعدهم للقوات السورية. في عام ١٩٨٨، وأثناء القتال على السيادة في الجنوب بين أمل (مدعومة من سوريا) وحزب الله طردت سوريا حزب الله من الجنوب، وفي وقت متأخر من ذلك العام أعاد حزب الله شن هجومه على أمل، لكن إيران تدخلت، وأنهت القتال بين القوتين الشيعيتين وسلم حزب الله موقعه للقوات السورية التي سمحت له بمواصلة عملياته العسكرية ضد إسرائيل من الجنوب. أوضح هذا سلطة سوريا في لبنان هذا على الرغم من أن حزب الله هيمن على المقاومة في الجنوب. أجبر هذا أيضا حزب

الله وسوريا على التوصل إلى تفاهم سُمح بمقتضاه أن يُبقى حزب الله على سلاحه في الجنوب فقط وذلك لمواصلة مقاومته ضد إسرائيل الأمر الذي رأت فيه سوريا مصلحة لها. اعترف اتفاق الطائف بعلاقة سوريا المهيمنة مع لبنان، ورأت إيران أيضا في وضع سوريا المسيطر في لبنان مصلحة لها. بين عامي ١٩٨٥ و ١٩٨٨، شنت حركة أمل حربا ضارية ضد اللاجئين الفلسطينيين، وفي عام ١٩٨٨ و ١٩٨٩ تصادم حزب الله وأمل مرة أخرى من أجل التحكم السياسي في الجنوب. قوضت هذه الصراعات حضور أمل السياسي في الضواحي الشيعية المزدهمة، وفي النهاية، انتهت الصدامات بين / الشيعة من خلال اتفاق بين سوريا وإيران في عام ١٩٨٩.

أوضح تعاون حزب الله مع دولة سوريا العلمانية موقفهما المشترك ضد إسرائيل وأيضا براجماتية حزب الله علاوة على ذلك، لم تمنع علمانية منظمة التحرير حزب الله من إدانة «حرب أمل ضد معسكرات اللاجئين» ولا من تدخله إلى جانب اللاجئين الفلسطينيين السنة. أيضا، تعاطف حزب الله وأيد أنشطة اليسار الدولي، والمجموعات الماركسية العلمانية، وأعجب بحفاظ كاسترو على استقلال كوبا في مواجهة الولايات المتحدة. كما دعم حزب الله نلسون مانديلا وأنشطته ضد نظام الأبارتايد في جنوب إفريقيا، ويدعم حاليا كفاح حماس والإخوان المسلمين (السنة) في فلسطين ومصر والأردن. تسببت هذه السياسة في شعبية حزب الله في الشرق الأوسط، وله أنصاره في سوريا وفلسطين والأردن والعراق، ووفقا للإحصائيات تعتبر قنواته الفضائية «المنار» أكثر القنوات الفضائية العربية شعبية بعد «الجزيرة».

**اشتراك حزب الله في الانتخابات والحياة السياسية:**

تلقى الولايات المتحدة وإسرائيل على حزب الله مسئولية تفجير سفارة

الولايات المتحدة وثكنات المارينز ومقر القوات الفرنسية الرئيسى فى بيروت عام ١٩٨٢. وكذلك اختطاف طائرة TWA إلى بيروت والهجمات ضد أهداف إسرائيلية فى الأرجنتين، لكن حزب الله ينكر أى رباط له مع منظمة الجهاد الإسلامى المسئولة عن تفجيرات الثمانينيات فى بيروت والتى نجم عنها مقتل عدة مئات، ويزعم أنه تدخل فقط لدى المنظمة للإفراج عن رهائن كانت تحتفظ بهم(١).

منذ التسعينيات عمل حزب الله باتساق ومنهجية على كسب تأييد مختلف الطوائف اللبنانية من خلال مشاركته فى الانتخابات واندماجه فى النظام السياسى اللبنانى. أتاح هذا للمنظمة أن تنتقل من حركة مقاومة محدودة إلى اكتساب وضع بصفتها حركة اجتماعية لها تأثير شعبى قاعدى فى انتخابات عام ١٩٩٢. فاز حزب الله باثنى عشر مقعدا فى البرلمان تنازل عن أربعة منها لحلفائه من غير الشيعة. وفى انتخابات عام ١٩٩٦ فاز بتسعة مقاعد. كان حزب الله قد تمكن من الفوز بمقاعده بدون انضمامه إلى قائمة حركة أمل، لكنه فى انتخابات ١٩٩٦، وافق على طلب سوريا الانضمام إلى قائمة أمل حيث رأت أن بقاءه السياسى يعتمد على وحدة، لطائفة الشيعية.

بعد انتخابات عام ١٩٩٢، قرر حزب الله إقامة حوار مع الطائفة المسيحية فيما أصبح يعرف بالانفتاح. قرر السيد عباس الموسوى، ثانى أمين عام للحزب، أن يقود الحزب إلى المشاركة فى النظام السياسى العلمانى الديمقراطى، لكن القوات الإسرائيلية اغتالته (هو وأسرته) فى

(١) من المعروف عن حزب الله أنه لا ينكر مسئوليته عن أى أعمال قام بها فعلا، وقد أثبتت الأحداث ذلك، وأنه لا يقوم بنية عمليات خارج لبنان، لكن الولايات المتحدة وإسرائيل تريدان أن تنسبا إليه هجمات تبرران بها إدراجه على قائمة المنظمات الإرهابية حيث إن مقاومته الاحتلال الإسرائيلى لا تبرر وصفه بالإرهاب وفق الأعراف والمواثيق الدولية. (الترجمة)

فبراير عام ١٩٩٢، وتولى المنصب بعده السيد حسن نصر الله الذي سار على نفس النهج ويادر بالتعاون مع المجموعات المسيحية بأسلوب لافقت.

شنت إسرائيل هجمات على الجنوب في عامي ١٩٩٣ و ١٩٩٦ مما أجبر السلطات اللبنانية على اتخاذ إجراءات ضد حزب الله. عقد حزب الله، بعد هذه الهجمات عدة اجتماعات مع البطريرك الماروني و«الإخوة الموارنة». في عام ٢٠٠١، تشكلت لجنة «الحوار الإسلامي المسيحي» لمناقشة مزيد من التعاون. أيضا، عقد الطلبة من حزب الله لقاءات مع نظرائهم المسيحيين. أكسبت تلك اللقاءات حزب الله دعما انتخابيا من قبل المجموعات المسيحية وأيضا أفراد الطائفة الدرزية ومجموعات سنية. فاز حزب الله، في انتخابات عام ٢٠٠٠ المحلية بنسبة ٦١٪ من بلديات الجنوب، و ١٠٠٪ من مقاعد المجالس البلدية في ضواحي بيروت. في عام ٢٠٠٠، اندحرت القوات الإسرائيلية من الجنوب وفر الجيش الإسرائيلي نتيجة لهجمات المقاومة، وبذلك حقق حزب الله هدفا عسكريا وسياسيا مهما بتحرير الجنوب، على الرغم من أن إسرائيل مازالت تحتل مزارع شبعا. شعر المسيحيون بالارتياح والاطمئنان إلى نوايا حزب الله حينما لم تتجدد الأعمال العدائية.

في فبراير عام ٢٠٠٥ تم اغتيال رئيس وزراء لبنان السابق رفيق الحريري بتفجير سيارته والسيارات الموكبة له في بيروت. أدى هذا إلى اندلاع التظاهرات والتظاهرات المضادة في ميدان الشهداء ببيروت، شجب ائتلاف ١٤ آذار وما سُمي بثورة الأرز الذي كان يتكون من الأحزاب المعادية لسوريا بقيادة سعد الحريري ومؤيديه (من المسيحيين والدروز والسنة بشكل أساسي) شجبوا هيمنة سوريا على لبنان، ونادوا

بتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ١٥٥٩ الذى طالب بانسحاب سوريا من لبنان وتجريد حزب الله من سلاحه [بل واتهموا سوريا وأعوانها فى الجهات الأمنية باغتيال الحريري]. نظم تحالف ٨ أذار المكون من حركة أمل وحزب الله والحركة الوطنية الحرة التابعة لميشيل عون والحزب الاشتراكي السوري القومي والحزب الشيوعي اللبناني، نظموا تظاهرات مؤيدة لسوريا، انسحبت القوات السورية من لبنان فى ١٧ مارس، لكن حزب الله رفض نزع سلاحه على أساس أنه قوة مقاومة مهمتها الدفاع عن الأرض اللبنانية ضد أى هجوم إسرائيلي محتمل.

حينما عاد ميشيل عون من المنفى فى مايو ٢٠٠٥، وجد أن سعد الحريري، زعيم الطائفة السنية، ووليد جنبلاط، زعيم الدروز، كانا قد شكلا تحالفا. وكقائد للموارنة، كان عون بحاجة إلى حليف انتخابي جديد وخاصة وأن غالبية الطبقة الوسطى المسيحية، وفقراء المسيحيين كانوا قد سئموا الانقسامات الطائفية. من ثم، تحالفت حركته، أى حركة الإصلاح والتغيير، مع حزب الله [ووقع ما يعرف بوثيقة التفاهم]. كان هذا التحالف مهما لعون نظرا لمكانة حزب الله كتنظيم مسلح، برهن على قدرته على الجمع بين مختلف المجموعات السياسية والطائفية، وبسبب دوره كحركة مقاومة فاعلة تصدت لإسرائيل. وفى هذا السياق، كان حزب الله أكثر قبولا لدى جماهير المسيحيين القاعدية من أى تنظيم آخر. أيضا، كان هناك التقسيم الريفى/ الحضرى التاريخي. فعلى حين أن الشيعة والموارنة ظلوا مجموعات ريفية فى غالبيتها، فإن المجموعات السنية تنتمى إلى المدن، ونظرا لأن عدد السكان الموارنة أخذ فى التقلص فيما يزداد عدد الشيعة، كان الموارنة بحاجة إلى حليف محلي قوى. بيد أن هذا لا يترجم على أنه نهاية للطائفية بين أعوان حزب الله وعون، لكنه



يعنى أن المواقف من إسرائيل والقضايا الطبقية تهم تلك المجموعات وأن حزب الله يعنى بتلك المتطلبات؛ فهو يتصدى لإسرائيل كحركة مقاومة، وأيضاً، يعمل على إرضاء الاحتياجات المادية للمجموعات المتنوعة من مختلف الطوائف من خلال توفير الموارد. بالنسبة للبنانيين كثيرين، يبدو تركيز حزب الله على القهر والحرمان والاستغلال وأنه يقوم على أساس من التحليل الطبقي أكثر من التحليل الدينى، ويلقى هذا النهج استحساناً شعبياً واسعاً لدى المجموعات المسلمة والمسيحية.

فى يونيو ٢٠٠٦، تم تعيين حليف أسرة الحريري اللصيق، فؤاد السنيورة، رئيساً للوزراء. لم ترق سياسته التى عمدت إلى تشكيل مليشيا مسلحة من شركات الأمن الخاصة لحزب الله، كما أدت سياسته الاقتصادية النيوليبرالية إلى تضخم كبير وانخفاض الأجور الواقعية مما زاد من استياء غالبية اللبنانيين من الحكومة. فى نفس الوقت كان تحالف حزب الله مع أمل وأتباع عون الذين حصوا على اثنين وأربعين مقعداً برلمانياً قد منحهم صوتاً قوياً فى البرلمان. استمر نبيه برى فى منصبه رئيساً للبرلمان، وشارك حزب الله فى مجلس الوزراء بوزيرين.

منذ آنذاك غدا تركيز حزب الله على القومية اللبنانية التى يحددها على أنها مزيج بين الهوية اللبنانية (المسيحية والمسلمة) والهوية الإسلامية (السنة والشيعية والدروز) والهوية العربية (جميع اللبنانيين). فى لبنان، يؤدى هذا المزج بين أيديولوجيات العروبة واللبننة إلى وجود شكل خاص من القومية تجمع بين الهويات الجمعية التاريخية وأيضاً الخصوصيات الاجتماعية السياسية للبنان. ظل وجود مجموعات طائفية مختلفة والتدخلات الأجنبية المستدامة يعنى أن يتماهى الأفراد مع زعماء طوائفهم ويعتمدون عليهم فى الزواج والحصول على وظائف والالتحاق بالمدارس

وإتاحة المستشفيات لمرضاهم. وفى هذا السياق لا ترعى الدولة مواطنيها بالمعنى المطلوب.

وكما تبين منى حرب:

«مفهوم القومية فى لبنان متنازع عليه، لم يحدث وأن كان ثمة إجماع على كيفية سرد تاريخ لبنان. تُركّز كل مجموعة على أسلوبها الخاص فى النظر إلى القومية والوطنية، تحاول كل مجموعة بدءاً ممن يعتقدون التوجهات القومية الفينيقية والمارونية وإلى دعاة القومية العربية، أن تزعم أن سردها هو الأكثر شرعية، وجميعها على غير استعداد لتقبل تنوع تاريخنا والاحتفاء بحقيقة أن لنا مثل هذا التاريخ الثرى، تنتج المجموعات المختلفة تاريخها الخاص بها بدلا من الربط بين كل أوجه تاريخ لبنان. أدى ذلك إلى خلق هويات انعزالية، من ثم، يرحب الكثيرون بالتحالف بين حزب الله وجزء من الطائفة المسيحية ويرونه خطوة إيجابية فى ربط الطوائف المختلفة وفرصة للهروب من هويات المعازل الحالية والأوضاع المستقطبة التى هى نتاج فترة طويلة من التاريخ [الكلونيالى]».

توضيح الموارد من خلال حزب الله:

أدت الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥ - ١٩٩٠) والاحتياحات الإسرائيلية إلى إتهاك البلد وخرابه ونجم عنها مئات آلاف القتلى والمصابين جسديا ونفسيا والمقتلعين والمهجرين. وفى تلك الأثناء، فشلت الحكومات الطائفية الفاسدة فى التعاطى مع الركود الاقتصادى وأزمة النازحين والفجوة الماضية فى الاتساع بين الأثرياء والفقراء، تبنى الملياردير رفيق الحريري صاحب المشاريع السنّى رؤية للبنان على أنها مجتمع حضري علمانى من أفراد الطبقة العليا والمتوسطة، لعب دورا مهما فى إعادة بناء منطقة وسط بيروت - بشكل أساسى من خلال نزح

الملكيّات من ملاكها الأصليين - وحولها من مركز تجارى تقليدى إلى  
 حى أعمال بالأسلوب الغربى ارتفعت فيه البنايات الشاهقة التى تحوى  
 شققا باهظة الثمن ظلت خالية فى معظمها لعدم قدرة الكثيرين على  
 شرائها. أى أنها لم تكن تعنى، ومازالت لا تعنى، شيئا لغالبية الشعب  
 الذى يحتاج إلى إسكان ومياه جارية ورعاية صحية وتعليم أولاده. ظل  
 سهل البقاع والجنوب اللبنانى، مناطق همشت تاريخيا وحرمت من  
 الخدمات العامة والمياه النقية والرعاية الصحية المناسبة والإسكان  
 والعمل لفترة من الزمن. كان حزب الله أول من وفر الخدمات الاجتماعية  
 لمن حاربوا ضد الإسرائيليين وعائلاتهم، أقام مؤسسات رعاية اجتماعية  
 فاعلة ليخرج الشيعة من حالة التهميش. وتدرجيا، دعمت شبكته  
 الاجتماعية الواسعة المجموعات الأخرى المحرومة. لم يكن مصدر تمويل  
 هذه الخدمات هو الحكومة بل من أموال الزكاة والتبرعات. كانت  
 مساعدات إيران المالية أيضا على قدر من الأهمية، فى أواخر  
 الثمانينيات، كانت خدمات توصيل المياه والكهرباء إلى تلك المناطق قد  
 قُطعت تماما، على حين كانت المياه تتدفق على أحياء وسط بيروت.  
 ساعدت إيران على حفر الآبار وتوصيل المياه. منذ التسعينيات اضطلع  
 حزب الله بمسئولية توفير الرعاية والخدمات الصحية والصرف الصحى  
 لنصف مليون شخص من النازحين الذين كانوا يعانون من تراكم  
 النفايات. استمرت هذه الخدمة لمدة خمس سنوات قبل أن تستطيع الهيئة  
 الحكومية المسئولة الوقوف على أقدامها مرة أخرى. بدأ حزب الله فى  
 الاضطلاع بوظيفة الدولة واستطاع توفير الموارد وتنظيمها بحيث وفر  
 المدارس والمياه النقية والكهرباء لمختلف المجموعات السكانية. مثلا، قام  
 بتطوير الزراعة وتنميتها فى سهل البقاع والجنوب بدرجة تحوز

الإعجاب. أيضاً، وفرت المستشفيات والخدمات الصحية التي أقامها العمل لعدد كبير من العاملين في مجال الصحة.

أفادت أيضاً القطاعات الأكثر فقراً من المسيحيين والسنة والدروز في بعض المناطق من الموارد التي وفرتها حزب الله. كانت الدولة وزعماء طوائفهم قد فشلوا في رعايتهم مادياً وتوفير الحماية لهم ضد الهجمات الإسرائيلية المستدامة. ولهذه الأسباب يرتبط هؤلاء الأهالي، وبخاصة المسيحيون منهم بحزب الله ويصوتون له في الانتخابات. لا ينظرون إليه بصفته تنظيمًا شيعيًا، بل يتماهون معه لأنه يتحدث باسمهم ويعمل في مصالحهم. يرون أن لدى حزب الله حساً بالالتزام لم يروه أبداً في أية مجموعة أخرى. بيد أن الفقراء ليسوا وحدهم من يتماهون مع حزب الله، فكما أوضحت لي عالمة الاجتماع Judith Harik إذ قالت:

**«قمت في عام ٢٠٠٢ بإجراء مسح ووجدت أنه حتى قطاعات الطبقات العليا من الطوائف المختلفة تصوت لصالح حزب الله لأنه التنظيم الوحيد الذي يتصدى لإسرائيل ويوفر لهم الخدمات».**

طوال سنوات الصراع العنيف غيرت حركة الأشخاص الذين هربوا من الاجتياحات الإسرائيلية وقصفها للجنوب من التركيبة الطائفية للمنطقة حيث كان الموارنة، في السابق، يشكلون غالبية السكان هناك وكان الشيعة أقلية لكن الشيعة أصبحوا يشكلون الغالبية بنهاية التسعينيات. أدت عوامل عديدة إلى وجود لاعبين متعددين في الحياة السياسية اللبنانية. من بين تلك العوامل: عدم المساواة الاجتماعية والسياسية؛ الصراعات الدينية الطائفية؛ الالتباس حول الأسلوب الذي ينبغي أن تدار به الدولة، وحول سبل عمل الأقليات المختلفة؛ ما ينبغي أن يحدد إتاحة مؤسسات الدولة ومواردها، وكيف ينبغي تجميع وظائف

الدولة المختلفة ومحاصصتها. لدى بداية الحرب الأهلية كان اللاعبون الرئيسيون هم الموارنة والفلسطينيين. واليوم أضحى اللاعبون الرئيسيون هم الشيعة والموارنة والسنة، واتزوى الفلسطينيون. كان الشيعة هم أكثر الفقراء فقرا، وكانوا في غالبيتهم أميين. لكنهم أصبحوا الآن متعلمين يشاركون في شؤون مجتمعهم وحياة البلد السياسية. تقول جين سعيد مقدسى، الكاتبة الفلسطينية:

«ترقّت المناطق والأحياء الفقيرة، أهل تلك المناطق ليسوا أثرياء، لكنهم أفضل حالا بكثير مما كانوا عليه في السبعينيات والثمانينيات. وبعد حزب الله هو المسئول عن هذا التغيير بيناته الطرق والمدارس والمستشفيات، ولأول مرة في تاريخ لبنان يبلى الشيعة بلاه حسنا من حيث التعليم والإسكان والصحة وتوفير العمل، أصبحوا مرتبين. يماثل هذا الأيام التي كانت فيها منظمة التحرير نشطة في لبنان وكان كثير من الفلسطينيين متعلمين، منهم الأطباء والمحامون والمهندسون وكانوا جزءا من نخبة المجتمع الفكرية والاجتماعية».

#### علاقة إيران بحزب الله

منذ الخمسينيات وحتى ثورة ١٩٧٩ في إيران، دعم الشاه وحكومته لبنان التي كان يهيمن عليها الموارنة الذين همشوا المسلمين والشيعة بخاصة. في السبعينيات، كان عدد من النشطاء المعارضين للشاه وبخاصة أعضاء حركة تحرير إيران يعيشون في لبنان. كانت هذه العلاقة ذات دور حاسم في تشكيل حزب الله. في عام ١٩٨٢، قامت علاقة جديدة بين سوريا في ظل حافظ الأسد وآية الله الخميني في إيران. كانت سوريا هي البلد العربي الوحيد الذي دعم إيران في حربه مع العراق. كان هدف هذا التحالف (بين الأسد والخميني) هو تقويض

هيمنة أمريكا على الشرق الأوسط، بعثت إيران بألف وخمسمائة من الحرس الثوري إلى سهل البقاع بتأييد من سوريا التي أتاح لها حدودها مباشرة. قدم الحرس الثوري التدريب والتنظيم والتمويل إلى حزب الله، واستخدم حافظ الأسد سيطرته على سهل البقاع للتعاطي مع الترتيبات السياسية. وطوال التسعينيات ترسخت العلاقات السورية الإيرانية وقويت، وازدادت قوة ورسوخا عام ٢٠٠٢، حينما تبني جورج دبليو. بوش مفهوم «محور الشر» واستمرت الولايات المتحدة في عداؤها لسوريا وإيران. وترسخت أيضا علاقات طهران ودمشق الاقتصادية والسياسية والثقافية، وقامت إيران ببناء مصافٍ للنفط والغاز في سوريا، ومعا أقاما صناعة للسيارات (٨٠٪ إيرانية و٢٠٪ سورية) وبدأتا تتعاونان معا في الشأن اللبناني.

وخلافا عما يشاع عن أن حزب الله هو امتداد لإيران فإنه في واقع الأمر تنظيم هجين استمد إلهامه من الثورة الإيرانية لكنه لبناني مستقل. في البداية، تلقى حزب الله التمويل من إيران لكن هذا التمويل تراجع منذ التسعينيات، ومنذ عام ٢٠٠٤، تراوح الدعم المالي الذي يتلقاه حزب الله من إيران بين ٦٠ مليون و٨٠ مليون دولار سنويا. يتلقى حزب الله تمويلات أكبر كثيرا كثيرا من الشيعة في لبنان والكويت والسعودية ومن ملايين اللبنانيين الذين يعيشون بالخارج. إن مثال صلاح عز الدين المضارب الشيعي الذي كان يمول حزب الله لافت. في ٢٠٠٩، أعلن إفلاسه نتيجة لاستثماراته في سوق المال النيوليبرالي. باعد حزب الله نفسه عنه وقلل من شأن دعمه المالي له، ثمة كثير من أثرياء رجال ونساء الأعمال في المنطقة، الذين يدعمون حزب الله مالياً كما كان يفعل صلاح عز الدين.

أدى الإلزام الدينى والشعور بالاعتزاز بالشيعة إلى الإسهام فى تمويل حزب الله من خلال أموال الأخماس والزكاة، وإقامة المناسبات لجمع التبرعات للمنظمات الخيرية المرتبطة بحزب الله، يقوم بهذه الأعمال مئات من المتطوعين بينهم أعداد كبيرة من النساء كجزء من الجهاد ضد الفقر من خلال توزيع الموارد. تشكل هذه التنظيمات وغيرها شبكة كلية متكاملة توفر الخدمات لأعداد كبيرة من المستخدمين ممن هم بحاجة إلى الخدمات الاجتماعية والاقتصادية علاوة على دعمها للمقاومة المسلحة.

من ثم، تلعب داعمات حزب الله من النساء دوراً مهماً لجمع التمويلات للمنظمة. ظلت الناشطات الحقوقيات فى لبنان، وطوال عقود، يركزن كفاحهن على معارضة الطائفية بصفتها مصدر البطيركية وعدم المساواة بين الجنسين. يرين أن قوانين الأسرة، كقضية طائفية، استغلها الرجال من مختلف الطوائف الدينية. أيضاً، اشتركن فى لجان للأحياء السكنية للحفاظ على القانون والنظام وذلك لأن عقوداً من الحرب والصراع قد دمرت النسيج الاجتماعى لمجتمعهن. فى سياق ما قبل عام ١٩٧٠، كانت نساء الشيعة هن الأقل تنظيماً سياسياً فى البلد. بيد أنه، واكب زيادة التحجب بينهن زيادة فى مشاركتهن فى الحياة العامة. تعتبر السيدة فاطمة ابنة الرسول، والسيدة زينب، التى من خلال مشاركتهن فى الحرب ضد الأمويين ضمنّت استمرارية المذهب الشيعى، تُعتبران نموذجاً تقتدى به تلك النساء فى مشاركتهن فى الحياة السياسية الدينية والاجتماعية لجماعتهن. ويرين فى زينب بخاصة رمزا للتراحم والالتزام والشجاعة ويقتدين بها فى التبرع بوقتتهن وجهدهن للمشاركة النشطة فى رفاه مجموعتهن حيث يلعب جمع التمويلات والتبرعات دوراً مهماً. بيد أنه، ويرغم إسهامهن المهم، لا تحتل النساء مناصب قيادية أو يشاركن فى صنع القرارات بالمستويات السياسية العليا فى حزب الله.

والى جانب جمع الأخماس والزكاة وإسهام النساء فى مراكمة التمويلات، فإن ثمة مؤسستين لهما دور مهم فى استقلال حزب الله المالى منذ عام ١٩٨٤؛ وهما مؤسسة القرض الحسن ومؤسسة وعد. القرض الحسن مشروع انتمائى مصرفى مصغر يعطى القروض لمن هم بحاجة إليها. لديهم صندوق قروض بملايين الدولارات يموله الشيعة فى لبنان والمنطقة، وكما بينت لى Judith Harik فإن:

«القرض يُمنح لأى فرد يستحقه، ولكى تستحق القرض عليك إقناعهم بأنك ستستخدمه لتحسين حياتك، ظل النظام المصرفى اللبنانى، تاريخيا مرتبطا بالهويات الطائفية، يهيمن عليه السنة والدروز والموارنة. لم تكن للشيعة فرصة أبدا مثل غيرهم من الطوائف. ومنذ إنشاء مشروع القرض الحسن، مضى الشيعة يضعون أموالهم فى تلك المؤسسة.. بالطبع فإن أفراد الطوائف الأخرى مرحب بهم وبإمكانهم إيداع أموالهم هناك، أيضا يتم إيداع الممتلكات الثمينة مثل الذهب هناك، والنساء يودعن مصوغاتهن فى ذلك المصرف، أثناء قصف الجنوب، تمكن الشيعة من نقل أموالهم ومعادنتهم الثمينة إلى مكان آمن».

أسهمت وعد أيضا بصفقتها مؤسسة عقارية كبيرة، إلى حد كبير، فى استقلال حزب الله المالى، والازدهار النسبى لمؤيديه، بعد تدمير إسرائيل لمنطقة الجنوب اللبنانى، حصل حزب الله على تمويل من الدولة ومترعين آخرين لإعادة إنشاء ٢٣٠ مبنى مؤلفا من ٥٤٠٠ شقة، و ٣٠٠٠ محل تجارى و ٢٥٠٠ مأوى. فى هذا الصدد، تقول Judith Harik:

«عرض حزب الله على أصحاب الأراضى والبنائيات إعادة إنشاء أملاكهم وتعميرها دونما مقابل من خلال مؤسسة جهاد البناء. اصطف الناس لى يوقعوا العقود لأن هذا كان يعنى أن مساكنهم القديمة التى



بمعرفها الإسرائيليون سيعاد إنشاؤها أو إصلاحها وتجديدها وسيكون باستطاعتهم سكنى شقق حديثة البناء».

أتاح هذان المشروعان لحزب الله الاعتماد على موارده وقدراته الخاصة. أيضاً، فقد أتاحت تلك المؤسسات لعدد كبير من الشيعة الذين لم يكن لديهم أموال، أو بنوك يتعاملون معها أو ملكيات عقارية الفرصة لتسهيل الحصول على كل هذا. أيضاً، قوض التزام حزب الله بالوحدة الإسلامية والعروبة والقومية اللبنانية المزاعم القائلة بأنه تنظم إيرانى يعمل بالوكالة. يقول البعض إن القيمين على الحزب يؤمنون بولاية الفقيه رغم أن الحزب يعمل وفقاً للدستور اللبناني ويؤمن بهذا المبدأ من منطلق دينى عقائدى ولا تتعارض علاقته بإيران مع هويته الوطنية اللبنانية. وفى هذا الصدد قال السيد حسن نصر الله إنه وكما لا يتعارض الارتباط بالمسيحية أو الشيوعية أو أى نظام عقائدى آخر مع هوية الفرد اللبنانية فإن علاقة حزب الله بإيران واعتقاده فى مبدأ ولاية الفقيه لا تتناقض مع هويته اللبنانية أو وطنيته.

وفيما كان كثير من الشيعة اللبنانيين من أتباع آية الله الخمينى حتى وفاته عام ١٩٨٩، كان آخرون من أتباع آية الله الخوى حتى وفاته عام ١٩٩٢، لكن فى السنوات الأخيرة اتبع غالبية الشيعة اللبنانيين [الراحل] آية الله فضل الله أو السيستانى. ظل فضل الله (وحتى وفاته مؤخراً) أحد نواب الخوى فى لبنان منذ عام ١٩٧٦، كما أنه أبرز المجتهدين فى لبنان اليوم وله صيت دولى وأتباع فى أنحاء العالم الشيعى. يتمتع فضل الله بشعبية كبيرة بين النساء وغير المسلمين لأنه يرى أنه بالإمكان تأويل المسائل الدينية، وبخاصة تلك المتعلقة بالجندر والعلوم بما يتوافق مع الزمان والمكان. وعلى الرغم من أن حزب الله، رسمياً، يتبع الخامنى

كزعيم روحى إلا أن لأفراده الحرية فى أن يتبعوا من يشاعون، وكثير من أعضاء الحزب يتبعون فضل الله أو السيستانى فى شئونهم الدينية وقد تحدى كلاهما مبدأ ولاية الفقيه من منطلق أن وجود مرجعية دينية وسياسية وحيدة، وهذا هو جوهر ولاية الفقيه، مستحيل حتى عودة الإمام الثانى عشر المختفى. وفى واقع الأمر، فقد أنكر كل من فضل الله وحزب الله وجود أية رابطة تنظيمية بينهما وترجع شعبية فضل الله إلى استقلاله المؤسسى عن أى تنظيم.

يساور كثيراً من اللبنانيين، بل وآخرين كثيرين فى المنطقة، القلق من أن حزب الله، حينما يمسك بالسلطة، سيسعى إلى إقامة دولة إسلامية على غرار الدولة الإيرانية، وبذء على هذه المزاعم، رد حزب الله بأنه يعتقد فى وجود هوية إسلامية تتخطى الارتباطات القومية، وفى هذا السياق فلا يمكن إقامة دولة إسلامية فى لبنان دون تأييد ذلك من غالبية الشعب.

وبما أن اللبنانيين يتشكلون من طوائف عدة، فإن مثل هذا التأييد غير وارد. قضى فضل الله وقتاً طويلاً، وبذل جهداً شاقاً طوال سنين عديدة، لتعزيز التفاهم والتعاون الإسلامى المسيحى كأسلوب لتوسيع مساحة العمل الإسلامى فى لبنان بدلاً من اقتناص المسلمين للفرص أو استيلائهم على السلطة. يعتقد أنه لا يمكن فرض الأسلمة على الطائفة المسيحية كبيرة العدد أو على المجموعات العلمانية التى لا بد وأن ترفضها، من ثم، لا ينبغى فرض أسلمة المجتمع والدولة على طوائف لبنان وجماعاتها المتنوعة الدينامية.

وفى هذا السياق، فإن العلاقة الدينية/ السياسية بين حزب الله وإيران، و التقسيم الشيعى/ السننى المذهبى قضية تتأثر بها مدركات الناس عن حزب الله وإيران. يرى الكثيرون إيران بصفتها بلداً إسلامياً محافظاً وفى الواقع، فإن هذه النظرة قد تؤثر فى دور حزب الله بـلبنان.

لا تعرف شعوب المنطقة الكثير عن واقع إيران، حيث إن العرب يتحدثون، لعربية ويتحدث الإيرانيون الفارسية، ومن ثم، لا يوجد سوى القليل من الاتصال بين الطرفين، بيد أن مواقف إسرائيل والولايات المتحدة وممارساتهما في المنطقة تقرب بين الطرفين وباستطاعة مثقفيهما التواصل من خلال الإنجليزية، وفقا للأونروا، ثمة ٤٠٠٠٠٠ لاجئ فلسطيني يعيشون في لبنان، ومنذ عام ١٩٤٨، أُجبر مئات الآلاف من الفلسطينيين على مغادرة وطنهم والالتجاء إلى لبنان حيث يعيشون في فقر وبؤس في المناطق الجنوبية وسط الشيعة. وعلى الرغم من أنهم واجهوا التحيز من بعض المجموعات الشيعية في الماضي، إلا أن المجموعتين لقيتا كثيرا من المعاناة نتيجة لعداتهما لإسرائيل وإهمال الدولة اللبنانية الكامل لهما. من ثم، عمل مصيرهما المشترك على التقريب بينهما رغم اختلافهما المذهبي. يؤيد الكثيرون من اللاجئين الفلسطينيين في لبنان إيران بصفتها قوة تتصدى لسياسة الصراعات والحروب الأمريكية، ومشروعها لإقامة «الشرق الأوسط الكبير أو الجديد». بيد أن الكثيرين ينتابهم أيضا القلق من دور إيران في لبنان. أوضح ساري حنفي ذلك بالقول:

«يؤيد الكثيرون إيران، لكنهم يدركون تعقيدات دور إيران بالمنطقة وينقدون دورها في العراق ثمة مخاوف من جانب السنة أيضا من انتشار المذهب الشيعي في المنطقة. ينضوي الموقف على تناقض أيضا؛ ففيما يؤيد الكثيرون موقف إيران من القضية الفلسطينية، إلا أنهم لا يحبون لها أن تتخطى الخطوط الحمراء بحيث تُضعف المذهب السني والثقافة السنية. ويخشى البعض من مسألة الحجاب وقضايا الجندر المحافظة». في السنوات الأخيرة، وبخاصة منذ اغتيال الحريري، مضى بعض الإعلام اللبناني في محاولات لإثارة المشاعر المعادية لإيران وحزب الله.

إلا أن، محمود، أحد الناشطين الفلسطينيين في بيروت، يرى أن الفلسطينيين في لبنان يتماهون مع إيران من منطلقات سياسية لا مذهبية:

«بالنسبة لهم فإن إيران هي الدولة الوحيدة التي تتحدى لإسرائيل وجرائمها ضد الفلسطينيين. حينما يرون أن إيران تساعد في إعادة بناء كباريهم وطرقهم ومنتزهاتهم بعد أعمال القصف الإسرائيلية فإن ذلك يؤكد لديهم المشاعر الطيبة تجاه إيران. يشعرون أن الحركة القومية الفلسطينية والعربية قد تراجعت نسبياً. لقد تم نسيان اللاجئين الفلسطينيين في محادثات ما يسمى بعملية السلام، أسقطوا تماماً، وغدت إيران هي الدولة الوحيدة التي تهتم بقضية الفلسطينيين كشعب مقموع. تختلف آراء الناس حول ما إن كان لإيران أجندتها الخاصة بها وما إن كان موقفها مناصراً حقاً للفلسطينيين. يقال إن إيران أجندتها ولحزب الله أجندته وإن الجميع يمارسون لعبة الشطرنج. إن الشرق الأوسط أرض تدار عليها المعارك. تقوى إيران موقعها من خلال نصوتها للفلسطينيين، وتقوى أمريكا وضعها في المنطقة بدعمها إسرائيل. ليس لدينا خيار وعلينا الانحياز لأحد الأطراف».

#### حروب إسرائيل في لبنان تقوى وضع إيران؛

على الرغم من حقيقة أن الانقسام السني الشيعي هو حقيقة تاريخية وثقافية، وعلى الرغم من تضخيم الإعلام له، إلا أن حرب إسرائيل على لبنان عام ٢٠٠٦ قاربت بين المجموعتين وبين إيران بدرجة أكبر، كان مقاتلو حزب الله قد اختطفوا جنديين إسرائيليين ليعادلوها بأسرى حزب الله لدى إسرائيل. بادرت إسرائيل بشن حرب شاملة على لبنان وقصفت المطار الدولي وطريق بيروت/ دمشق السريع، ثم واصلت تدميرها للجنوب اللبناني وأنزلت بالسكان مستوى صامداً من المعاناة.

كانت إدارة بوش وحلفاؤها الأوروبيون، وبعد سياساتهم الكارثية في أفغانستان والعراق، قد أملوا أن انتصار إسرائيل سيؤدي إلى قيام «الشرق الأوسط الجديد». ولهذا السبب، رفضت الولايات المتحدة وأوروبا النداءات المتكررة لوقف إطلاق النار وذلك ليمتحو إسرائيل الوقت الكافي لمعاوية حزب الله [والقضاء عليه وعلى سلاحه]، ومعاوية سوريا وإيران بشكل غير مباشر. لا غرو إذن أن اعتقدت غالبية شعوب المنطقة والداخل اللبناني أن الولايات المتحدة مسئولة عن سياسة إسرائيل للعقاب الجماعي وجرائم الحرب التي ارتكبتها ضد الشعب اللبناني. وعلى الرغم من أن مجلس الأمن أكد على عدم شرعية الحرب إلا أنه بتأجيله صدور قرار وقف إطلاق النار لمدة اثنين وثلاثين يوما فقد ضحى بالشعب اللبناني في سبيل مصالح الولايات المتحدة وإسرائيل. أدت مقاومة حزب الله لأعمال العنف الإسرائيلية إلى زيادة شعبيته في المنطقة وتخطت الانقسامات المذهبية. يرى محمد، وهو ناشط فلسطيني آخر التقيته في بيروت أنه:

«أثناء حرب ٢٠٠٦ دعم فلسطينيون كثيرون حزب الله وساعدوا الشيعة الذين تعرضوا للهجمات، فتحوا بيوتهم للشيعة النازحين، لدى جيران منعقو الفقر يملكون ثلاث حاشيات (مراتب) احتفظوا باثنتين منها وأعطوا الثالثة للنازحين الشيعة. قبل ٢٠٠٦، لم يحدث وأن دخل شيعة كثيرون إلى مخيمات اللاجئين، لكن الآن فإن ثمة صداقة بين المجموعتين، لم تكن الطوائف المسيحية تريد الفلسطينيين في لبنان، أما الآن فأصبحوا يدركون تماما سبب وجود الفلسطينيين هناك، وسبب عدم استطاعتهم العودة إلى وطنهم. يدركون الآن أن عليهم دعم الفلسطينيين حتى يقاتلوا لاسترداد حقوقهم. وبأسلوب غريب، فقد أدت حرب ٢٠٠٦ إلى التقارب والتآلف بين المجموعات المختلفة، إذ يشعرون أنهم جميعا

وسط النيران، لكنهم يتألفهم يستطيعون الخروج منها».

اكتسب المثل العربي القديم «أنا وأخويا على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب» شعبية كبيرة أثناء حرب ٢٠٠٦، أى أنه رغم اختلافهم فإن السنة والشيعة جميعهم معادون لإسرائيل. بالطبع، فإن ثمة معارضة قوية فى جميع المناطق لحزب الله من مجموعات سنية ومسيحية وشيوعية. لكن هذا العداء لحزب الله يقوم على أساس طبقي وطائفي، إلا أن شعبيته بصفته القوة الوحيدة التى تتصدى لإسرائيل، وأيضاً بسبب توفيره الموارد للأهالى، توضح أنه رغم تنوع المجتمع اللبناني وانقساماته إلا أن باستطاعته أن يتوحد ضد العدو المشترك. يدعم هذا رأى مقدسى القائل بأن الثقافة الطائفية التى لها جذورها فى الكولونيالية الغربية بنية مصطنعة ومن ثم يمكن هدمها وإحلال الدولة والمجتمع المستقلين محلها.

ومرة أخرى استهدفت إسرائيل فى تلك الحرب المدنيين والبنى الأساسية (الطرق، المطارات، الموانئ، الكبارى، المنازل، المصانع، المزارع، المياه والكهرباء، والغاز ومنشآت الصرف الصحى). قدرت الأضرار بمبلغ ٢,٨ مليار دولار، كما بلغ عدد المقتلعين والنازحين حوالى مليون شخص أى قرابة ربع العدد الكلى لسكان لبنان. تتذكر فاطمة إحدى الفتيات التى أجريت حواراً معها فى بيروت، اليوم الذى هاجمتهم فيه إسرائيل:

«فى اليوم الذى بدأت فيه الهجمات كنا نعد لحفلة زفاف، أخذنا أطفالنا وغادرنا منازلنا وهرونا باتجاه الشرق، كنا ننظر خلفنا ونُبصر القنابل تنساقط على منازلنا، جريتنا باتجاه البحر حيث يعيش المسيحيون. ساعونا وقدموا لنا الطعام والمأوى. بعد أيام، حينما عدنا إلى حيننا لم نجد أثراً لمنازلنا، لم يسمح لنا بالاقتراب من منزلنا لأن صاروخاً قد سقط فى وسطه، ظللنا بدون مسكن لمدة ستة أشهر. ثم أعادوا بناء منزلنا لكنهم لم يستطيعوا إزاحة الصاروخ خوفاً أن يتفجر

ويدمر جزءا كبيرا من ضاحية بيروت الجنوبية، بنوا حوله سدا من الإسمنت بحيث لا يحدث ضررا كبيرا حال انفجاره. عدنا الآن إلى منزلنا، لكن ثمة صاروخ كبير في وسطه ونأمل ألا ينفجر».

كان هدف إسرائيل تدمير حزب الله، لكن عملياتها أدت إلى عكس ما توقعت إسرائيل والولايات المتحدة تماما: خرج حزب الله من الحرب أكثر قوة. برهنت منظمات الإغاثة الدولية والدولة اللبنانية على عدم فاعليتها، من ثم ظهرت إيران وسوريا كداعمين وحيدين لضحايا تلك الحرب<sup>(١)</sup>. حالما انتهت الحرب، بدأ حزب الله جهود إعادة الإعمار من خلال مؤسسة جهاد البناء للإنشاءات وبمساعدة مئات المتطوعين من المعمارين والمهندسين. ساعدت إيران في إعادة بناء الطرق السريعة وأمدت الأحياء الفقيرة ببعض المرافق، بيد أن أكثر المساعدات المالية أتت إلى حزب الله ومازالت تأتيه من داعميه في المنطقة بمن فيهم كثير من المغتربين اللبنانيين من أفراد الطبقة الوسطى.

وصفت لى الأكاديمية لاله خليل كيف أن أدوار حزب الله، التي يؤديها بالتوازي مع بعضها، شديدة الفاعلية:

«من جهة، فإن حزب الله تنظيم عسكري ينظم نفسه كأكية دفاع ضد إسرائيل. وهذا جزء مهم من هويته كحركة مقاومة، ومن ناحية أخرى، فإنه، وكقوة تقليدية، يقوم بتعبئة أهالي منطقتهم وحشد قواهم. في الأيام الأولى لحرب ٢٠٠٦، قاتل الأهالي العاديون القوات الإسرائيلية أكثر مما قاتلها جنود حرب العصابات، هؤلاء الأهالي منظمون لأقصى الدرجات وتقنيون قادرون على تنظيم المجتمع».

بعيد الحرب مباشرة، قام حزب الله بمساعدة إيران بإعادة بناء القرى والكبارى التي دمرها الإسرائيليون تقول منى حرب:

(١) تغفل الكاتبة مساهمة بولة قطر الكبيرة في دعم الضحايا. (الترجمة)

«استعار حزب الله أساليب إدارة المدن وتخطيطها من إيران. كان تخطيط المدن وبنائها سابقا يتبع النموذج الأوروبي، حيث كان رؤساء المدن يذهبون إلى أوروبا ويستعيرون نماذجهم، أما الآن فتحاكى المدن في لبنان نظيرتها في إيران. أصبحت ثقافة بناء المدن على غرار النموذج الإيراني ذات شعبية في لبنان، ثمة لافتات في الجنوب تشكر إيران على مساعدتها».

يدعم اللبنانيون حزب الله وإيران من منطلقات سياسية لا دينية. ينظر الناس إلى كم معاناتهم لسنوات عديدة نتيجة لهجمات إسرائيل التي يدعمها الغرب، فيما تدعم الأنظمة العربية الغرب أو تتخذ موقف المتفرج ولا يساندهم سوى حزب الله وإيران. وفي هذا السياق، صعد حزب الله كلاعب سياسى وعسكرى قوى، له روابط مع إيران. يرى ملايين الناس في أنحاء المنطقة أن حكومات الأردن والسعودية ومصر بشجبها لحزب الله وإدانتها له أثناء الحرب قد خانت الشعب اللبنانى.

فيما بين ديسمبر ٢٠٠٦ ومايو ٢٠٠٨، حول أنصار حزب الله وحركة أمل والجنرال عون [وقوى المعارضة الأخرى] ميدان الشهداء بوسط بيروت إلى مدينة خيام اعتصموا بها مطالبين باستقالة الحكومة. لم تُجر الانتخابات الرئاسية في موعدها عام ٢٠٠٧؛ واستقال وزراء الحكومة الشيعة، ولم يدعُ نبيه برى رئيس المجلس التشريعى البرلمان إلى الاجتماع. ونتيجة لذلك، لم تستطع الحكومة إصدار أية قرارات وتحولت إلى حكومة تصريف أعمال. فاقمت الأزمة السياسية الأزمة الاقتصادية. فى يناير ٢٠٠٧، دعت المعارضة إلى إضراب عام وطالبت بزيادة الأجور وتخفيض الأسعار وتحسين إمدادات المياه والكهرباء، إذ إن أكثر من ثلث السكان يعيشون تحت مستوى خط الفقر الرسمى. فى ١ مايو ٢٠٠٨، اندلعت المظاهرات التي نظمها الاتحادات التجارية والعمالية فى أنحاء



لبنان. كانت الاتحادات التجارية والعمالية قوية في السبعينيات لكنها أضعفت في الثمانينيات نتيجة لسياسات الحكومة النيوليبرالية. تلك الاتحادات مستقلة عن جميع الجماعات الدينية. وعلى الرغم من أن حزب الله لم يبد معارضة لتلك لسياسات النيوليبرالية إلا أنه يحظى بدعم شرائح السكان الفقيرة الناشطين في تلك الاتحادات.

في ٦ مايو، أعلنت الحكومة أن شبكة اتصالات حزب الله الداخلية غير قانونية وتعتبر تعديا على سيادة الدولة. يعمل نظام شبكة الاتصالات تلك على تنسيق المقاومة المسلحة في مواجهة أى اجتياح إسرائيلي محتمل. هددت الحكومة بعرض القضية على مجلس الجامعة العربية والأمم المتحدة. أيضا، طالبت السلطات باستقالة وفيق شقير، وهو جنرال شيعي مسنول عن أمن مطار بيروت، عبر وليد جنبلاط، الذي كان مؤيدا للحكومة آنذاك، وزعيم الطائفة الدرزية، للإعلام عن مشاعر معادية لحزب الله وإيران. وفي مواجهة كل هذا، سيطر مسلحون من حركة أمل، وحزب الله، والحركة الوطنية الحرة والحزب السوري القومي على ضاحية بيروت الغربية ذات الغالبية السنية. عطلوا الإعلام الموالي للحكومة وسدوا الطريق إلى المطار. نجم عن ذلك مواجهات مسلحة بينهم وبين ميلشيات تيار المستقبل التابع لسعد الحريري.

وفي مؤتمر صحفي في ذاك اليوم ألقى حسن نصر الله بالمسؤولية على إسرائيل والولايات المتحدة لمحاولة خلق حرب أهلية جديدة في لبنان بتصويرهم تلك التوترات على أنها توترات بين الشيعة والسنة. أكد على أن حزب الله يحاول تحاشي الانقسامات الطائفية لكنه لن يسلم سلاحه ولن يستخدمه ضد الشعب اللبناني، لكنه سيستخدمه دفاعا عن نفسه. قال إن الإعلام الكوكبي يحاول شيطنة حزب الله بصفته مرتبطا بإيران لكنهم لا يذكرون أبدا الاعتداءات الإسرائيلية، أنفقوا، وعلى مدى عامين مئات ملايين الدولارات لتشويه صورة حزب الله لكنهم لم ينجحوا.

أضاف أن حزب الله دائماً ما قال إن ثمة مشكلة سياسية في لبنان ويجب حلها سياسياً عن طريق الحوار والاستفتاء. قال إن إسرائيل حاولت في حرب ٢٠٠٦ تدمير شبكة اتصالات حزب الله ونزع سلاحه، لكنها لم تنجح، والآن تحاول الحكومة إكمال المهمة التي عجزت عنها إسرائيل.

وأكد أن الحزب لن يسمح للحكومة بنزع سلاحه أو تفكيك شبكة اتصالاته الداخلية، وأنهم يرفضون قرار مجلس الأمن الذي يقضى بنزع سلاحه وأن ذلك هو المجلس نفسه الذي فشل، وعلى مدى السنين، في وقف العدوان الإسرائيلي المتكرر أو إدانته. وجد خطاب نصر الله أصداء إيجابية في أنحاء العالم العربي وتماهت الغالبية مع أطروحاته. يعلم نصر الله مدى شعبية الحزب في المنطقة، وفي خطابه، ركز على عدوان إسرائيل الذي لا يتوقف وسعى إلى كسب دعم الغالبية العربية في تصديه لإسرائيل بأن أكد أن العدو هو إسرائيل بالنسبة للشيعية والسنة معاً.

استمرت التصادمات بضعة أيام في مختلف المناطق اللبنانية ونجم عنها ٨٠ قتيلاً و٢٥٠ مصاب. لم يتدخل الجيش مباشرة [إذ إنه يمثل الوحدة الوطنية] حيث إن ثلث أفراده من الشيعة، ولدى عدد كبير من ضباطه روابط مع أعوان الجنرال عون. وفي واقع الأمر، فإن غالبية الجيش من الرتب المنخفضة، سواء كانوا شيعة أم سنة، هم من مؤيدي حزب الله. وفي ١٨ مايو، توسط أمير قطر وجامعة الدول العربية بين الحكومة والمعارضة في الدوحة، وأنهوا بذلك ثمانية عشر شهراً من الطريق المسدود الذي كانت الأمور قد وصلت إليه. أجبرت الحكومة على عمل التنازلات من بينها إصلاح القانون الانتخابي بحيث يعكس، واقعياً، التوازن الطائفي في البلد. بالطبع، يرى كثيرون أن إصلاح القانون

الانتخابي وحده لا يمكن أن يوفر حلاً حقيقياً للنظام الطائفي الذي يُدخل البلاد، من حين لآخر، في أزمات سياسية. وافقت الأطراف المعنية على الدخول في حوار لتعزيز سلطة الدولة وتحديد العلاقة بينها وبين حزب الله، رحبت إيران وسوريا بالاتفاق، ورأتة السعودية والولايات المتحدة خطوة إيجابية ضرورية. وفي ٢٠٠٨، أصبح ميشيل سليمان، القائد المستقل السابق للجيش اللبناني رئيساً للجمهورية، واحتفظ نبيه بري وفؤاد السنيورة بمنصبيهما في رئاسة مجلس النواب ورئاسة الوزراء على التوالي.

وفي هذا الصراع، كما في الحالات السابقة، أخطأت الحكومة اللبنانية التي تدعمها الولايات المتحدة وحلفاؤها في المنطقة، تقدير شعبية حزب الله وحلفائه من حركة أمل وقطاعات من الطائفة المسيحية بزعامة الجنرال عون. وفي واقع الأمر، انتهى هذا الصراع بهزيمة كبرى لمخطط واشنطن وإسرائيل، وعلى الرغم من دعم الغرب والسعودية ومصر للحكومة اللبنانية في مواجهة المعارضة، وبخاصة بسبب العلاقات الوثيقة بين السعودية والحريري، فقد أرسل أوباما مبعوثه جورج ميتشل إلى المنطقة في مهمة لإجراء مفاوضات سلام بين العرب وإسرائيل. وفي مارس ٢٠٠٩، ذكرت بريطانيا أنها تميز بين جناحي حزب الله السياسي والعسكري وأعلنت استعدادها لإجراء حوار سياسي مع التنظيم، وكما ذكرت ريماء علاء، المتخصصة في شؤون الشرق الأوسط بتشاتام هاوس، المعهد الملكي للعلاقات الدولية بلندن، فليس باستطاعة الولايات المتحدة وبريطانيا تجاهل حزب الله الذي يمثل جزءاً مهماً من سكان لبنان.

في يونيو ٢٠٠٩، فاز تحالف ١٤ آذار الحاكم بواحد وسبعين مقعداً من مقاعد البرلمان البالغ عددها ١٢٨ مقعد، فيما فاز تحالف ٨ آذار بسبعة وخمسين مقعداً. وعلى الرغم من خسارته. فقد فاز تحالف ٨ آذار

بمعدل ٥٥٪ من مجموع أصوات الناخبين، ودافع الجنرال عون عن تحالفه مع حزب الله بقوله إنه يساعد على استقرار لبنان وأن إسرائيل تمثل التهديد الرئيسي للبنان. ترى لاله خليلي أنه لو أن الانتخابات اللبنانية أجريت على أساس نظام صوت انتخابي لكل فرد لفاز تحالف ٨ آذار؛

«لقد فازوا بنسبة ٥٥٪ من مجموع الأصوات، لكن النظام الانتخابي يقوم على أساس محاصصة أصوات المناطق على غرار الجمعيات أو الهيئات الناحية التي تصورت لانتخاب رئيس الولايات المتحدة. يعنى هذا أنهم على الرغم من فوزهم بنسبة ٥٥٪ من مجموع الأصوات الفردية فلم يحصلوا على نسبة كافية من خلال نظام الدوائر الانتخابية كي يكون لهم غالبية برلمانية. بيد أنهم سيكونون أكثر فاعلية كقوة معارضة. لو أنهم فازوا لتحملوا مسئولية فساد النظام اللبناني وطوائفيته مثلما تحملت حماس مسئولية فساد سلطة الحكم الفلسطينية».

وفيما أنه كان باستطاعة أعضاء البرلمان الواحد وسبعين من تحالف الحريري تعيينه رئيسا للوزراء، إلا أنه مد يده لحزب الله والمعارضة في تحالف ٨ آذار من أجل تشكيل حكومة وحدة وطنية. أيضا، قام حليفه وليد جنبلاط بتغيير موقفه وأعلن أنه ينبغي ضم حزب الله إلى الحكومة. في أكتوبر ٢٠٠٩، رأى آية الله فضل الله أن لبنان وصلت إلى نقطة أصبحت معها على استعداد لتلقى أى أنباء من الولايات المتحدة عن السلام في المنطقة. وفي نفس الوقت، دعا نصر الله إلى التقارب بين السعودية وإيران من أجل تجسير الانقسام الشيعي/ السني وذلك لإطفاء نيران المذهبية والطائفية.

أما من حيث العلاقات بين إيران وحزب الله، فتقدم المؤسسة السياسية الإيرانية مستويات مختلفة من الدعم للحزب. منذ ثورة ١٩٧٩،

تمتع حزب الله بعلاقات وثيقة مع قوات الأمن في إيران، واستمرت هذه العلاقات طوال فترة حكومتي رافسنجاني وخاتمي الإصلاحيتين، وحكومة أحمدى نجاد المحافظة. يتميز نصر الله بحنكته السياسية ويدرك أن حزب الله بحاجة إلى دعم إيران سواء كان المحافظون أو الإصلاحيون هم من يمسكون بمقاليد الأمور. قام بتهنئة أحمدى نجاد عام ٢٠٠٩ حينما أعلن فوزه في الانتخابات، لكن حالما عُرِف أنه ثمة شك في صحة تلك النتائج أعلن أنه، بغض النظر عما يفوز في الانتخابات، ستظل علاقات حزب الله بإيران وثيقة.

لتحالف الغرب والولايات المتحدة مع الأنظمة العربية المحافظة أهمية كبرى، وبخاصة بالنسبة للمصالح الأمريكية في المنطقة. بيد أنه قد يُنظر إلى تحسن العلاقات بين إيران وحماس وحزب الله باهتمام متزايد، لقد تغيرت طبيعة الإسلام السياسي في إيران، ولدى حزب الله في لبنان وحماس في فلسطين والإخوان المسلمين بمصر. ووفقا لأطروحتي في هذا الكتاب، فإن ثمة مؤشرات واضحة على أن الحداثيين الإسلاميين في إيران وفي أنحاء المنطقة على استعداد لتشكيل سياساتهم وفقا للسياسات الكوكبية، ولو حدث مثل هذا التغيير في سياسة الولايات المتحدة الخارجية فسيكون له أثره على الشرق الأوسط في مختلف الظروف والأحوال.



## العلاقة بين إيران والعراق

قبل قيام الإمبراطورية العربية الإسلامية وبعدها، تعرضت العراق لسلسلة من الغزوات، اختفت المدن عصر الأوسطية وحلت محلها مدن كثيرة، وقُسمت القبائل القديمة وازدهرت أخرى جديدة. كان الآراميون يعيشون في سوريا وفي أجزاء من مناطق «بين الرافدين» منذ القرن الحادي عشر إلى القرن الثامن قبل الميلاد، وهاجر العرب إلى العراق في العصور القديمة المتأخرة (٥٠٠ قبل الميلاد)، أدى الفتح العربي، كان سكان العراق متنوعين إثنيا، ومع صعود الإمبراطورية الساسانية الإيرانية، آخر إمبراطورية إيرانية قبل الإسلام (٢٢٤ - ٦٥١ م) شهد العراق هجرات كبيرة إيرانية تشكلت من النخب الإيرانية ومعها قطاع صغير من صغار الفلاحين. وبحلول عام ٦٤٤ م، كانت الإمبراطورية العربية تتشكل، ليما تم فتح جميع أجزاء شبه الجزيرة العربية، وجزء من الإمبراطورية الساسانية وإقليمى سوريا ومصر من الإمبراطورية البيزنطية. أدى الفتح العربي إلى أسلمة سكان العراق وتعريبهم واستيعاب سكانها العرب والإيرانيين.

وكما أوضحنا في الفصل الثالث، فمنذ حكم الصفويين (١٥٠١-١٧٢٢) تماهى المذهب الشيعى والمؤسسة الشيعية مع إيران، وفيما بين عامي ١٦٢٣ و١٦٣٨، استولى الصفويون على مدينتى النجف وكربلاء المقدستين من العثمانيين. استمرت الطبيعة الشيعية للمدن الواقعة جنوبى بغداد طوال هيمنة الأتراك العثمانيين (١٥٢٤-١٦٢٢؛ و١٦٣٨-١٩١٧) والمماليك الجراكسة (١٧٤٩-١٨٣١)، لكن سياسة العثمانيين كانت تحابى العرب السنة فى تولى مناصب الدولة. أدى تحول إيران إلى المذهب الشيعى إلى صعود رجال الدين الشيعة الأقوياء فى إيران والعراق. نشط رجال الدين النافنون الذين كانوا قد انتقلوا من إيران إلى العراق فى الحياة السياسية والدينية للبلد فى ظل العثمانيين، وظلت تلك العلاقة التاريخية قائمة منذ وقتئذ. لكثير من العائلات الشيعية المرموقة

أصول عربية وإيرانية وسورية. تشمل الشخصيات الكبيرة ذات الأصول الإيرانية الحالية آية الله سيد محسن الحكيم الذي كان الزعيم الروحي للشيعة على مستوى الكوكب بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٧٠؛ وآية الله محمد باقر الصدر الذي أعده صدام حسين عام ١٩٨٠؛ وأبا القاسم الخوي وهو من كبار آيات الله الشيعة وتوفي عام ١٩٩٢، وآية الله على السيستاني في يومنا هذا.

مدينة النجف العراقية هي من أقدس المواقع الشيعية، وكذلك مدينة قم الإيرانية حيث يوجد ضريح السيدة فاطمة المعصومة، وهذه المدن المقدسة مراكز للدراسات الشيعية ويقيم بها رجال الدين الشيعة كزعماء روجيين لطائفتهم، ويؤمها ملايين الزوار الشيعة من المنطقة وخارجها. حدث، في فترات مختلفة، وأن كان ثمة تنافس بين مدينتي النجف وقم على القيادة



الكوكبية للشيعة، وكانت المرجعية الشيعية تنتقل من قم إلى النجف وبالعكس. في الستينيات، كان آية الله بروجوردي هو المرجع الشيعي وكان يقيم في قم، وبعد وفاته، انتقلت المرجعية إلى النجف الأمر الذي وجده الشاه في صالحه إذ تمكن من إطلاق يديه في شئون البلد دونما تدخل من رجال الدين وأدى ذلك إلى اكتساب النجف مزيداً من الأهمية. وفيما بعد، حظر صدام حسين على المرجعيات سكناً النجف مما قوى من وضع قم إذ انتقل كثير من رجال الدين العراقيين الشيعة إلى إيران. وبعد سقوط صدام، صعد نجم النجف مرة أخرى بصفتها مكان المرجعيات، وكما ذكرنا في الفصل الثاني، فقد ازداد التقارب بين النجف وقم منذ ٢٠٠٢، وهما الآن مركزان للجدل الدائر حول ما إن كان ينبغي ترك شئون الحكم للحكومات، أم أنها من اختصاص رجال الدين

من الواضح أن استمرار السمة الشيعية لبعض أجزاء العراق ترتبط جزئياً بوجود النجف وكربلاء، وأيضاً بالعلاقات التاريخية والتجارية بين البلدين. في القرن التاسع عشر، كان كثير من التجار في بغداد إيرانيين وكثير من هؤلاء يهودا إيرانيين. وتاريخياً أيضاً أبقى كثير من الشيعة الذين كانوا يسكنون جنوب العراق ووسطها على روابط اقتصادية وثقافية مع إيران فيما أبقى كثير من العرب السنة في المناطق الوسطى والوسطى الشمالية على روابط اقتصادية وسياسية وثقافية مع العالم العربي. من الناحية الإثنية فإن غالبية شيعة العراق عرب باستثناء الشيعة الإيرانيين الذين يسكنون البصرة والنجف وكربلاء. بيد أنه من المهم أن نبين أنه على الرغم من غلبة السمات الشيعية فإن هذه المناطق تضم أقليات سنية.

وعلى الرغم من أن المناطق السنية ظلت هي وادي الفرات شرقي بغداد، ودجلة فيما بين بغداد والموصل فإن ثمة أقلية شيعية كبيرة تسكن

هذه المناطق، بعض المستوطنات التركمانية شيعية وبعضها سنية، يسكن الأكراد شمال العراق وشمالها الشرقي وهم من أهل السنة ويتميزون عن السنة العرب، وأيضا ثمة أقلية كردية شيعية. تأثر الأكراد والشيعية العرب والسنة بالصوفية. هناك أيضا مجموعات غير مسلمة من اليهود والمسيحيين واليزيديين والصابئة تسكن مختلف المناطق الحضرية والريفية. وتاريخيا، فإن تلك الجماعات تمازجت في بعض المناطق أكثر من غيرها مما يوضح أن هويات الجماعات المختلفة لا تقوم فقط على أساس ديني. بيد أنه، وحتى سقوط صدام، هيمنت الأقلية السنية العربية على مؤسسات الدولة.

وعلى الرغم من أن الشيعة يشكلون غالبية سكان العراق لكنهم في واقع الأمر يتكونون من جماعات متنوعة. وفي مختلف الحقب التاريخية، اعتنق بعضهم القومية العربية فيما اعتنق آخرون القومية الإيرانية، وأصبح بعضهم أعضاء في حزب البعث فيما انضم البعض الآخر للحزب الشيوعي. لذا بعضهم بالمناطق الشيعية وقاداتها، الذين هم في غالبيتهم من أصول إيرانية، في محاولة منهم للتغلب على قصائهم الاجتماعي/الاقتصادي والسياسي داخل المجتمع العراقي.

أدى اجتياح البريطانيين للعراق واحتلالهم لها ما بين عامي ١٩١٤ و١٩١٨ إلى وحدة صفوف الشيعة والسنة الذين شكلوا حركة مقاومة ضد البريطانيين، وفيما بعد، لعبت مدينة النجف والعلماء الشيعة دورا مركزيا في مقاومة البريطانيين والملك فيصل في عام ١٩٢٤.

منذ العشرينيات صعودا، أثر التصنيع والتحضر في البنية الطبقية والمعايير الثقافية. تفاعلت مختلف المجموعات الإثنية مع بعضها في المناطق الحضرية فيما رأى الكثيرون التمايز الإثني جزءا من سياسة «فرق تسد» الاستعمارية. في العشرينيات في ظل الملكية، كان الخط

المذهبي الفاصل بين السنة والشيعة يقوم على أساس تمايز طبقى ولم يكن دينيا إذ إن العائلات المهيمنة اقتصاديا واجتماعيا كانت من السنة. كان مدرك المجموعات الشيعية للتمييز متنوعا يتراوح بين الاستغلال الطبقي والتقسيم الحضري / الريفى والدينى / العلمانى. كانت غالبية مظالم الشيعة تتركز على عدم توازن الدولة العراقية، ومعدل تمثيل الشيعة السياسى المنخفض نسبيا، وإقصائهم اقتصاديا وقمعهم سياسيا. بيد أن صفوف الشيعة والسنة توحدت ضد تحكّم البريطانيين فى العراق.

فى الخمسينيات والستينيات، حدث تغير نسبى فى وضع الشيعة الاجتماعى/ الاقتصادى إذ بدأوا يراكمون الثروات ويحتلون مناصب عالية فى مؤسسات الدولة. أصبح التزاوج بين الشيعة والسنة شائعا. بيد أن الفقراء كانوا فى غالبيتهم من الشيعة، وبالنسبة لكثير من الشيعة كانت القومية العربية أيديولوجيا نخبوية تُقوّى من هيمنة السنة. عمل إصلاح الأراضى فى نهاية الخمسينيات على إقصاء ملايين المزارعين الشيعة عن مزارعهم ورحلوا عنها ليستقروا جنوبى بغداد (مدينة الصدر) وعلى الحواف الشرقية والشمالية للعاصمة. لكن الشيعة منذ الأربعينيات وحتى الستينيات كان لهم مكان بارز فى الحزب الشيوعى ولعبوا دورا مهما فى مواجهة الانقلاب البعثى.

كان لعبدالكريم قاسم، الذى كان والده عربيا سنيا ووالدته كردية شيعية، رؤية إدماجية للعراق. أثناء رئاسته (١٩٥٨ - ١٩٦٣) تمتع بعض الشيعة بدرجة نسبية من السلطة السياسية. أدى ظهور «حزب الدعوة الإسلامية» إلى مشاركة بعض السياسيين الشيعة فى الحياة السياسية. أيضا، فى هذه الفترة، ذهبت كتابات محمد باقر الصدر فى مجال

الفلسفة والاقتصاد إلى أن الآراء الشيعية حول العدالة الاجتماعية تتسق مع مفاهيم الماركسية والليبرالية الغربية، ولقيت أرائه تلك شعبية كبيرة لدى غالبية الشيعة، كما شهدت الفترة ذاتها أيضا إحياء الأحزاب الكردية والشيوعية رغم أن قاسم عمل على ألا يتحدى أي تنظيم أو جماعة الجيش أو سلطته، أيضا أتيح التعليم للنساء وحققن درجة من المساواة مع الرجال. قُيد قانون الأحوال الشخصية لعام ١٩٥٩ تعدد الزوجات وتم تعيين نزيهة الدليمي في منصب وزيرة. وبعد الانقلاب على عبد الكريم قاسم، أدى صعود القومية العربية وحزب البعث إلى تهميش الجماعات الشيعية مرة أخرى. بيد أن عددا لا بأس به من الأقليات استمر في اعتناقه القومية العربية وانضم الكثيرون منهم إلى حزب البعث الذي كانت سمته في الستينيات هي الشراكة الحقيقية بين الشباب السني والشيعة من أنصار القومية العربية، بيد أن هذه الشراكة تراجعت في أواخر الستينيات.

وكما ذكرنا في الفصل الأول، في عام ١٩٦٣، عارض عدد من رجال الدين الشيعة إصلاحات الشاه التي كانت تقوض سلطتهم، وبعد سلسلة من التعبير عن الاستياء تم ترحيل آية الله الخميني إلى العراق حيث أقام في التجف مع غيره من رجال الدين الشيعة. ومن منفاه هناك، وجه النقد إلى رجال الدين لموقفهم السلبي من الصهيونية والاستعمار والاستكبار العالمي ودعا إلى الإطاحة بالشاه، وبذلك لعب دورا كبيرا في ثورة ١٩٧٩. في عام ١٩٧٩، بدأت مجموعة من شباب الشيعة، باستلهمهم آية الله محمد باقر الصدر وآية الله الخميني، يناضلون ضد حكومة البعث من خلال حزب الدعوة. اكتسبت هذه المجموعة شعبية في السبعينيات والثمانينيات، لكن لدى تولي صدام حسين السلطة عام

١٩٧٩، حظر ذلك الحزب وطرد آلاف من الشيعة من النجف وكربلاء، ذهب بعضهم إلى لبنان وسوريا والأردن فيما استقرت غالبيتهم في إيران. وفي إبريل ١٩٨٠، أعدم صدام محمد باقر الصدر وشقيقته بنت الهدى التي كانت عالمة إسلامية مؤثرة، حظر مراسم عاشوراء وطرد آلاف من العرب من ذوى الأصول الإيرانية واعتقل آلاف آخرين. أرسل المنفيون منهم إلى إيران وتمت مصادرة أملاكهم.

### الحرب مع إيران، اجتياح الكويت، العقوبات وسقوط صدام:

بدأت الحرب الإيرانية العراقية في سبتمبر ١٩٨٠. اعتقد صدام أن الحرب ستكون قصيرة، ينتصر فيها العراقيون ويستعيدون سيادتهم على شط العرب كاملاً، تلك المنطقة المتنازع عليها منذ عام ١٩٧٥، كما ستثبت الحرب قدرة العراق كقوة إقليمية على هزيمة الثورة الإيرانية. بيد أن هذه الحرب (١٩٨٠ - ١٩٨٨) لم تُضعف الثورة في إيران. قُدِّر عدد قتلى تلك الحرب من العراقيين والإيرانيين بمليون ونصف المليون شخص، وقُدِّرَت قيمة الدمار الذي ألحقته بالبلدين بـ ١,٢ مليار دولار دعمت السعودية والكويت والأردن ومصر العراق سياسياً ومالياً إذ رأوا في هذه الحرب حرباً إيرانية/ شيعية/ سنية. كان جيش صدام الكبير المؤلف من المجندين يتكون من الجنود الشيعة بشكل أساسي فيما كانت القيادات سنية في غالبيتها، هذا على الرغم من أن عدداً من الشيعة المؤيدين لحكم البعث كانوا يتولون مناصب سياسية وعسكرية عليا. ركزت حملة دعاية صدام القوية على الهوية العربية الإسلامية في مواجهة الإيرانيين غير العرب وكان الهدف هو كسب شيعة العراق لمواجهة الإيرانيين. بيد أن كتاباً من أمثال سامي رمضان يذهبون إلى أن الدولة العراقية لم تكن تقوم على أساس مذهبي أو طائفي، على الرغم من أن سياساتها أنتجت

تأثيرات طائفية. مثلاً، كان محمد سعيد الصحاف وزير الإعلام في عهد صدام، من بين الشيعة الذين ترقوا واحتلوا مناصب مرموقة وكان هو من وصف الشيعة بأنهم عملاء لإيران وقام بتطهير حزب البعث من أعضائه الشيعة.

حاول صدام. طوال سنوات الحرب، من جهة أن يقلب سياسة تهمة الشيعة على المستويين الرمزي والمادي وذلك بتضمينهم في المجلس الوطني وزيادة الأموال المخصصة للحفاظ على مدينتي النجف وكربلاء، ومن جهة أخرى هاجم المجموعات الشيعية بضراوة وأجبرهم على الذهاب إلى المنفى<sup>(١)</sup>. قدمت الحكومة العراقية حوافز مالية للمتزوجين من إيرانيات كي يطلقوهن، كما أخضعت رجال الدين الشيعة والمزارات والأضرحة والمساجد الشيعية لتحكم الحكومة، وجعلت من علماء الشيعة موظفين يتلقون رواتب من الدولة.

في عام ١٩٨٢، أجبر محمد باقر الحكيم وشقيقه عبدالعزيز الحكيم (ابنا آية الله السيد محسن الحكيم) على الذهاب إلى المنفى في إيران، قاما في طهران وقم بتنظيم المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق وأقرا بمبدأ ولاية الفقيه الذي تبناه الخميني. وأثناء الحرب الإيرانية العراقية، قام الحرس الثوري الإيراني بتجنيد عدد من أسرى الحرب وتدريبهم للانضمام إلى فليق بدر والقتال ضد جيش صدام وبخاصة في إقليم كردستان، ولهذا السبب استهدف صدام الشيعة الذين تورطوا كنشطاء سياسيين نوى توجهات إيرانية وكثيراً من أعضاء المجلس الأعلى للثورة الإسلامية بالعراق، وبخاصة أفراد عائلة الحكيم الذين

(١) من المنطقى القول إن تلك المجموعات التي هاجمها كانت هي المناوئة لنظام الحكم والمواالية

لإيران. (الترجمة)

سجنوا أو أعدموا. أيضا، هاجم صدام الأكراد بضرارة، ودمر مناطق كردية بأكملها وذلك لأن الحزب الكردي الديمقراطي واتحاد كردستان الوطنى تحالفوا مع إيران فى عامى ١٩٨٥ - ١٩٨٦.

وعلى الرغم من بشاعات صدام ودعايته، لم تنماه الجماعات الشيعية العراقية مع الإيرانيين لأنهم كانوا يعتزون بهوياتهم القبلية والعشائرية والطبقية والحضرية والريفية والسياسية مثلما يعتزون بهوياتهم الشيعية. شعر كثيرون من الشيعة والسنة والأكراد أن التدخل الأجنبى خزى وطنى وقومى. استشهد الكاتب والصحفى باتريك كوكبيرن برأى جندى عراقى شيعى كتذكرة قوية بالطبيعة المهجنة لتشكيل وإعادة تشكيل الهوية. قال الجندى «فى البداية شعر كثير من الشيعة أن صدام ينبغى له قتال الإسرائيليين بدلا من قتال الشيعة المسلمين وقتلهم. بيد أن بعد ذلك حينما رأينا أصدقاءنا يقتلون ويصابون وجَهِنا تيراننا لقتل الإيرانيين».

وعلى الرغم من الإقصاء والتمييز ضدهم، ظل الشيعة بعامه موالين لبلدهم. وفى الواقع، لم يطالب الشيعة أبدا بنوالة شيعية مستقلة رغم نضالهم من أجل إنهاء التمييز ضدهم. بيد أن وحشية صدام استمرت. هاجم فى عام ١٩٩١ المدن والبلدان ذات الغالبية الشيعية وقُتل عشرات الآلاف فى النجف وكربلاء والحلة ولم تكتشف مقابرهم الجماعية إلا بعد سقوط صدام. فبعد انتفاضة الشيعة فى ذاك العام، وضع صدام آية الله الخوى قيد الإقامة الجبرية وتم قتل عدد من أفراد أسرته ومرافقيه وسجن بعضهم، على الرغم من أنه كان قد دعا إلى إنهاء الانتفاضة<sup>(١)</sup>.

(١) آنذاك، قام الشيعة بحركات احتجاجية وأعمال شغب كادت ترقى إلى ثورة على الحكومة وهذا فى الوقت الذى كان الأطلسى بقيادة الولايات المتحدة قد قام بفرض عقوبات قاسية على العراق وحصارها وتحديد منطقة يحظر فيها الطيران كان للشيعة مظالمهم، لكن تشكيل مجلس أعلى للثورة الإسلامية العراقية وخلق بدر كاتا نعدان بمثابة أفعال خيانة من وجهة نظر النظام القائم. كما أن الأطلسى لعب دورا كبيرا فى تأجيج «الانتفاضة» لشيوعية فى الجنوب العراقى. (الترجمة)

شارك أنصار المجلس الأعلى للثورة الإسلامية العراقية وحزب الدعوة في تلك الانتفاضة التلقائية وقام جيش صدام بقمعهم بضراوة، مات عشرات الآلاف أو التجأوا إلى إيران وفي حالات كثيرة تعرضت النساء للتعذيب والقتل بسبب قرابتهن لـ «أشخاص مطلوبين». وفي عام ١٩٩٤ وُضع آية الله السيستاني قيد الإقامة الجبرية، وفي عام ١٩٩٩ اغتيل آية الله صادق الصدر واعتقل أفراد أسرته ورفاقه المقربون.

اجتاح صدام الكويت عام ١٩٩٠ الأمر الذي أدى إلى فرض العقوبات على العراق من قبل مجلس الأمن الدولي. أدى هجومه على المجموعات الشيعية والكردية عام ١٩٩١ إلى مزيد من قرارات مجلس الأمن وخلق ما يسمى بـ «الملاذ الآمن» الذي كان يعنى واقعياً إقامة كيان كردى ذاتى استقلال ذاتى فى شمال العراق. نجم عن العقوبات أزمة إنسانية كان لها أثر كارثى على سكان البلد. فى عام ١٩٩٦، قدر عدد وفيات الأطفال بسبب تلك العقوبات بنصف مليون طفل، بما يفوق ضحايا هيروشيما من الأطفال، لكن وزيرة خارجية كلينتون، مادلين أولبرايت رأت أن ذلك ثمن يستحقه الهدف (من العقوبات). انخفضت ميزانية التعليم من ٥٠٠ مليون دولار قبل حرب الخليج عام ١٩٩١ إلى أقل من ١٠٪ من هذا الرقم وارتفع معدل الأمية من ٨٪ إلى ٤٥٪ بين عامى ١٩٨٥ و ١٩٩٩، ونجم عن تدهور النظام التعليمى انخفاض المستويات التعليمية فى المدارس الثانوية والتعليم العالى. وطوال فترة العقوبات خضع الشعب العراقى لحملات قصف أدت إلى تدمير مصافى النفط ومنشآته وانبعث آلاف الأطنان من الغازات والمواد السامة. أدى معدل وفيات الأطفال العالى وتدهور نظام الرعاية الصحية وسوء التغذية وانتشار الفقر إلى تدمير حياة ملايين العراقيين. هبطت معدلات عمل المرأة، والتي كانت الأعلى فى المنطقة، من ٢٣٪ قبل عام ١٩٩١ إلى ١٠٪ عام ١٩٩٧. أثر الفقر



وانهيار نظام الرعاية الاجتماعية والتبغات العمالية التي تمثلت في صعود أيديولوجيا الجندر المحافظة بتزايد، أثرت بخاصة في وضع النساء في المجتمع العراقي.

كان المقصود من برنامج النفط مقابل الغذاء الذي تم التوصل إليه بين الأمم المتحدة والحكومة العراقية تقليل معاناة الشعب العراقي. بيد أن هانس فون سبونك، مسئول الأمم المتحدة الأرفع مكانة والأكثر احتراماً آنذاك، قدم استقالته احتجاجاً على سياسات الولايات المتحدة ضد العراق وذهب إلى أن مجلس الأمن وحكومتى الولايات المتحدة وبريطانيا تجاهلت العقبات في سبيل ذلك البرنامج ومعها معاناة الشعب العراقي بالرغم من البراهين القاطعة على أن الشعب العراقي كان يدفع ثمن جرائم لم يرتكبها بل ارتكبها صدام حسين. توفر لنا تجربة هيفاء زنجانا المكاتب والناشطة العراقية، تذكراً مؤسفة لتلك الملابس البشعة، كتبت تقول:

«في ٦ ديسمبر ١٩٩٥، أرسلت ظرفاً مُبطناً مقاس A4 إلى أولاد وبنات أخى بالموصل، كان الظرف يحوى حقيبة أقلام رصاص، وثلاث مساحات، وثلاث برأيات، وستة أقلام حبر، وقلمين لوضع العلامات، وقضيباً للصمغ، وقلمين جافين. كتبتُ على الظرف «هدايا أطفال». أُعيد إلى الظرف وختم عليه «لم نستطع إرسال طردك إلى العنوان المذكور بسبب العقوبات المفروضة على العراق». أُخبرتُ أن على الاتصال بوزارة التجارة والصناعة البريطانية لمزيد من المعلومات».

منذ الأشهر الأخيرة في عام ١٩٩٨، أصبح «تغيير النظام» هو سياسة الولايات المتحدة الرسمية تجاه العراق. بعد هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، خططت الولايات المتحدة وبريطانيا وأستراليا وإيطاليا لغزو العراق وقاموا بقصف بغداد في مارس ٢٠٠٣، ونفذوا ضربات جوية هائلة في

أنحاء البلد. تم إلغاء برنامج النفط مقابل الغذاء ورفع العقوبات (جزئياً) حينما أزال قرار مجلس الأمن رقم ١٤٨٢ كثيراً من الالتباسات القانونية من طريق غزو العراق. في مايو ٢٠٠٢، بمقتضى ذلك القرار أصبحت الولايات المتحدة وبريطانيا هي القوات المحتلة واعترفت الأمم المتحدة بإقامة مجلس الحكم المؤقت.

### التغيرات في الموازين الشيعية/ السنية في هيئات الدولة:

كان لسقوط صدام والنظام البعثي عام ٢٠٠٢ بداية تغيير موازين القوة السنية الشيعية. بيد أنه يجب النظر إلى ظهور القيادات الشيعية كقوة سياسية على أنه نتيجة ثلاثة عوامل مهمة. أولاً، وكما الحال في إيران ولبنان ومصر وفلسطين، عجزت القوى القومية والليبرالية واليسارية العلمانية عن تقديم البديل، ثانياً هذه العوامل هو اضطهاد هذه التنظيمات السياسية المنهجى من قبل الدولة في البلدان المتحالفة مع الغرب. العامل الثالث كان هو إقصاء الجماعات الشيعية سياسياً واقتصادياً منذ الإطاحة بعبد الكريم قاسم عام ١٩٦٢ وتولى حزب البعث. في مارس ٢٠٠٣، حينما سارت قوات الولايات المتحدة للاستيلاء على بغداد، طلب آية الله السيستاني من المجموعات الشيعية عدم المقاومة. وحينما دخلت القوات الأمريكية إلى مدينتي النجف وكربلاء لم تواجه بآية مقاومة. اختار السيستاني تعاوناً مشروطاً مع الولايات المتحدة لأنه رأى في سقوط صدام تحولاً سياسياً كبيراً في صالح الشيعة، فهو يعتبر الإسلام جزءاً جوهرياً من تكوين الهوية القومية العراقية وبالنسبة له فإن الإسلام هو أحد مصادر المرجعية الشرعية ولا ينبغي استبعاده من الكيان القانوني العراقي، بيد أن نموذجاً للحكومة يختلف عن الأنظمة الاستبدادية في المنطقة وعن نظام الحكم في إيران إذ إنه يدعو إلى حياة سياسية إسلامية ديمقراطية وإلى حكم إسلامي ديمقراطي لا حكم

حكم استبدادى. ومن هذا المنطلق فهو يرفض مبدأ ولاية الفقيه الذى تبناه الخمينى. يرى أن مسئولية «المرجع» هو الدفاع عن الجماعات الإسلامية والمسلمة وليس ممارسة السلطة المطلقة فى جميع شئون الدولة، ويدعو إلى قيام حكومة تخضع للمحاسبة على أساس حكم الغالبية وتمثل الهوية الشيعية. كما أن نهجه لإقامة الجسور بين مختلف الطوائف والجماعات على نفس القدر من الأهمية وهو موقف أكسبه دعم الغالبية فى المنطقة. تعترف به كثير من الجماعات الشيعية فى لبنان وسوريا وإيران. وكما جاء فى الفصل الثانى، يدعم موقف السيستانى فى إيران عدد من رجال الدين وبخاصة آية الله شريعتمادارى وآية الله منتظرى، وكما ذكرنا فى الفصل الرابع أيضاً، فقد تصدى آية الله فضل الله الزعيم الروحى لحزب الله لمفهوم ولاية الفقيه. وتمثل ملايين الدولارات التى يتبرع بها الملايين فى المنطقة من أموال الأخماس والزكاة والأوقاف تصويتاً على الثقة به.

وعلى الرغم من دعم السيستانى المشروط للاحتلال وسقوط صدام عام ٢٠٠٣، فقد أصدر فتوى ضد فكرة الأمريكين التى كانت تقضى بأن يضع الدستور أشخاص عينتهم الولايات المتحدة ورأى بدلاً من ذلك أنه ينبغى أن يضع الدستور أشخاص ينتخبهم الشعب العراقى. كما أصر على نظام «فرد واحد وصوت واحد»، لقى ذلك قبولا من غالبية العراقيين، ولادة خمسة أيام تظاهر العراقيون بأعداد كبيرة إلى أن قبل الأمريكيون اقتراحه. تناقش مع الإيرانيين ومع حزب الله من أجل إقناعهم أنه ينبغى عليه التعاطى مع الأمريكين ببراجماتية كى يضمن حقوق الشيعة بدون تهميش أية طوائف أو جماعات أخرى. رأى كثير من العراقيين أن التنوع الشيعى/ السنى/ العربى/ الكردى ظل موجودا تاريخيا بالعراق، وبخاصة فى ظل حكم صدام. إلا أن «مأسسة»

الطائفية بما في ذلك من كيانات الدولة المختلفة هي ظاهرة جديدة بدأت مع احتلال العراق عام ٢٠٠٣. ومنذ وقتئذ، ظل السيستاني يدعو المليشيات ورجال الدين الشيعة لاجتتاب الحرب الأهلية ووصف الانتقام من السنة بسبب الهجمات على الجماعات الشيعية بأنها خطيئة كبرى، ومن هذا المنطلق، اكتسبت رسالته القومية شعبية لدى غالبية العراقيين من مختلف الطوائف والمذاهب والقوميات. أيضاً، رأى أنه ينبغي انتخاب الحكومة الانتقالية بإشراف من الأمم المتحدة.

في عام ٢٠٠٥، شجع السيستاني الجماعات الشيعية المختلفة على الانضمام إلى الائتلاف العراقي الموحد والمشاركة في الانتخابات وفي عملية وضع الدستور كمرشحين وناخبين. اشترك ملايين الشيعة والأكراد في الانتخابات (بمعدل ٥٨٪ ممن لهم حق الانتخابات). بيد أن العرب السنة قاطعوا الانتخابات إذ شعروا أنهم مهمشون وأن الائتلاف العراقي الموحد هو تنظيم طائفي يساهم في تأجيج الصراع. كانت الانتخابات انتصاراً للشيعة إذ فاز الائتلاف بـ ٤٨٪ من الأصوات وبحوالى نصف مقاعد البرلمان (١٤٠ مقعد). فاز مجلس الثورة الإسلامية العراقية وحزب الدعوة بغالبية الأصوات وفاز مجلس الثورة بمعظم مقاعد البلديات. حصلت النساء على ٧٠ مقعداً من مقاعد البرلمان البالغ عددها ٢٧٥ مقعد (أي ٢٥٪ من مجموع المقاعد). أضفت هذه الانتخابات الشرعية على المجموعات الشيعية، أما تحدى هذه الشرعية فتتمثل في النسبة المنخفضة لتمثيل العرب السنة (٢٪). لم يبل أنصار مقتدى الصدر الذين خاضوا الانتخابات مستقلين عن التآلف، بلاء حسناً. ونتيجة لذلك انضموا إلى التآلف في الانتخابات التشريعية عام ٢٠٠٥ حيث حقق هذا التآلف انتصاراً للشيعة ككل، فازوا بنسبة ٤٦٪ من مقاعد البرلمان وحصل أتباع مقتدى الصدر على أكبر نسبة من

التصويت الشعبى، شاركت بعض المجموعات السنّية أيضا فى تلك الانتخابات حيث بلغت نسبة الناخبين من تلك المجموعات ٧٩,٦٪.

فى أبريل ٢٠٠٥، أصبح جلال الطالبانى، الزعيم الكردى الذى عاش فى إيران لسنوات عديدة، رئيسا للجمهورية العراقية فيما أصبح إبراهيم الجعفرى من حزب الدعوة رئيسا للوزراء ليخلفه فى عام ٢٠٠٦ نورى المالكي الأمين العام لحزب الدعوة واحتل محمود المشهدانى العربى السنّى منصب رئيس البرلمان وخلفه فى عام ٢٠٠٩ إياد السمرائى العربى السنّى. يوضح الحضور الشيعى الطاغى فى مواقع السلطة تغير ميزان القوة وتحوله لصالح الشيعة بدلا من السنة، عاد كثير من الشيعة العراقيين الذين عاشوا بالمنفى لسنوات طويلة، وبشكل رئيسى فى إيران وأصبحوا يتحدثون الفارسية عادوا للمشاركة فى حياة بلدهم السياسية. شغل بعضهم المناصب الحكومية، أو مواقع فى المجالس البلدية، وعمل بعضهم بالمساجد والمدارس الدينية، والحوزات ويتواجدون فى مختلف المدن من البصرة إلى بغداد، يمثل بعض هؤلاء النفوذ الإيرانى فى العراق ويعملون على تقوية الروابط بين البلدين، يشعر البعض بارتباط مع إيران من حيث العقائد الشيعية ويلقون بمسئولية الحرب العراقية الإيرانية التى نجم عنها وفاة مليون ونصف المليون شيعى فى البلدين، يلقون بها على صدام حسين.

وعلى الرغم من ارتباطهم الدينى/السياسى بإيران، فإن غالبية الشيعة الذين عاشوا فى إيران لسنوات طويلة حملوا معهم هويتهم العراقية إلى المنفى، يوضح آية الله مهاجرانى، السياسى الإيرانى هذا بقوله:

«خلق الشيعة العراقيون الذين عاشوا فى إيران طوال تلك السنوات مدينة «نجف» مصغرة فى قم. كانوا أثناء مراسم إحياء عاشوراء

يشكلون مجموعات الحدود الخاصة بهم المتميزة عن المجموعات الإيرانية وكانوا يُسمَّون مجموعات النجف أو مجموعات كربلاء، قويت هويتهم العراقية الشيعية سياسياً واجتماعياً في قم، بعد سقوط صدام عانوا إلى العراق وشاركوا في الحياة السياسية العراقية.

**احتلال الولايات المتحدة للعراق يقوى وضع إيران**

إن الروابط بين إيران والجماعات الشيعية في العراق هي شأن تاريخي، بيد أن النقلة التي حدثت في موازين القوة في السلة السياسية لصالح القيادات الشيعية ترتبط بجلاء بدور الولايات المتحدة في العراق ولا ترتبط بإيران، ظلت ثمة روابط بين مجلس الثورة الإسلامية العراقي وحزب الدعوة وبين إيران منذ الثمانينيات وفي ظل الجمهورية الإسلامية. لكل من الحزبين ميلشياته الخاصة مثل فيلق بدر ومجموعة المقاومة. أيضاً، ومنذ ٢٠٠٣، تشكل جيش المهدي التابع لمقتدى الصدر و الذي له روابط مع إيران، بيد أن نفوذ إيران السياسي/ الديني في العراق أكثر تعقيداً مما يصوره به الغرب. ليست تلك التنظيمات مجرد امتداد لإيران تستطيع أن تستغلها وتتلاعب بها. إنها متنوعة ومستقلة عن إيران وما زالت تتنافس مع بعضها على السلطة وفقاً لرؤاها المختلفة حول بناء الدولة في العراق.

في الواقع فإن العلاقة المعقدة بين إيران والعراق سياسية أكثر منها دينية، وكما أسلفنا، فقد نشأ حزب «الدعوة» في إيران في الستينيات، وفيما بعد تركزت أنشطة مناصري آية الله باقر الصدر وآية الله الخميني ضد نظام البعث. كان «الدعوة» أكبر حزب إسلامي، قاعدته من رجال الدين أحياناً وأحياناً أخرى من غير رجال الدين، في السبعينيات كان كثير من أعضاء حزب الدعوة وأنصاره أعضاء في الحزب الشيوعي أيضاً. كان ذلك التنظيم في غالبية ضد الاحتلال، بيد أن الأمريكيين

أقنعوا قياداته بالانضمام إلى مجلس الحكم المؤقت. كان إبراهيم الجعفري الذي أصبح أول رئيس وزراء منتخب قد عاش منفيا في إيران وأوروبا لسنوات طويلة وكان المالكى الذى خلفه قد عاش سنوات طويلة أيضا منفيا في إيران وسوريا.

وكما أسلفنا، فقد تشكل المجلس الأعلى للثورة الإسلامية بالعراق في إيران عام ١٩٨٢، بدأ قيادته في التعاون مع الولايات المتحدة في التسعينيات فيما كانوا مازالوا يتخذون إيران قاعدة لهم، وكانت العلاقات الأمريكية/ الإيرانية وقتئذ في أدنى مستوياتها وكانت إدارة بوش قد صنّفت إيران على أنها عضو في «محور الشر»، وزعمت أن إيران تستغل التنظيمات الشيعية العراقية لتعمل ضد الولايات المتحدة، على حين أن قيادات حزب الدعوة والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، والذين كان لهم علاقات وثيقة مع إيران، كانوا في واقع الأمر يدعمون الاحتلال في ٢٠٠٣، قتل متطرفون من أهل السنة باقر الحكيم وخمسة وثمانين من أتباعه بتفجيرات في مدينة النجف. أصبح شقيقه عبدالعزيز الحكيم الذى كان قد عاش منفيا في إيران لسنوات طويلة، قائدا لمجلس الثورة الإسلامية في العراق. وعلى الرغم من أن عبدالعزيز الحكيم يدعم إيران، إلا أنه يؤيد الاحتلال وله علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة. وعلى الرغم من أن إيران تدعم هذين التنظيمين، إلا أنها تعارض بقوة واتساق احتلال أمريكا للعراق.

أيضا، فإن لموقف آية الله العظمى السيستاني أهميته. ولد في إيران ويحمل المواطنة الإيرانية ويتحدث العربية بلكنة إيرانية لكنه غدا قنّدا ذا شعبية لشيعية العراق. وكما سبق وأوضحنا، فهو برفضه مبدأ ولاية الفقيه يعتبر معارضا للنظام السياسى في إيران، ومن هذا المنطلق، فهو

يحظى بدعم الشيعة وأيضاً المجموعات الأخرى في العراق كما أن إدانته المتسقة للصراعات السنية الشيعية على نفس الدرجة من الأهمية.

وهكذا، دعمت إيران الحزبين اللذين يؤيدان الاحتلال (الدعوة ومجلس الثورة الإسلامية بالعراق) لكنها دعمت أيضاً التيار الصدري المعادي للاحتلال وجيش المهدي، جناحه العسكري. ترجع الروابط بين مقتدى الصدر وإيران إلى ما بعد سقوط صدام مباشرة حيث قام بزيارة آية الله الخامني والحرس الثوري بإيران، وأسمى مليشيمته جيش المهدي إضماراً منه أن تنظيمه يتبع الإمام الشيعي الثاني عشر الذي اختفى في عام ٨٧٤، وخلافاً لمجلس الثورة الإسلامية بالعراق وحزب الدعوة اللذين انضموا إلى مجلس الحكم العراقي الذي شكلته الولايات المتحدة، رفض مقتدى الصدر الانضمام إليه وشجبه بصفته غير شرعي عين أفرادهِ الاحتلال غير الشرعي. لا يعود الفضل في موقفه المعادي للاحتلال إلى تأثير إيران، بل لأن سياسته التي تمزج الإسلام والأيدولوجيا القومية تلقى تأييداً شعبياً من غالبية العراقيين - يتكون أتباعه، بشكل رئيسي من سكان الأحياء الفقيرة في بغداد والبصرة ويلقى أيضاً الدعم من الشيعة التركمانيين بكركوك. وكما بيئاً من قبل، فقد كان والده، آية الله محمد صادق الصدر، يؤمن بوحدة الشيعة والسنة وكان ذا شعبية في أوساط الفقراء وأمد الشيعة الحضريين، وبخاصة في مدينة الصدر التي يبلغ عدد سكانها ٢ مليون نسمة، بالموارد اللازمة. حينما قتل محمد صادق الصدر، واصل مقتدى أعمال والده الخيرية ودعا للوحدة بين الشيعة والسنة. زادت شعبيته عام ٢٠٠٤ حينما قاتل جيش المهدي ضد قوات الولايات المتحدة، تحدى السيستاني ومجلس الثورة الإسلامية وفيلق بدر ودخل جيشه مدينة النجف واحتل ضريح الإمام علي. وخوفاً



من شن هجوماً أمريكياً على الضريح، تدخل السيستاني وحزب الله (العراقي؟) وتفاوضوا معه على سحب جيشه من مدينة النجف.

في عام ٢٠٠٦، دعم مقتدى الصدر وتياره رئاسة المالكي، لكن، وبضغط من واشنطن، شن المالكي هجوماً مسلحاً على الصدرين. في عام ٢٠٠٧، انسحب الصدرين من الائتلاف العراقي الموحد فيما تم القبض على آلاف من أعضاء التيار ومناصريهم واعتبرت الولايات المتحدة التيار الصدرى الذى تدعمه إيران أكبر عقبة يواجهها الاحتلال.

تنامت شعبية مقتدى الصدر، وفي عام ٢٠٠٨، انضم الآلاف إلى المسيرات الاحتجاجية والاعتصامات في بغداد دعماً للقضية التي يناضل من أجلها، ثم قامت قوات الأمن العراقية بدعم من قوات الاحتلال بشن هجمات وحشية على جيش المهدي. قررت إدارة بوش، وحكومة المالكي (حزب الدعوة) والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية بالعراق الذي غير اسمه إلى المجلس الإسلامي العراقي الأعلى في عام ٢٠٠٧، قرروا جميعاً سحق التيار الصدرى. غادر مقتدى الصدر العراق ليقوم في مدينة قم الإيرانية ويواصل دراسته الفقهية هناك. في انتخابات ٢٠١٠، زعم إياد علاوى الذى ترأس الوزراء فى الحكومة الانتقالية لمدة تسعة أشهر فى عامى ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥، زعم أنه فاز على رئيس الوزراء نوري المالكي. حصل تياره، الحركة الوطنية العراقية على ٩١ مقعداً من مقاعد البرلمان البالغ عدده ٣٢٥ مقعد، بزيادة مقعدين على ما حصل عليه ائتلاف المالكي. فاز الائتلاف القومى العراقى، وهو كتلة شيعية تضم مقتدى الصدر، بسبعين مقعداً، وبذلك أثبت التيار الصدرى صلابته قاعدته الشعبية مرة أخرى وأنه ينبغي على من يتولى السلطة التعااطى مع حقيقة أن مقتدى الصدر قوة يجب أن تؤخذ فى الحسبان.

تُبين تلك الأحداث التاريخية أن إيران، وبدون شك، ظلت تعمل وفقاً

لمصالحها وتدعم التنظيمات الشيعية بما يتفق مع أجندتها. بيد أن الولايات المتحدة بسياساتها التي تقوم على توحيد الحكومة مع المجلس الإسلامي العراقي الأعلى ضد مقتدى الصدر تعمل على إذكاء فتنة شيعية/ شيعية واندلاع حرب أهلية شيعية في العراق. وكما بين جوناثان سبتل، فهذا يماثل سياسة الولايات المتحدة في فلسطين حيث تقوم بتمويل فصائل فتح الذي يرأسه محمود عباس وتسليحه ضد حركة حماس وتتسبب بذلك في الانقسام الفلسطيني الفلسطيني. تتهم الولايات المتحدة إيران بدعم التيار الصدري، بيد أن إيران تدعم أيضاً حزب الدعوة والمجلس الإسلامي العراقي الأعلى، والفرق هو أن هذين التنظيمين يؤيدان الاحتلال فيما يعارضه الصدر وأتباعه.

أيضاً فإن قضية الفدرلة، التي هي شكل آخر للطائفية، محل نزاع بين تلك التنظيمات. في عام ٢٠٠٥، أيد الحكيم والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية بالعراق قيام دولة فدرالية في وجود كونفدرالية شيعية في المناطق الجنوبية تتشكل بحيث يتاح لها نسبة من إنتاج حقول النفط الجنوبية.

رفض السيستاني، والدعوة، والصدور، والقوميون العلمانيون هذا المقترح وأدانوا أي شكل من أشكال الفدرالية. ظلت إيران دائماً ضد الفدرالية في العراق لأنها ستعمل على زعزعة الأوضاع وتهدد أمن إيران، وبخاصة إذا قامت دولة كردية مستقلة لديها وقرة من احتياطي النفط. خسر الفدراليون انتخابات ٢٠٠٩، بضغط من ٨٦٪ من سكان العراق الذين يعارضون أي تقسيم للبلاد.

من الجلي أن التأثير الديني/ السياسي لإيران في العراق يتمثل في السيستاني والتنظيمات الشيعية بما فيها التيار الصدري حيث تؤيد

بعض تلك التنظيمات الاحتلال وتعارضه الأخرى. أما بواقع إيران فتتعلق بشكل أساسي بالدفاع عن نفسها أكثر مما تتعلق بالهيمنة الشيعية أو الإقليمية. فواقع الأمر هو أن سقوط حكم طالبان في أفغانستان وصدّام بالعراق كان لصالح إيران، وبخاصة في العراق حيث تولى السلطة نظام يهيمن عليه الشيعة. وعلى الرغم من ذلك، تواجه إيران تهديداً مستداماً بالتدخل العسكري من جانب الولايات المتحدة وإسرائيل، أو حتى هجوم آخر من العراق. يذهب بعض المحللين إلى أنه إذا حدث تهديد لأمن إيران فستتولى الرد، وفي تلك الحالة ستعاني المنطقة بكاملها. وفي الواقع، فإن قوات الولايات المتحدة ما فتئت تقوم بعمليات عبر/حدودية من شمال العراق وجنوبه. بحلول عام ٢٠٠٨، كان مدى المهام التي قامت بها السى آى إيه وقيادة العمليات الخاصة المشتركة ضد إيران وحجمها قد تعاظمت بموافقة الحكومة العراقية وتفويضها. مضت إيران، وهي على علم تام بهذا الوضع، في دعمها للحكومة العراقية وجميع الأحزاب الشيعية. ولكي تؤمّن نفسها ضد أى تهديد من جانب الولايات المتحدة وحلفائها، فإن إيران ماضية في إقامة تحالفات، غالباً ما تكون غير مستقرة، بل ومرتبكة أحياناً مع الحركات الشيعية بجميع أطيافها السياسية في العراق. في عام ٢٠٠٨، حينما أعلن المالكي أن العراق على غير استعداد لتكون قاعدة تنطلق منها العمليات السرية ضد إيران، أوضح هذا بجلاء أن إيران قد نجحت في إقناع الحكومة العراقية بعدم السماح للولايات المتحدة باستخدام العراق قاعدة للهجوم على إيران.

### أوجه النقل للدور الإيراني

يتفق عراقيون كثيرون بالداخل العراقي وبالشركات بمن في هذا المجموعات الشيعية في طهران ودمشق ولندن، يتفقون على أن الكارثة

الكبرى التى حلت بالعراق هى نتيجة الاحتلال الأمريكى، لكنهم أيضا ينفقون بشدة موقف إيران بل ويبدون العداء له، فهم يرون أن الحكومات الثلاث جميعها مسئولة عن استمرار الفساد والعنف والتدهور الاقتصادى، تقول زينب الأكاديمية العراقية.

«أمل الشعب، بعد سقوط صدام، فى إعادة الإعمار والديمقراطية. بيد أن العراق الآن أصبح «سفرة» مفتوحة يدخل إليها الجميع لتحقيق مصالحهم لا مصالح الشعب العراقى، غدت العراق ميدانا للمعارك بين إيران وأمريكا، تتنافس كل منهما على تمويل المجموعات المختلفة وتنفق الأموال على الأسلحة التى يقتلون بها بعضهم، حتى أن الشيعة يقتلون الشيعة ويقتل أهل السنة السنة الآن، بنفس الأسلوب الذى يقتل به الشيعة السنة ويقتل به السنة الشيعة».

وفى رد على هذا، يقول السياسى الإيرانى آية الله مهجرانى إن: «إيران تدعم الحكومة العراقية بصفتها ممثلة للعراقيين جميعهم لا للشيعة فقط، وإذا كانت الحكومة العراقية لا تعمل لمصالح الشعب العراقى، ولا حتى لمصالح الشيعة، فإن هذا مرده هو الاحتلال الأجنبى الذى ترزح العراق تحته، لم تعترف إيران أبدا باحتلال العراق، وظلت، منهجيا، تطالب بانسحاب القوات الأجنبية، قبلت الحكومة العراقية بالاحتلال، لقد فشلت الولايات المتحدة فى العراق وأفغانستان وأوجدوا أوضاعا كارثية فوضوية، بيد أن إيران لا تستطيع القيام بعهام الحكومة العراقية للشعب العراقى، لكن ينبغى عليها فى نفس الوقت دعم الحكومة العراقية».

يذهب سامى رمضانى إلى أنه لا يمكن المساواة بين إيران والولايات المتحدة إذ إن ما تقوم به إيران هو رد فعل على وجود الولايات المتحدة بالعراق، كما أنه ليس بوسعنا أن ننسى مساندة الغرب لصدام حسين

إبان الحرب الإيرانية العراقية بهدف سحق الثورة والقضاء عليها. بين لي أننا:

«إذا أخذنا هذه الخلفية في الاعتبار سنفهم سبب رد فعل إيران على الولايات المتحدة في العراق. إيران هي الطرف المُهدَّد ويحتمل للعراق أن تكون أكبر قاعدة للهجوم على إيران. ثمة ٥٠٠٠ من أفراد تنظيم مجاهدي خلق بالعراق سلَّحتهم الولايات المتحدة ودربتهم، وهم على استعداد لتنفيذ «تغيير النظام» بإيران. وفي مناسبات عدة، قاموا بالعبور من معسكرهم إلى الداخل الإيراني لتنفيذ الاغتيالات والتدمير. تدخل الوحدات الإسرائيلية إلى إيران من كردستان، وتقوم إسرائيل بتسليح الحزب الكردستاني».

تقوم الولايات المتحدة، ومن أجل تقويض المقاومة الوطنية ضد الاحتلال، بتمويل المليشيات السنية، وتأجيج المشاعر المعادية للشيعية وإيران. وعلى المستوى الإقليمي، أوجدت الولايات المتحدة تحالفا معاديا لإيران من الدول العربية ذات القيادات السنية، وعلى المستوى الدولي، تقوم بتصوير إيران على أنها تهديد إقليمي لكي تقوم هي بدور رجل الشرطة في منطقة الخليج بذريعة التوسط في الخلاف الشيعي السني المُصنَّع عن عمد. يواكب هذا حملة دعائية عنصرية معادية لإيران في الإعلام العربي. وعلى الرغم من هذا، تتمتع إيران بشعبية لدى معظم شعوب الشرق الأوسط على الرغم من الاختلاف المذهبي. بيد أن لمعظم العراقيين نظرة إلى إيران تختلف عن نظرائهم في فلسطين ولبنان حيث يشعرون أن إيران قد خذلتهم بل وخانت قضيتهم بنفس الأسلوب الذي يشعر به الفلسطينيون واللبنانيون بخيانة الأنظمة العربية الموالية للغرب لقضاياهم.

لا يجري العمل وفقاً لنموذج حزب الله اللبناني بنجاح في العراق.

فكما أسلفنا فى الفصل الرابع، أدى تآلف حزب الله مع قطاع كبير من السنة والمسيحيين إلى زواء الصراعات المذهبية والسنية؛ هذا بالإضافة إلى أن حزب الله يقوم بتوفير الرعاية الاجتماعية لمختلف الجماعات وقاد مقاومة ناجحة ضد إسرائيل. بيد أن الحكومة التى يهيمن عليها الشيعة فى العراق لا تستطيع، بصفتها تدير دولة عميلة للولايات المتحدة، حل الصراعات بين المجموعات السنية والشيعة بل إنها غير راغبة فى ذلك. تشتبك العصابات الإجرامية المسلحة فى هجمات ضارية لحساب الفصائل السياسية وتتصارع مع بعضها للسيطرة على تجارة السوق السوداء فى النفط. كثير منها يلجأ إلى العنف والجريمة بانتهازية ضد الجماعات المختلفة من أجل مكاسبها المادية. انتشرت أنشطة تهريب النفط والمخدرات والخطف؛ فيما تتدهور سريعاً أساسيات الحياة مثل إمدادات المياه والكهرباء، والرعاية الصحية والتعليم وفرص العمل؛ وترتكب أعمال القتل الطائفية والقتل على الهوية من قبل المتطرفين السنة والشيعة معاً.

فى عامى ٢٠٠٥ و٢٠٠٦، كانت أعمال العنف الطائفية والمذهبية يقوم بها جماعات من غير العراقيين بشكل أساسى، مثل تلك المجموعة التى كان يقودها أبو مصعب الزرقاوى الأردنى المرتبط بالقاعدة التى شنت أبشع الهجمات عنفاً ووحشية ضد مختلف الجماعات، لكن غالبيتها كان موجهاً ضد الشيعة ومنذ وقتئذ تعاضمت الصراعات الطوائفية وامتدت إلى خارج بغداد. يقوم بالهجمات الإسلاميون السنة والبعثيون والإسلاميون الشيعة. يعتقد كثير من العراقيين أن الدولة العميلة للولايات المتحدة والتى يهيمن عليها الشيعة وتدعمها إيران هى المسئولة عن هذا الصراع العنيف، وأيضاً فهى تتحمل مسئولية الفساد وتردى الأوضاع الاقتصادية.

يوجد حوالي ٢ مليون مسلح ينتمون إلى تنظيمات نشطة بالعراق، وهؤلاء مزيج من قوات الاحتلال، والمرتزقة الأجانب المتعاقد معهم، والقوات العراقية التي يدعمها الاحتلال، والمليشيات العراقية السرية التي تتحكم فيها الولايات المتحدة، ومجموعات الخطف الخاصة، والمليشيات وقوات المقاومة التابعة لأحزاب مختلفة. تختلف دقة المعلومات المتاحة عن الضحايا بدرجة كبيرة. تقول هيفاء زنجاتا إن عدد القتلى العراقيين منذ عام ٢٠٠٢ بلغ مليون شخص. يعاني الناس من مختلف الإصابات نتيجة استخدام الولايات المتحدة والبريطانيين لقذائف اليورانيوم المنضب. تم تدمير بنية البلد الأساسية بكاملها، وثمة المئات من المواقع الخطرة في بغداد وحدها نتيجة إلقاء القنابل العنقودية. بحلول عام ٢٠٠٥، كانت المياه النظيفة متاحة لنسبة ٢٣٪ فقط من العراقيين، وفي عام ٢٠٠٦، هبط معدل توليد الكهرباء إلى ٤١٠٠ ميغاوات، وكلا الرقمين أقل كثيرا كثيرا من المستويات التي كانت عليها قبل الغزو. تعاظمت معدلات البطالة، وغدت غالبية الشعب على حافة الإملاق. ومثلما هو الوضع في أفغانستان، لا يستفيد الشعب العراقي من المليار دولار التي تمول بها الولايات المتحدة إقامة المنظمات غير الحكومية والديمقراطية، ولا يستفيد أيضا من اقتصاد السوق الحر الذي تشجعه الولايات المتحدة والمؤسسات المالية الدولية. فقد استُخدمت تلك الحجج ذريعة لاحتلال الولايات المتحدة العسكري للعراق ولا يتربح منها سوى الكوربورشنات والشركات الدولية التي تستغل موارد العراق وتستنفدها.

وكما هو الوضع في أفغانستان، لم يحدث سوى تغيير طفيف جداً في قضايا الجندر في العراق، هذا على الرغم من أن النساء يشغلن أكثر من ربع مقاعد البرلمان، تخشى النساء العراقيات أيضاً من صعود التطرف الديني ومن هيمنة الإسلاميين المحافظين على مؤسسات الدولة. لا يردن

تصدير ممارسات الجندر المحافظة السائدة في إيران مثل التحجب الإجباري.

تقول الصحفية نجد:

«يشجع السياسيون الشيعة الحجاب. أخبرني بعضهم أنني إذا ارتديت الحجاب سأترقى إلى منصب بارز في إعلام الدولة لكنني رفضت العرض. الحجاب مسألة شخصية بالنسبة للنساء، وإننا نحن من نقرر إن كنا نحتاج إلى ارتدائه أم لا. لا أن يجبرنا السياسيون أن نرتديه من أجل أن نترقى».

تعاظم العنف ضد من يعملن بالسياسة، تشمل أمثلة الهجوم على النساء داخل مؤسسات الدولة اغتيال عقيلة الهاشمي وكانت عضوا في مجلس الحكم العراقي عام ٢٠٠٣؛ واغتيال أمل المعملش وكانت تعمل مستشارة لوزارة البلديات والأشغال العامة في عام ٢٠٠٤؛ ومحاولة اغتيال سلمى الخافجي وكانت أيضا عضوا في مجلس الحكم العراقي عام ٢٠٠٤. بالطبع تحدثت مئات الهجمات يوميا على عامة النساء ولا يرد لها ذكر. تقاتل ميلشيات الحكومة، والجماعات القبلية وميلشيات الطوائف (السنية والشيعة) بعضها. تم تدمير المرافق العامة والمؤسسات العامة مثل المرافق والمؤسسات التعليمية والصحية التي كانت قائمة في عهد صدام. أدى هذا بدوره إلى ظهور شبكات طائفية جديدة وقوية تتصارع مع بعضها، ليس على القضايا الدينية، بل على السلطة السياسية. وفي ظل هذه الأوضاع، يرى الكثيرون أن إيران تتحمل مسؤولية جزئية. بحلول ٢٠٠٦، كان ثمة ٢ مليون عراقي اقتلَعوا وهُجروا داخليا، فيما التجأ ٢ مليون آخرون إلى خارج العراق. ووفقا للهِلال الأحمر العراقي، فإن ثلثي المقتلعين والمهجرين هم من النساء والأطفال. بينت لى أحلام التي شهدت أزمة النازحين في سوريا قنلة إنه:

«منذ الاحتلال أجبر الكثيرون على مغادرة العراق. قُتل الكثيرون أثناء



عملية النزوح، واغتُصبت نساء كثيرات، وعاش الكثيرون في المناطق الحدودية. ثمة أعداد كبيرة ممن أُجبروا على الهجرة يعيشون في بلدان الجوار في أوضاع رهيبة. يعاني النازحون من مشاكل كثيرة، وبخاصة الأسر التي تقوم عليها النساء وآخرون من المعرضين للخطر ومن هم بحاجة إلى رعاية، ولا يوجد أحد يعي حتى أوضاعهم، ولا يتحدث عنهم أحد.

بل إنه حتى في المناطق الكردية حيث مستوى العنف منخفض نسبياً وتوجد درجة من الاستقرار الاقتصادي، يحتج الناس ضد الفساد والقمع السياسى وعدم المساواة الاقتصادية. قام الناس في حلبجة بإحراق متحف تذكاري قائلين إن الحكومة لا تفعل شيئاً إزاء عدم وجود مرافق أو موارد وإنهم يأتون مرة كل عام بسياراتهم الفارهة لينعموا بمشاهد معاناة الناس.

قالت إحدى النازحات، واسمها أم إيمان إن:

«الطالبات والبرزاني يديران الحياة السياسية في كردستان. يتحكمان في جميع الموارد ولم يفعلوا سوى أقل القليل لصالح الأكراد العاديين. ليست لدينا كهرباء أو مياه، ولا يوجد سوى أنشطة اقتصادية قليلة جداً. غدت الممارسات القبلية القديمة مثل القتل بسبب الشرف، والزيجات الإجبارية وكبار السن الذين يتزوجون صغار الفتيات، غدت هي المعايير الاجتماعية، وإضافة إلى المشاكل الاقتصادية، أوجدت كل هذه العوامل أوضاعاً بشعة بالنسبة للنساء مثل الأوضاع التي تعاني منها بقية النساء في أنحاء العراق. نرى في الجزء الكردي جرائم ترتكب ضد النساء، على حين أن انعدام الأمن في أنحاء العراق الأخرى لا يسمح برؤية هذه الجرائم. الناس يقتلون يومياً، وتقتل النساء يومياً وتباع الفتيات في أسواق الدعارة».

يقوم الجنود من القوات الغازية وقوات الشرطة العراقية باغتصاب النساء العراقيات على نطاق واسع أثناء الغارات التي يشنونها على البيوت وعمليات الاعتقال التي يقومون بها. تُغتصب النساء في المعتقلات وداخل بيوتهن بعد اعتقال ذويهن من الذكور، وبعد أن يُسَقَّن إلى أقسام الشرطة بتهمة مساعدة المتمردين. يمارس التعذيب، على غرار أبوغريب وغيره من الأنواع في جميع السجون والمعتقلات العراقية. كان ما فعله منتظر الزيدى الصحفي الشاب الشيعي الاشتراكي حين ألقي حذاءه في وجه بوش في ديسمبر ٢٠٠٨ قائلاً: «هذه قبلة وداع لك يا كلب من الأرامل والأيتام والقنلى العراقيين» كان يرمز إلى غضب الشعب وتحديا للحكومة العراقية المدعومة من الولايات المتحدة. أصبح الزيدى بطلا على المستوى القومي والإقليمي وفي أعقاب سجنه اندلعت التظاهرات المؤيدة له والمعادية للحكومة والاحتلال في النجف والفلوجة وبغداد والموصل وطالبت بإطلاق سراحه.

بالتأكيد لا يمكن مقارنة دور إيران بدور الولايات المتحدة في العراق بيد أن كثيرا من العراقيين يرون أن ثمة احتلالاً مشتركاً من قبل البلدين. قالت لى عائشة أيضاً:

«يمثل الوضع أوضاع الحرب الباردة حيث يتعاون الطرفان على قضايا معينة ويتقاتلان ضد بعضهما فقط عامة الناس هم من يعانون. تستخدم إيران والولايات المتحدة العراق لتسوية خلافتهما. إن هذا أكثر من مجرد رياء، إنها سياسات القوة والعراقيون هم الضحايا».

بالطبع فإن مقاومة الاحتلال والحكومة التي تدعمها إيران تضطلع بها أيضاً تنظيمات مدنية حقه، في عام ٢٠٠٤، تم إنشاء مؤتمر مؤسسة العراق الوطنية، وكانت تلك منظمة معارضة لنظام صدام وللاحتلال ولأى تقسيمات على أساس فروع طائفية أو دينية أو إثنية. الشيخ جواد

الخليلى، عالم الدين الشيعى المرموق، هو أمينها العام ومن بين الأعضاء المؤسسين مثنى الضارى المتحدث باسم رابطة علماء المسلمين السنة وميض نظمى القومى العربى العلمانى. شجبوا الإرهاب ودعوا إلى إنهاء الاحتلال ووحدة الشعب العراقى. بيد أنهم ليس لديهم جناح عسكرى ويعملون على المستوى السياسى فقط، وعلى الرغم من أنهم يخاطرون مخاطرة كبرى لأنهم ناشطون، وأن تأثيرهم محدود، إلا أنهم يواصلون العمل فى بغداد.

أيضا أقيم تنظيم نسائى يسمى «العمل معا» ومقره لندن هدفه إيقاظ الوعي حول قضايا النساء فى ظل الاحتلال. فتحت ميسون بشاشى، وهى صانعة أفلام، مدرسة لصناعة الأفلام فى بغداد عام ٢٠٠٤ إلا أنها اضطرت لإغلاقها فى عام ٢٠٠٧ بسبب الصراعات الطائفية لكنها أعادت فتحها مرة أخرى فى عام ٢٠٠٩، درست مدرستها ثمانين سينمائيا/ سينمائية من الشيعة والسنة والاكرد والعلمانيين صنعوا أحد عشر فيلما وثائقيا. توضح جهود الأفراد والمجموعات لتوحيد مختلف التيارات كيف أن العراقيين يحذوهم الأمل فى مستقبل أفضل. تدمر الحروب والصراعات والاحتلال الأجنبى والاجتياح مختلف المجموعات السكانية. تلعب النساء بخاصة أدوارا مهمة لتوليد الشبكات (الاجتماعية) وإرساء المعايير فى جماعاتهن، وبهذا الأسلوب فإن ثمة رفضا جميعا لقوات الاحتلال الأجنبى وللقوات الطوائفية والمذهبية وبخاصة فى بغداد حيث تقام الأسوار لفصل الأحياء الشيعية عن السنية.

علقت هنا، ناشطة حقوق النساء ومؤسسة جمعية «إرادة النساء العراقيات» عام ٢٠٠٢، بقولها:

«ظل ثمة اختلاف بين الشيعة والاكرد والسنة، فقهاء وتاريخيا، وثقافيا، لكن هذا الاختلاف تم تسييسه منذ الاحتلال. لسنوات طويلة

ظلت هناك تزاوجات وتناغم بين تلك المجموعات. كان الاحتلال هو من خلق الصراعات العنيفة بينها وحتى اليوم، فإن الجماعات السنية والشيعة لا يقتلون بعضهم، فهناك مجموعات أوجدتها الاحتلال والحكومة تقاتل بعضها وتقتل بعضها. وفي منظمتي وحتى يومنا هذا تعمل كثير من النساء الشيعيات والسنيات والكرديات جنبا إلى جنب ويحاولن تقديم المساعدات للنساء من مختلف الأطياف ممن هن بحاجة إلى مساعدة. قامت الحكومة وقوات الاحتلال بإقامة جدران إسمنتية لفصل المجموعات المختلفة عن بعضها وقد خلقت هذه الجدران التوترات والصراعات، لكن الناس يحاولون كسر تلك الجدران التي فرضت عليهم بشتى الطرق مثل إقامة حفلات الزفاف على كل من جانبي الجدران في أن».

أيضا، رفعت اتحادات عمال النفط والموانئ أصواتهم، سيطروا على الموانئ وكبرى حقول النفط في احتجاج منهم على «قانون النفط» الجديد الذي، وبناء عليه، تجرى خصخصة صناعة النفط والسماح للشركات الأجنبية الدولية بالتحكم في إنتاج النفط العراقي وتسويقه. يقول سامي رمضان:

«تم وضع مخطط قانون النفط في الولايات المتحدة قبل غزو العراق، حيث تشكلت لجنة في وزارة الخارجية الأمريكية ضمت عددا من العراقيين (الموجودين في الولايات المتحدة). وضعوا قانون النفط في عام ٢٠٠٧، الذي يعنى أن تتحكم كوربورشنات النفط الأجنبية في الإنتاج والمبيعات والأسعار، وتستولى على ما بين ٧٠٪ و ٨٠٪ من الأرباح. تعارض غالبية الشعب هذا القانون ولعب عمال النفط دورا مهما في معارضته. نتيجة لذلك، لم يتم بعد تمرير القانون، لكن الحكومة وقعت العقد مع شركة BP عام ٢٠٠٩. ثمة خلاف أيضا بين الحكومة والقيادات الكردية حيث يريدون الاستمرار في الاتفاق الحالي الذي

يخصّص بمقتضاه ١٧٪ من عائدات النفط للمنطقة الكردية والسكان الأكراد.

قامت الولايات المتحدة بصفتها القوة العظمى بتدمير العراق كبلد عامل فاعل واستخدمته قاعدة تهدد منها سيادة إيران. على الجانب الآخر، قامت إيران بمناورات للتواجد بالعراق لمجابهة التهديد المحتمل من الولايات المتحدة. عمل هذا المزيج على تحويل العراق إلى فسيفساء من الفصائل المتناحرة فيما تُنتهك أعداد هائلة من الناس. وعلى الرغم من أن الشرائح المختلفة في المؤسسة السياسية الإيرانية آراء متنوعة بشأن العراق، بيد أنه ثمة إجماع في إيران على الحاجة لخروج الولايات المتحدة من العراق. وفي نفس الوقت فقد عملت الحكومات الإيرانية المختلفة ما في وسعها لإجبار الولايات المتحدة على التعاون معها.

بيد أنها تحققت أنه طالما استمرت إيران في دعم القوى المناهضة للاحتلال، لن ترحل الولايات المتحدة من العراق أو تُنتهى احتلالها. من ثم، بدأت إيران في التراجع عن دعم التيار الصدري والقوى الأخرى المناهضة للاحتلال. وبناء على ذلك سلمت الولايات المتحدة معسكر أشرف إلى الحكومة العراقية كجزء من خطة للانسحاب من العراق. عمل هذا في صالح إيران إذ إن منظمة مجاهدي خلق كانت تستخدم ذلك المعسكر لشن الهجمات ضد إيران.

في عام ٢٠٠٩، أعلنت بريطانيا والولايات المتحدة جدولاً زمنياً للانسحاب من العراق، بيد أن غالبية العراقيين يتشككون في أن الانسحاب سيكون كلياً. مازالت القوات المسلحة البريطانية موجودة في بعض القواعد، كما أن ١٣٢٦١٠ من المسلحين الأجانب المتعاقد معهم سيظلون متواجدين، وقامت قوات الولايات المتحدة بإعادة ترسيم حدود بعض المدن مثل الموصل وبعقوبة وأعلنت أنها ستظل هناك حتى أغسطس ٢٠١٠. وفي ظل تلك الأوضاع، وطالما بقيت الولايات المتحدة بالعراق،

ستشعر إيران أنها مهددة وستستمر في دورها هناك. وفي حوار لي معه، يقول سامي رمضان:

«تهدف استراتيجية الولايات المتحدة إلى وجود دولة عميلة تابعة في العراق، لكنها لن تستطيع تحقيق ذلك من خلال صناديق الاقتراع بل من خلال تواجد فيزيقي قوى لها هناك. يزعمون أنهم يعملون على بناء الجيش العراقي وقوات الأمن والمؤسسات الأخرى، لكن تلك الجهات يعمل بها عدد جد كبير من «المستشارين» الأمريكيين، وهذا وضع لا يتقبله العراقيون وسيستمرون في مقاومتهم ضد وجود القوات الأجنبية. ولهذا السبب، لن تتسحب الولايات المتحدة من العراق في المستقبل المنظور إلا إذا غيروا سياستهم تجاه العراق والشرق الأوسط أي إذا تركوا الشعب العراقي يعمل تحالفاته الخاصة مع البلدان المجاورة مثل إيران ولبنان وفلسطين. من ثم، فإنني لست متفائلاً على المدى القصير، لكنني واثق أننا سنستعيد استقلالنا على المدى البعيد».



لصویر

أحمد ياسين

لوینر

@Ahmedyassin90

---



## العلاقة بين إيران وفلسطين وحماس

يعود تاريخ فلسطين ككيان جيوسياسي إلى عام ٢٠٠٠ ق م، كانت منذ عام ١٥٠٠ قبل الميلاد أرض الكنعانيين، ذلك الشعب القديم الذي خضع فيما بعد لحكم المصريين والفلسطينيين وبنى إسرائيل والفينيقيين والبابليين والفرس والمقدونيين والرومان و العرب والصليبيين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين. فتح المسلمون فلسطين عام ٦٣٨م وسمحوا للناس من مختلف الأديان والعقائد بالعيش بسلام هناك ورحبوا بالحجيج من جميع الأديان. عاش الأهالي الأصليون، المسلمون منهم والمسيحيون واليهود معاً في سلام في ظل الحكم الإسلامي، بالتقابل مع غياب التسامح ووجود التعصب آنذاك في أوروبا المسيحية عصر الأوسطية، بين عامي ١٠٩٧ و١٢٩١ شن الصليبيون الغربيون حروباً للسيطرة على فلسطين وارتكبوا المذابح التي قتلوا فيها عشرات الآلاف من السكان المسلمين [والمسيحيين واليهود المشرقيين] ومن ثم حكموا القدس لمدة سبعين عاماً قبل أن يهزمهم صلاح الدين ويحرر المدينة.



كان الحكم العثماني لفلسطين شديد التسامح مع المسيحيين واليهود. كانت تلك المجموعات تتمتع بالاستقلال الذاتي وكان لها قدر كبير من السلطة على حكم نفسها بما في هذا جباية ضرائبها الخاصة وتوزيعها، وكان هذا نظاماً أكثر تقدماً بكثير من أي نظام معاصر في تعاطيه مع مجموعات الأقليات الدينية. بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية وفرض الحكم البريطاني الكولونيالي، طالب الفلسطينيون لأنفسهم بدولة ذات سيادة، بيد أن وعد بلفور عام ١٩١٧ الذي كان نتاج المصالح البريطانية الإمبريالية والصهيونية اليهودية والمسيحية عمل على تسهيل إقامة دولة يهودية في فلسطين. بعد الحرب العالمية الأولى دعمت الحركة الصهيونية الحكم الكولونيالي البريطاني في فلسطين، وبعد سلسلة طويلة من الاحتلالات والمناورات السياسية تدفقت الهجرات اليهودية من أوروبا على

فلسطين، ولتبرير اقتلاع الأما إلى الفلسطينيين تم تصوير المستوطنين اليهود الأوروبيين والعصابات الصهيونية المسلحة على أنهم متحضرون، والفلسطينيين على أنهم «جماعات غير يهودية» من العرب الشرقيين الهمج المتخلفين، سحق الجيش البريطاني بدعم من الأيديولوجيات المسيحية الصهيونية انتفاضة الفلسطينيين ضد الاستعمار التي استمرت من عام ١٩٣٦ وحتى عام ١٩٣٩. أقيمت دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ بعد الحرب العالمية الثانية وغدت إحدى الأصول الاستراتيجية للولايات المتحدة في المنطقة، بصفتها كيانا عسكريا لحماية المصالح الغربية وإمدادات النفط. ومنذ إنشائها ظلت تلك الدولة وذاك المجتمع نو التركيب العسكرية في حروب مستدامة ضد الفلسطينيين وشعوب الدول العربية. ظلت النساء الفلسطينيات يلعبن دورا مهما في المقاومة والحركات

القومية. تُبين النظرة السريعة على تاريخ الحركة النسائية أن «اتحاد النساء الفلسطينيات» قام بتنظيم تظاهرات ضد وعد بلفور عام ١٩٢١. وفي عام ١٩٢٩، حضرت مائتا موفدة أول مؤتمر للنساء العربيات في فلسطين وأثناء الانتفاضة التي اندلعت بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٩ قاومت النساء البريطانيين والصهاينة، وبدءا من عام ١٩٤٨ وإلى عام ١٩٦٤/١٩٦٥ ابتدعت تنظيمات نسائية متنوعة أشكالاً جديدة من الأنشطة المعادية للاحتلال.

استُخدمت الهلوكوست تكراراً لتبرير إقامة دولة إسرائيل ومحاولة إعادة تشكيل أرض الفلسطينيين «أرضاً يهودية»، ومثل الهلوكوست، بالنسبة للفلسطينيين، فإن نكبة عام ١٩٤٨ جريمة ضد الإنسانية يعاقب عليها القانون الدولي وتناظر التطهير العرقي في القارات الأمريكية وإفريقيا وأستراليا الذي ارتكبه المستعمرون الغربيون وفي الحرب المستدامة التي بدأت عام ١٩٤٨ [وقبلها على يد العصابات الصهيونية] قتل الصهاينة الفلسطينيين في سبعين مذبحة. كانت مذبحة دير ياسين الشهيرة ترمز إلى مستوى الرعب والبشاعة المستخدمة لإجبار الفلسطينيين على النزوح من أراضيهم ومنازلهم. وضع الإسرائيليون قانون «أمالك الغائبين» الذي صادروا بمقتضاه الأوقاف الإسلامية التي كانت تشمل مساحات كبيرة من الأملاك والأراضي الموقوفة في فلسطين التاريخية. فقد الفلسطينيون أكثر من ٧٨٪ من بلدتهم بما في هذا القدس الغربية [ويجرى الآن الاستيلاء على القدس الشرقية وتهويدها]. أصبح الفلسطينيون لاجئين وطُردوا إلى الضفة الغربية وغزة ولبنان وسوريا؛ حُرِّموا من أرضهم وهويتهم الوطنية وانتهى الأمر بالكثيرين منهم إلى العيش لاجئين في المنفى.

ومن هذه الخلفية، تتضح أهمية دور إيران في الشرق الأوسط في الخمسينيات، وكما أسلفنا في الفصل الأول، اكتسب انتصار حركة مصدق القومية التي دعمها الشيوعيون والإسلاميون، شعبية في المنطقة. ألهم تأميم النفط الإيراني موجة من الحركات المعادية للإمبريالية في جميع أنحاء الشرق الأوسط. بيد أن الانقلاب الأمريكي/ البريطاني عام ١٩٥٣ غير موقف إيران. شكّل شاه إيران وإسرائيل وتركيا تحالفا ضد العالم العربي. وفي مواجهة صعود التيارات القومية والشيوعية في المنطقة وقتئذ كان هذا التحالف مهما لإيران كونها بولة خط أمامي في الحرب الباردة، ودعمت الولايات المتحدة تحالف إسرائيل مع شاه إيران وعملت على تقويته. اعترفت إيران بدولة إسرائيل وأمدتها بحوالي ٨٠٪ من احتياجاتها النفطية. وعلى الرغم من عدم تنفيذ إسرائيل لقرارات الأمم المتحدة القاضية بعودة اللاجئين الفلسطينيين وتعويضهم فقد استمرت إيران في علاقاتها الاقتصادية مع إسرائيل، وكما سنوضح في الفصل القادم، فقد ازدادت تلك العلاقات قوة في أعقاب حرب السويس عام ١٩٥٦، وبخاصة في مجالات التعاون العسكري والاستخباراتي بما في هذا التعاون الوثيق بين جهازى الموساد الإسرائيلى والسافاك الإيراني، وظل هذا التعاون قائما حتى سقوط الشاه عام ١٩٧٩.

منذ الخمسينيات وحتى السبعينيات كانت تيارات القومية العربية العلمانية والأيدولوجيات الماركسية ذات شعبية في فلسطين مثلما كان الحال في معظم أنحاء المنطقة، تشكلت منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤ وتبنت النضال المسلح لتحرير فلسطين، ومعها الدعوة إلى إقامة دولة فلسطينية ديمقراطية علمانية يعيش فيها العرب ويهود ما قبل عام ١٩٤٨ معا. خاض ياسر عرفات كرئيس لمنظمة فتح، كفاحا مريرا وكسب اعتراف غالبية الشعب الفلسطيني والشعوب العربية والإسلامية.

بيد أن إضعاف تيار القومية العربية والدعم الغربى المؤيد لإسرائيل جعلاً من المستحيل على منظمة التحرير مواصلة العمل على تحقيق هدفها بتحرير فلسطين.

فى عام ١٩٦٧، هاجمت إسرائيل مصر وسوريا والأردن واستولت على شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة من مصر، وهضبة الجولان من سوريا، وأيضاً الضفة الغربية والقدس الشرقية اللتين كانتا فى عهد الأردن. بعد ١٩٦٧ برز الدور الفاعل لحركات المقاومة ضد الاحتلال الصهيونى للضفة وغزة، وكان الالفت فيها مشاركة النساء، وبخاصة لىلى خالد عضو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والمجلس القومى الفلسطينى والتي أصبحت أسطورة لمشاركاتها فى عمليات لاختطاف الطائرات من أجل جذب أنظار العالم إلى البشاعات التى ترتكب ضد الفلسطينيين وإلى قضية الشعب الفلسطينى، وفى أواخر السبعينيات وبدايات الثمانينات، عملت لجان نسائية ومراكز نسائية معاً لوضع قضايا الجندر على أجندات الحركات القومية.

بعد أحداث سبتمبر الأسود عام ١٩٧٠، أجبرت منظمة التحرير على نقل مقارها الرئيسى إلى بيروت. وفى تلك الأثناء، زودت الولايات المتحدة إسرائيل بمليارات الدولارات على شكل مساعدات وأسلحة متطورة. كانت مصر قد ظلت تاريخياً قائدة الجبهة العربية الموحدة ضد إسرائيل، لكنها، بعد حرب عام ١٩٧٣ ثم توقيعها اتفاقية كامب دايفيد استبعدت من المواجهة العربية ضد إسرائيل والمعارضة لها مقابل مساعدات عسكرية واقتصادية أمريكية، وبهذا تدعم دور إسرائيل كأهم أصول الولايات المتحدة الاستراتيجية فى الشرق الأوسط.

وعلى الرغم من ذلك، فائثناء السبعينيات، كان اليسار الفلسطينى

العلماني والقوميون في الجبهة الامامية للصراع ضد الصهيونية. كان لتلك المنظمات أيديولوجيات سياسية متنوعة تتراوح بين الشيوعية والقومية، وتتماهى مع حركات المقاومة في أنحاء العالم. كانت الحركات الماركسية الإيرانية، وتنظيمات حرب العصابات تتخذ من حركة فتح، ومعها حركات المقاومة الجزائرية والأمريكية اللاتينية والفيتنامية نماذج تحتذيها في صراعها ضد الشاه. تسلل بعض أعضاء هذه التنظيمات من إيران إلى معسكرات منظمة التحرير في لبنان. كانت المعسكرات الفلسطينية في لبنان تقوم بتدريب مقاتلين من جميع أنحاء العالم بما في هذا مجموعات حرب العصابات الإيرانية.

وعلى الرغم من هيمنتها لمدة عقد من الزمان، فشلت قيادة منظمة التحرير في إنجاز شيء بل وأجبرت، بممارسة ضغوط من الصهيونية العالمية، على عمل تنازلات لإسرائيل. في تلك الأثناء، كانت «معاهدة السلام» المصرية الإسرائيلية قد تزامنت مع قيام الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩. كان للشعار الذي أطلقته الثورة الإيرانية «إيران اليوم وفلسطين غدا» وما قدمته من مساعدات لمقاومة الهجمات الإسرائيلية على لبنان، كان لها أهمية ذات شأن بالنسبة للفلسطينيين. علق صالح وهو طالب فلسطيني ناشط من جامعة بيرزيت، بالقول:

«كانت ثورة ١٩٧٩ في إيران مهمة للمسلمين في المنطقة. اكتسبت كتب على شريعتي شعبية في فلسطين وبدأ الكثيرون يوجهون النقد إلى الحركات الإسلامية في المنطقة لعدم إنجازها شيئاً يذكر على حين تمكنت إيران من هزيمة الشاه ودولته العميلة للولايات المتحدة وصديقة إسرائيل. اكتسب الإسلام أهمية كقوة سياسية نتيجة للثورة الإيرانية».

تذهب لاله خليلي إلى أن كثيراً من المثقفين الفلسطينيين الذين كانوا

يؤمنون بالتححرر القومي بدأوا يرون «تشابها بين الخطابات التي تدعو إلى قيام دولة قومية، والخطابات التحررية والخطابات الإسلامية؛ مثلا ألف فتحي الشقاقى<sup>(١)</sup> كتابا بعنوان: «الخميني. الحل الإسلامى والبديل» والذي أعلن فيه أن التوجه الإسلامى الخميني هو الاستراتيجية الوحيدة للتحرير.

بعد ثورة ١٩٧٩، كشف سفير إسرائيل السابق في إيران، أنه، وعبر السنوات، قامت جميع القيادات الإسرائيلية بزيارة الشاه بمن فيهم دايقيد بن جوريون وجولدا مائير وإسحق رابين ومناحم بيجين وموشيه ديان. أنهى قيام الجمهورية الإسلامية هذه العلاقة وقام عرفات بزيارة الخميني، وسحبت إيران اعترافها بدولة إسرائيل وطالبت بتحرير فلسطين والقدس. وقامت أيضا بقطع جميع علاقاتها الدبلوماسية بإسرائيل وتحويل مقر سفارة إسرائيل في طهران إلى مقر لسفارة فلسطين. من ثم، تحولت تركيا إلى اللاعب الأساسى لحساب إسرائيل في المنطقة وغدت الولايات المتحدة قوة مضادة لإيران وسوريا هناك.

### ظهور حماس؛

تاريخيا، منذ وقت طويل ظل للإسلام السياسى فى فلسطين أبعاد قومية فلسطينية معادية للاستعمار. كان للإسلاميين الفلسطينيين دور مهم فى الثورة المعادية للاستعمار التى اندلعت ما بين عامى ١٩٣٦ و١٩٣٩. وبعد ذلك، تشكلت أفرع من جماعة الإخوان المسلمين فى القدس عام ١٩٤٦ وفيما بعد فى غزة ويافا وحيفا واللد والرملة. وأثناء حرب ١٩٤٨، قاتل أعضاء من الجماعة الإسرائيلىين بدعم من متطوعى

(١) المهندس الفلسطينى العبقري مؤسس حركة الجهاد الإسلامى والذي اغتالته إسرائيل

الإخوان من الأردن وسوريا، في الضفة الغربية التي كانت تحت سيطرة النظام الهاشمي الأردني، تبني الإسلاميون المقاومة السلمية، أما في قطاع غزة، فكان للإخوان المسلمين الفلسطينيين روابط وثيقة مع نظرائهم المصريين، ويمتصّف الخمسينيات كانوا قد أصبحوا قوة سياسية يعمل لها حساب هناك. بعد عام ١٩٦٧، وفيما كانت منظمة التحرير تشتبك في نضال مسلح ضد الاستعمار، تركّزت أنشطة الإخوان على توفير الرعاية الاجتماعية في مخيمات اللاجئين والمناطق الحضرية الفقيرة. وفي هذا السياق، استطاعت المنظمة أن تعمل علناً دون خشية من انقضاء إسرائيل عليها. أيضاً، كانوا قد عانوا إلى الظهور بأسلوب أكثر سرعة وقوة في غزة منه في الضفة الغربية، وذلك لأن منافسيهم من الشيوعيين والقوميين كانوا ضعفاء هناك.

في عام ١٩٨٧ تأسست حركة المقاومة الإسلامية (حماس) أثناء الانتفاضة الفلسطينية الأولى (١٩٨٧ - ١٩٩٣). في البداية، أجرت الولايات المتحدة وإسرائيل اتصالات رسمية مع حماس على أمل أن تعمل قوة المنظمة المتنامية على تقويض منظمة التحرير القومية العلمانية وتأييدها الواسع. بيد أنه في عام ١٩٨٩، أعلنت إسرائيل حماس تنظيماً غير قانوني. أيضاً، أدى دعم منظمة التحرير لصدام حسين في حربه ضد إيران إلى إضعاف العلاقات بين منظمة التحرير وإيران، وبالرغم من ذلك، واصلت إيران سياساتها المعادية للصهيونية والمؤيدة للفلسطينيين مع دعمها العلني لحماس.

بدأت الانتفاضة الأولى في ديسمبر عام ١٩٨٧ حينما هرب عدد من الأسرى الفلسطينيين من سجون الاحتلال بعد أن قتلوا جندياً إسرائيلياً. وفي نفس الوقت، قام الإسرائيليون بقتل عدد من العمال الفلسطينيين



وإصابتهم أثناء عودتهم من العمل بالداخل الإسرائيلي. أدى ذلك إلى اندلاع احتجاجات جماهيرية في الضفة الغربية وغزة ومضى الصبية الفلسطينيون يقذفون جنود الاحتلال بالحجارة، وسرعان ما انضم جميع سكان غزة والضفة إلى الانتفاضة وإزاء ذلك فرضت إسرائيل بقيادة رايين عقابا جماعيا غير مسبوق على الفلسطينيين - بما في هذا الاعتقالات الجماعية والتعذيب وكسر العظام ومنع التجول وهدم المنازل - الأمر الذي أدى إلى سقوط عشرات آلاف القتلى والجرحى الفلسطينيين.

لعبت حماس دورا مهما في الانتفاضة بتعبئة أعضائها ومناصريها من خلال شبكة المساجد والجامعات، طالبت بإلغاء دولة إسرائيل وتبنت الكفاح المسلح ضد الاحتلال. أدى إصرار حماس على أن فلسطين التاريخية هي وقف إسلامي إلى قيام حملات حقوقية لاستعادة أملاك الأوقاف الإسلامية التي صادرتها إسرائيل. لقيت تلك السياسات والمطالبات شعبية لدى غالبية الفلسطينيين بالتقابل مع سياسات منظمة التحرير التي كانت قد وقّعت «إعلان الجزائر» عام ١٩٨٨، وبهذا، تخلت واقعيا عن هدفها الأصلي في إقامة دولة فلسطينية موحدة على جميع أراضي فلسطين التاريخية. أما من ناحيتها، فقد رفضت حماس ذلك الإعلان ومفهومه الأساسي القائم على حل الدولتين، كان هذا هو بداية التوتر بين حماس وفتح، فيما شعرت قيادة فتح بتحدى سلطتها. بحلول عام ١٩٩٢ كانت حماس قد أصبحت حركة مقاومة قوية في المناطق المحتلة. وكانت تلك هي فترة الترحيلات الجماعية وطرد الأكاديميين والأطباء والمهندسين ورجال الدين والمدرسين والعاملين في مجال الصحة والمتقنين الفلسطينيين إلى جنوب لبنان حيث قتل الإسرائيليون

الكثيرين منهم. أدى هذا إلى مقاومة أكثر عنفا ضد إسرائيل وإصرار على حق العودة حيث عملت تلك الترحيلات الجماعية واسعة المدى كتذكرة بعمليات الاقتلاع والنزوح في عامي ١٩٤٨ و ١٩٦٧. تدريجيا، طورت حماس من خلال أعضائها الذين رُحّلوا إلى جنوب لبنان علاقة أوثق مع حزب الله، ومن ثم مع إيران.

وكما في حالة حزب الله، كان ظهور حماس كحركة مقاومة شعبية نتيجة مباشرة لسياسات إسرائيل والولايات المتحدة في الشرق الأوسط في عام ١٩٩٣، وقعت منظمة التحرير اتفاقيات أوسلو التي استضافها الرئيس كلينتون وحيث صافح عرفات رئيس الوزراء الإسرائيلي رابين. زُعم أن تلك الاتفاقيات خطوة أخرى باتجاه حل الدولتين. وعلى الرغم من ذلك، أخذ عدد المستوطنات اليهودية بالضفة الغربية وغزة في التنامي، ومضى الإسرائيليون يقيمون حواجز الطرق ونقاط التفتيش ويشيدون جدار العزل العنصري بهدف اقتلاع الفلسطينيين وجعلهم غير مرئيين. وفي واقع الأمر، فقد أضفت اتفاقيات أوسلو الشرعية على مصادرة الأراضي الفلسطينية ومصادر المياه، الأمر الذي يعنى أنه فيما يعاني الفلسطينيون من شح المياه يملأ الإسرائيليون أحواض السباحة في منازلهم ونواديهم وتُزهر أحواض ورودهم. تتحكم إسرائيل في حوالي ٩٠٪ من مياه الضفة الغربية وقد تم تحويل المياه إلى المناطق الاستيطانية فيما تُجفّ أراضي الفلسطينيين وأشجارهم.

يضطر الفلسطينيون من أجل الحصول على المياه لاستخداماتهم اليومية إلى شرائها من المستوطنين أو من دولة إسرائيل، وفي هذا الصدد يقول عمر من مدينة قلقيلية:

«إنهم مهتمون بقلقيلية بخاصة لأن فيها مصادر كبيرة للمياه. يمنعون

عنا مياهنا وبحرموننا منها لكتنا مازلنا نقاوم بعد كل هذه السنوات. زرعوا على الجانب الآخر من الجدار ، جبلا من الزهور للتظاهر بأنه ليس ثمة جدار بين المستوطنين وبيتنا».

أيضا، أنكرت اتفاقيات أوسلو حق العودة على خمسة ملايين لاجئ ومنفى فلسطيني. سهل هذا تجاهل كلينتون لقرار مجلس الأمن رقم ١٩٤ بتاريخ ١١ ديسمبر ١٩٤٨ الذي ينص على حق عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى أراضيهم ووطنهم. علاوة على ذلك، كان لاعتماد فتح والسلطة الفلسطينية على المساعدات الخارجية والاستثمارات الخاصة وتمويل الولايات المتحدة لفتح ضد حماس أثر مدمر للاقتصاد الفلسطيني. تشكلت السلطة الفلسطينية برئاسة عرفات في عام ١٩٩٢ واضطلعت بمهام الجيش الإسرائيلي في غزة وأريحا، وفيما بعد، في أجزاء أخرى من الضفة. وكما ذهب الراحل إدوارد سعيد، أصبحت منظمة التحرير بمقتضى اتفاقيات أوسلو، الآلية الأمنية نيابة عن إسرائيل العنصرية التي مضت قدما في سياساتها التوسعية وتهميشها للفلسطينيين.

وفيما كانت شعبية منظمة التحرير تتراجع، كانت شعبية حماس تشهد تصاعدا وذلك لموقفها من إسرائيل. طوال عامي ١٩٩٥ و١٩٩٦، اتبعت حماس، بدعم من إيران نهج التفجيرات الاستشهادية الذي كان حزب الله قد اتبعه في لبنان عام ١٩٨٢، وذلك لأنه كان الوسيلة الوحيدة المتاحة للفلسطينيين لردع هجمات إسرائيل المتصاعدة على الفلسطينيين العزل. كانت حماس أول تنظيم إسلامي سني يتبنى استراتيجية التفجيرات الاستشهادية. ولهذا أهمية خاصة حيث إن فكرة التفجيرات الاستشهادية كانت قد ظلت غريبة على تنظيمات حرب العصابات

الفلسطينية العلمانية. ووفقا لما جاء على لسان نور ما شاء الله في حديث معي:

«ظل مفهوم الاستشهاد سلاحا قويا في صراع الفلسطينيين ضد الصهاينة والبريطانيين منذ فترة الانتداب، لكن ليس تكتيك التفجيرات الانتحارية. سُمي الجناح العسكري لحماس، أي كتائب القسام، على اسم الشيخ عز الدين القسام الذي قتله البريطانيون هو وأتباعه في معركة شهيرة في الريف الفلسطيني، وساعد استشهادهم على إشعال الثورة الفلسطينية بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٩، في فترة ما بعد ١٩٦٧، غُطيت الجدران في المدن الفلسطينية ومخيمات اللاجئين بالضفة الغربية وغزة بصور الشهداء وبأسماء أشخاص قتلوا وهم يقاومون الاحتلال الإسرائيلي. أيضا، يتغنى الفلسطينيون في أهازيجهم بأسماء أكثر الشهداء شهرة وبخاصة الذين قتلهم البريطانيون أثناء انتفاضة الثلاثينيات».

وهكذا، وابتداء من التسعينيات، تبنى الفلسطينيون تكتيك التفجيرات الانتحارية (الاستشهادية) التي كانت قد ارتبطت بالشيعة ولبنان. نفذت حماس أولى تلك التفجيرات في أعقاب مذبحة ٢٩ فلسطيني أثناء صلاتهم في الحرم الإبراهيمي بالخليل عام ١٩٩٢ على يد طيب مستوطن إسرائيلي/ أمريكي يسمى الدكتور باروخ جولد ستاين. نفذت النساء الفلسطينيات أيضا تلك العمليات وكانت أولاهن (وردة) إدريس في السادسة والعشرين من العمر، وآخرهن زينب علي في عام ٢٠٠٤، رأى كثير من الفلسطينيين في تفجيرات حماس الاستشهادية رداً على التصاعد الهائل في أعداد القتلى الفلسطينيين على يد جيش الاحتلال الإسرائيلي، وكان رد حماس على تصوير الإسرائيليين للنضال

الفلسطيني على أنه إرهاب هو «توقفوا عن قتل المدنيين الفلسطينيين تتوقف عن قتل المدنيين الإسرائيليين». بالطبع، كان عدد القتلى الفلسطينيين على يد الإسرائيليين أضعافاً مضاعفة لعدد القتلى الإسرائيليين. وكان شجب الإعلام والسياسيين الغربيين وإدانتهم للفلسطينيين أكثر قسوة بكثير من شجبهم للإسرائيليين [هذا إن شجبهوهم]. وفي رد من إسرائيل على تفجيرات حماس الانتحارية في القدس، فرضت عقوبات جماعية على المناطق الفلسطينية المحتلة، وقامت هي والولايات المتحدة بممارسة ضغوط هائلة، على السلطة الفلسطينية التي تقودها فتح كي تقوم بقمع حماس. أدى هذا إلى تصاعد التنافس بين حماس وفتح في المدة بين عامي ١٩٩٤ و ٢٠٠٠ حيث قامت قوات الأمن الفلسطينية بقتل أنصار حماس في غزة. أنفقت ملايين الدولارات على الأنشطة الأمنية والبوليسية فيما لم يتفق سوى أقل القليل على الشؤون الصحية والتعليم والتوظيف. ألقى فلسطينيون كثيرون بالمسئولية على اتفاقيات أسلو التي أجبرت عليها السلطة الفلسطينية وحوالتها إلى قوة شرطة تعمل لصالح إسرائيل.

أدى تدهور الوضع الفلسطيني وعدم دعم الأنظمة العربية للفلسطينيين إلى تقوية العلاقة بين إيران وحماس، حيث إن إيران كانت قد ظلت الحكومة الوحيدة التي تدعم علناً الفلسطينيين في مواجهة إسرائيل. في عام ١٩٩٨، قام الشيخ أحمد ياسين، قائد حماس، بزيارة رسمية لإيران في عهد خاتمي وأثنى على إيران لدعمها الفلسطينيين. ثم ذهب، بعد تلك الزيارة إلى الإمارات والكويت وقطر وسوريا واليمن ووجه أثناء تلك الزيارات النقد لياسر عرفات لمباحثاته مع بريطانيا والولايات المتحدة واصفاً إياها بأنها عديمة الجدوى.

بدأت الانتفاضة الثانية في عام ٢٠٠٠ في أعقاب اقتحام أرييل شارون المستفز للحرم القدسي الشريف في محاولة إثبات أن إسرائيل تتحكم حتى في الأماكن الإسلامية المقدسة، وكانت الانتفاضة أيضا ردا على فشل اتفاقيات أوسلو واستمرار بناء المستوطنات في القدس الشرقية والضفة الغربية وغزة. علاوة على ذلك، كان الاقتصاد الفلسطيني قد أضعف بدرجة كارثية حيث بلغ معدل البطالة ٣١٪ وكانت نسبة ٤٧٪ من السكان يعيشون تحت خط الفقر. تحولت الانتفاضة الثانية هذه إلى مواجهات مسلحة مع الإسرائيليين واكتسبت شعبية كبيرة في جميع الأوساط الفلسطينية بما فيها فتح ومؤيدو منظمة التحرير. وخلافا للاعتقاد العام لم تكن إيران هي مصدر الأسلحة المستخدمة، بل كان مصدرها مصر، هذا على الرغم من موقف الحكومة المصرية الرسمي، وأيضا السوق السوداء، وبعض قوى الأمن المستائين من الأوضاع. كما أن حماس طورت عمليات تصنيع محلي للأسلحة البدائية.

وفي بداية القرن الحادي والعشرين، طورت إدارة جورج دبليو. بوش علاقة أوثق بإسرائيل. حينما أصبح بوش رئيسا في ٢٠٠١، كانت عملية سلام أوسلو قد انهارت وكانت الانتفاضة في أوجها. كان أرييل شارون هو رئيس وزراء إسرائيل المنتخب وكان قد استخدم الحد الأقصى من القوة لسحق الانتفاضة. بعد ٩/١١، شنت إدارة بوش حربها على «الإرهاب» وحاول المحافظون الجدد فرض نسخة من الصهيونية أكثر تعصبا على السياسة الأمريكية/ الإسرائيلية فيما بدأ بوش يتحدث عن «بولة فلسطينية قابلة للحياة» لكنه وإدارته لم يأتوا بأية محاولة لمنع إسرائيل من بناء المزيد والمزيد من المستوطنات في الضفة الغربية وغزة،

ولم يكن ثمة ذكر للقدس ولحق العودة للاجئين. وفي بدايات عام ٢٠٠٣، أعلنت إدارة بوش «خارطة الطريق» للسلام الإسرائيلي/ الفلسطيني. اتفق عرفات وحماس على أن خارطة الطريق ليست في صالح الفلسطينيين. لكن محمود عباس، رئيس الوزراء الفلسطيني وقتئذ، قبل بها ثم خلف عرفات بعد وفاته في ١١ نوفمبر ٢٠٠٤، في رئاسة اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير. يرى كثير من الفلسطينيين أن لغته التصالحية، تصب في مصلحة الإسرائيليين لا الفلسطينيين، بما في هذا تعليقاته حول التنازل عن حق عودة اللاجئين الفلسطينيين. قال لي أدهم اللاجئ الفلسطيني بدمشق والذي كان قد ظل طوال حياته مؤيداً لفتح، إنه قد فقد الثقة في فتح والسلطة الفلسطينية وذلك لأن:

«فتح كانت في الأصل حركة تحرر وطني وكانت تمثل الفلسطينيين عن حق، وطوال عقود واجهنا الفشل تلو الفشل. من ثم، فقدت فتح ثقة الشعب، وذلك بسبب أساسي، هو ضغط الأنظمة العربية عليهم، في السنوات الأخيرة، ظل محمود عباس يحاول التعاطي مع الولايات المتحدة بضغط من السعودية. لكنه، وبأسلوب منهجي، ماضٍ في تقديم التنازلات ومزيد من التنازلات ولا يعمل لصالح الفلسطينيين. بالنسبة لي، فإنني أعتقد أنك إذا بدأت بتقديم التنازلات للعدو فليس ثمة عودة عن هذا الطريق وستمضى في تقديم التنازلات حتى تجد نفسك في النهاية تفعل ما يريدون منك فعله. أيضاً، أفسدت الامتيازات المنظمة وقادتها. ولسوء الحظ، فقد ركز مؤتمر فتح في عام ٢٠٠٩ على كيفية مواجهة حماس بدلا من أن يركز على كيفية النضال ضد عدوان إسرائيل المتصاعد على الفلسطينيين. لم يكن ثمة نقاش حول التعلم من الماضي وتشكيل رؤية للمستقبل. كان انتخاب مروان البرغوثي أمرا إيجابيا لكنه لن يحدث فرقا

إذ إنه أسير في المعتقلات الإسرائيلية ولا يستطيع المشاركة في صنع القرار، ولهذه الأسباب مجتمعة غدت حماس البديل الوحيد».

تمضى الولايات المتحدة وإسرائيل عن عمد في إخفاء بُعد التحرر الوطني الذي هو جوهر أنشطة حماس ويعمدون إلى تصويرها على أنها منظمة إرهابية بل وتضمينها في خطاب «الإرهاب الكوكبي». في عام ٢٠٠٣، ألزمت حماس نفسها بوقف مؤقت لإطلاق النار استمر حتى عام ٢٠٠٥ بالرغم من استمرار إسرائيل في شن غاراتها على غزة. وفي عام ٢٠٠٤، قامت إسرائيل باغتيال الشيخ أحمد ياسين ومعه تسعة فلسطينيين آخرين بواسطة طائراتها المروحية. كان هو خلف اقتراح الهدنة التي أدت إلى وقف إطلاق النار مع إسرائيل، فيما طالب بانسحاب إسرائيل إلى حدود عام ١٩٦٧ وإعادة الأراضي الفلسطينية المستولى عليها والتخلص من المستوطنين اليهود وإطلاق سراح الأسرى الفلسطينيين، ورأى أن هذا هو السبيل الوحيد لوقف العمليات الاستشهادية. كان أيضا يعارض بقوة تطور حرب أهلية بين الفلسطينيين نتيجة التنافس بين حماس وفتح.

ومع أخذ هذه الخلفية في الاعتبار، يرى الفلسطينيون أنه ليس ثمة حكومة في المنطقة باستثناء إيران، وتركيا مؤخرا، تعارض علنا بشاعات إسرائيل، ومن أجل أن يستطيع القارئ فهم سبب شعبية حماس ودعم إيران لها، علينا أن نستوعب أولا مدى محاولات إسرائيل بدعم من الغرب اقتلاع الفلسطينيين، حيث تعتمد منهجيا إلى زيادة عدد اليهود إلى الحد الأقصى وتقليص عدد الفلسطينيين إلى أدنى حد ممكن ورفض الانسحاب إلى حدود عام ١٩٦٧، كما أن جدار الفصل العنصري ما هو إلا استمرار لعملية التطهير العرقي ويترك الجماعات الفلسطينية مشظاة



ومعزولة عن بعضها في القدس والضفة والقطاع ومختلف أنحاء البلد، تشجع الدولة الصهيونية، كجزء من أجندتها، الهجرة إلى إسرائيل. تأتي أعداد كبيرة من فقراء المهاجرين من إفريقيا وروسيا وجنوب شرق آسيا ويستوطنون هناك. يُمنح ذوو الخلفية اليهودية جوازات سفر إسرائيلية. ويشكلون عمالة رخيصة ويعمل بعضهم حراس أمن، أو رجال شرطة أو يلتحقون بالجيش. تعطى إسرائيل هؤلاء المهاجرين الأولوية في العمل، فيما ترفض، غالباً، تشغيل الفلسطينيين أو تعمل منهجياً على إزلالهم في الأعمال التي تتيحها لهم. يمول الصهاينة في إسرائيل والولايات المتحدة بناء ما يسمى «المعبد الثالث» على موقع الحرم القدسي الشريف (المسجد الأقصى وقبة الصخرة) وهذا من شأنه أن يؤدي إلى تدمير المقدسات الإسلامية وإلى صراع محلي وإقليمي.

لم يحتج أي قائد عربي على أحداث العنف التي وقعت بالمسجد الأقصى في أكتوبر ٢٠٠٩. فقط المرجع الشيخ حسين فضل الله هو الذي أعلن أن إسرائيل قد دخلت مرحلة جديدة لتهود القدس بالكامل، وأن سياستها هي إنكار قداسة المسجد الأقصى بسماحها لجنودها باقتحامه. ألقى باللوم على الأنظمة العربية لمساعدتها إسرائيل على التوسع في انتهاكاتها وقال إنها لم يكن باستطاعتها التماهي في انتهاكاتها لو اتخذ العالم الإسلامي والعربي خطوة واحدة لوقف الاجتياحات الإسرائيلية. وفي مقابلة لي مع سامية من رام الله، قالت:

«إن الصهيونية أكثر سوءاً من نظام الأبارتايد جنوب إفريقيا ومن أي نظام فاشي في العالم. إن الغرب يدعمها بسبب عقدة الذنب من الهلوكوست، لا يتعلق الأمر باليهود الشرقيين من سكان المنطقة الأصليين فقد كان هؤلاء اليهود جزءاً لا يتجزأ من سكان فلسطين، إن

مسألة من المسلم؟ ومن اليهودي؟ ومن المسيحي؟ هي ظاهرة جديدة خلقتها الصهيونية. يريدون إقامة دولة يهودية صهيونية خالصة نقية من أية عناصر إثنية أو دينية أخرى».

تقع سلوان خارج مدينة القدس القديمة مباشرة وكانت قد ظلت تاريخياً بلدة فلسطينية يبلغ عدد سكانها ١٥٠٠٠ نسمة. نُقل إليها في السنوات الأخيرة ٢٠٠ مستوطن مسلح، ووضعوا الأعلام الإسرائيلية فوق مبانيهم ويقومون، بصفة مستدامة، بتهديد سكان سلوان. يقول خالد الذي يعمل ضمن حملة لإنقاذ سكان سلوان والإبقاء عليهم:

«في عام ٢٠٠٩، أصدرت الحكومة خارطة زائفة ومستقبلية للحى لتثبت أنه لم يكن ثمة سكان فلسطينيين بسلوان وأنها جزء مما تسميه «جبل المعبد اليهودي». سنقاتلهم إذ إنه ليس لدينا بديل عن هذا. هذا موطننا وإن نفادره».

منذ عام ٢٠٠٨ وإسرائيل ماضية في تكرار مستويات عام ١٩٤٨ من تدمير المنازل الفلسطينية وإقصاء السكان الفلسطينيين. يعمل جدار الفصل العنصري والخط الأخضر وإقامة مستوطنات جديدة على خنق المجموعات الفلسطينية بشكل يومي. يجبر عدم وجود أنشطة اقتصادية أو مدارس أو مستشفيات الناس على الرحيل. تصف فدوى الوضع كالتالي:

«يعزل الجدار بيوتنا عن أراضينا، ويفصل بين بيوتنا ومدارسنا وجامعاتنا ومستشفياتنا وأماكن عملنا. يهدفون إلى إصابتنا بالشلل الكامل. لا نستطيع الذهاب إلى المستشفى أو المدرسة أو الجامعة أو مكان العمل بدون السفر لساعات طويلة والمرور من خلال نقاط التفتيش. وبذلك مسافة لا يستغرق قطعها سوى بضع دقائق بالطرق المعهودة».

يقيمون أحيانا نقاط تفتيش مؤقتة ومتنقلة ليحولوا، عن عمد، دون وصول الطلبة إلى مدارسهم وجامعاتهم، وبخاصة في أوقات الامتحانات. الجدار من الإسمنت في بعض أجزائه، وفي أجزائه الأخرى يتكون من أسلاك شائكة أو حادة الحواف أو مكهربة مثبت عليها كاميرات، يعيش الناس معتقلين في تلك المدن والبلدان والقرى، أغلقت طرقهم ولا يستطيعون الذهاب أو العودة إلا من خلال نقاط التفتيش الدائمة، أو المؤقتة والمتنقلة، أو حواجز الطرق بحيث لا يجد الناس في أحوال كثيرة سبيلا لمغادرة قراهم أو العودة إليها لشراء الأطعمة والمستلزمات اليومية بمركباتهم، عليهم السير أميالا للوصول إلى المحلات ثم يكون عليهم حمل السلع بأيديهم عودة إلى قراهم».

أخبرني محمد الناشط القيادي في حملة «أوقفوا الجدار» عن تجربة أسرته:

«لا يعطون تصاريح الانتقال من المنازل إلى الأراضي التي يفصلها عنها الجدار سوى لكبار السن الذين لا يستطيعون العمل بالأرض منذ عام ٢٠٠٣ وهم يرفضون إعطائى وأشقاى وشقيقاتى تصاريح للذهاب لنعمل بأرضنا. من ثم، جفّت أشجار الزيتون في أرضنا لأن والدى البالغ من العمر ٧٥ عاما لا يستطيع رعاية الأرض أو المزروعات. المستوطنون مسلحون ويهاجمون الفلسطينيين ويحرقون منازلهم ويجبرونهم على الرحيل من منازلهم. مياه الصرف الصحى بالمستوطنات موجهة نحو أراضى الفلسطينيين وقراهم، وبهذا يدمرون المحاصيل الزراعية والبيئة. يعيدون كتابة التاريخ بتغيير أسماء القرى والمدن من أسماء عربية إلى أسماء عبرية من أجل التمويه والتظاهر أن هؤلاء السكان الفلسطينيين لم يكن لهم وجود أبدا».

كانت جهود ياسر عرفات تتركز على حل الصراع من خلال إقامة دولتين، كما أن حنان عشراوي، المتحدثة باسم الوفد الفلسطيني إلى مؤتمر مدريد عام ١٩٩١، وبعده، لم تتوقف عن محاولاتها لإقرار السلام. بيد أن تلك الجهود والتنازلات لم تقابل من الجانب الإسرائيلي سوى بالازدراء، وواصل الإسرائيليون بناء جدار الفصل وإقامة المستوطنات وخلق مصادر عيش الفلسطينيين. أتت رئاسة باراك أوباما عام ٢٠٠٩ معها بالتكهنات حول الضغط على إسرائيل لقبول فكرة إقامة دولة فلسطينية بشكل ما إلى جانب دولة إسرائيل. كانت تهنئته للإيرانيين بمناسبة رأس السنة الفارسية (٢١ مارس ٢٠٠٩ - عيد النيروز) وخطابه بالقاهرة في ٤ يونيو ٢٠٠٩ قد أثارا قدرا من الأمل. بيد أنه فشل في إقناع إسرائيل بتجميد الاستيطان، ورفض تننيهاو حق العودة للفلسطينيين وأصر على بقاء القدس تحت السيطرة الإسرائيلية. رفض تننيهاو أيضا القرار الذي صوت عليه أعضاء مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة بإدانة العدوان الإسرائيلي على غزة في يناير ٢٠٠٩، كما رفض طلب الولايات المتحدة في مارس ٢٠١٠ بتجميد بناء المستوطنات والمنازل اليهودية في القدس الشرقية. مثلت تلك المواقف صفعات جديدة لجهود أوباما من أجل حل الدولتين لدرجة أن قيادات فتح نفسها عبرت عن فقدان الأمل واعتقدت أن أوباما لا يستطيع مقاومة ضغوط اللوبي الصهيوني. ترى أن الكساندر وچون روز أن السبيل الوحيد لإنهاء الصهيونية هو اتباع سبيل إنهاء نظام الأبارتايد في جنوب إفريقيا من خلال إجراء انتخابات على أساس نظام صوت واحد للشخص الواحد لكل سكان فلسطين وإنشاء دولة واحدة ديموقراطية يعيش فيها الجميع جنبا إلى جنب، قال لي الناشط الفلسطيني محمود:

«إننى متفائل. قد لا يحدث التغيير أثناء حياتى، لكن الفلسطينيين على استعداد للتضحية مائة عام أخرى للحصول على حقوقهم المشروعة. لقد جاء الصليبيون ورحلوا، وجاء البريطانيون والفرنسيون ورحلوا، وسيكون على المحتلين الحاليين أن يرحلوا. لا بد لهذا الظلم أن ينتهى». مشاركة حماس فى الحياة السياسية الانتخابية؛

ورثت حماس فكرة المشاركة فى الانتخابات عن جماعة الإخوان المسلمين وحزب الله. منذ عام ١٩٩٢، تنافس أنصار حماس مع نظرائهم من فتح فى انتخابات الاتحادات المهنية واتحادات الطلبة. يتركز أنصار حماس بشكل رئيسى فى المناطق الحضرية فى أحياء الطبقة الوسطى والفقيرة معا وفى بعض المناطق الريفية. وفى عامى ٢٠٠٤ و ٢٠٠٥، فازت حماس فى الانتخابات المحلية بثلاث المقاعد. كان فوز حماس الساحق فى الانتخابات فى يناير ٢٠٠٦ ذا أهمية خاصة. وفقا لخالد حروب، الأكاديمى والكاتب الفلسطينى، تتمتع حماس بتأييد نسبة تتراوح بين ٣٠٪ و ٤٠٪ من الفلسطينيين ويقوم تأييد حماس على أساس الإحباط الذى يشعر به الفلسطينيون من العدوان الإسرائيلى العسكرى المتواصل وفشل السلطة الفلسطينية فى وقف جرائم إسرائيل ضد الفلسطينيين. أنهت الانتخابات التشريعية احتكار فتح فى فلسطين، حيث أُجرى اقتراع عادل وديموقراطى شارك فيه عدد غير مسبوق من الأفراد. وفقا للنظام الانتخابى أصبحت حماس حزب الغالبية فى المجلس التشريعى الفلسطينى بحصولها على ٤٤٪ من أصوات الناخبين حيث فازت بأربعة وسبعين مقعدا من أصل ١٣٢ مقعد. فى انتخابات عام ٢٠٠٧ بغزة، هزمت حماس فتح [وبعد أحداث مؤسفة] سيطرت على قطاع غزة فيما ظل محمود عباس، رئيس السلطة ورئيس فتح مسيطرا

على الضفة الغربية ووزاراتها وقوات أمنها. صوت كثير من المسيحيين العلمانيين واليساريين والقوميين، والمسلمين من مختلف الأطياف لصالح حماس. كان هذا التأييد أيضا تصويتا على سحب الثقة من فتح وإظهار المعارضة للولايات المتحدة. تقول أيلين قطب الأكاديمية بجامعة بيرزيت:

«ثمة عدد من القرى غالبة سكانها مسيحيون، كانت رام الله في الأصل قرية مسيحية. يعيش مسيحيون كثيرون في رام الله وبيرزيت والناصرية والقدس. صوتت عدد من القرى في منطقة رام الله لصالح حماس لأنهم، وبشكل أساسي، كانوا بحاجة لتغيير الحكم. ثانيا، فهم يعتبرون الإسلام جزءا من ثقافتهم ولا يتناقض مع طموحاتهم القومية. ثالثا، لقد حُشروا في معازل ضيقة نتيجة للمستوطنات الجديدة وتسبب الجدار ونقاط التفتيش في معاناتهم. لقد استولى الصهاينة على معظم أراضينا ومنازلنا. سئم الناس من رياء الغرب والولايات المتحدة والسلطة الفلسطينية الفاسدة القائمة. أيضا، توفر حماس الخدمات الاجتماعية اللازمة لجميع المجموعات والأهالي».

طورت حماس علاقة وثيقة نسبياً مع منطمتين يساريتين هما الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين. في انتخابات ٢٠٠٧، دعمت حماس مرشحين مسيحيين وعينت مسيحيا وزيرا للسياحة في مجلس وزرائها. أيضا، حققت فوزا ساحقا في الانتخابات البلدية والطلابية والنقابية.

وكما أسلفنا، فإن التعبئة السياسية الجماهيرية للنساء أثناء الانتفاضتين الأولى والثانية أوضحت مرة أخرى فاعلية الفلسطينيين وأكدت على هويتهم. ومنذ وقت قريب، وفي نطاق حماس، ظلت النساء مرنيات في التعبئة السياسية وظلت أصواتهن في الانتخابات الجامعية

والمحلية والقومية من الأسباب الرئيسية لفوز حماس، يلعبن دورا مهما  
 بخاصة فى مجالات التعليم والصحة، والمنظمات الخيرية، وأيضا فى  
 الإعلام. ومثلما هو الحال بالنسبة لحزب الله، فليس لهن مواقع قيادية فى  
 المستويات العليا السياسية أو فى صنع القرار، فى انتخابات ٢٠٠٦  
 التشريعية، ترشحت ١٣ امرأة وفقا لبرنامج حماس الانتخابى من بين  
 المترشحات واللاتى بلغ عددهن ٦٦ امرأة؛ فازت سبع منهن بمقاعد، لكن  
 حماس لم تعين فى مجلس وزرائها سوى وزيرة واحدة لشئون المرأة هى  
 الأكاديمية ميريام صالح مؤسدة عدد من المنظمات النسائية فى الضفة  
 الغربية.

وعلى الرغم من ذلك، تشجع عضوات المجلس التشريعى، والناشطات  
 النساء على المشاركة فى الحياة السياسية والمطالبة بالمساواة بين  
 النوعين. وترى هدى القناوى وجميلة الشنتطى أن حماس ستتخلص من  
 سياستها فى التفريق بين النوعين بمرور الوقت. جميع مرشحات حماس  
 اللاتى فزن فى انتخابات ٢٠٠٦ مهنيات متعلقات أو ناشطات أهليات.  
 تنادى هدى النعيم التى انتُخبت عام ٢٠٠٦ لعضوية المجلس بإنهاء  
 الزيجات الإجبارية وأعمال «القتل على الشرف» والأجور المنخفضة وعدم  
 إرسال الفتيات إلى المدارس.

عارضت إسرائيل والولايات المتحدة وأوربا وفتح حكومة حماس  
 المنتخبة ديموقراطيا، وقامت إسرائيل والولايات المتحدة فى أعقاب فوزها  
 بتجميد كل التمويلات المرسلة إلى المناطق المحتلة. يعنى حصار إسرائيل  
 لغزة وقف جميع الصادرات ووضع القيود المفردة على الواردات مثلا،  
 تقطع الكهرباء عن غزة، التى تضم مليون ونصف المليون شخص،  
 لساعات عديدة يوميا. فى يونيو ٢٠٠٦، دعت حماس لتشكيل حكومة

وحدة وطنية لبدء تفاوضات السلام. وفي اليوم التالي، قصفت إسرائيل محطات الطاقة ومنازل المدنيين بذريعة الثأر لأسر الجندى جلعاد شاليط.

### حماس وتوفير الخدمات والموارد:

توفر حماس المساعدات الاجتماعية والرعاية الصحية والمؤسسات الثقافية. والرياضية، وكلها ذات أهمية حاسمة في حياة الفلسطينيين الذين يعيشون في ظل الاحتلال الإسرائيلي. وقد أسهم هذا في زيادة الدعم الشعبي لها بدرجة هائلة. وعلى غرار حزب الله في لبنان، تُنفَّذ هذه المساعدات بأسلوب شفاف من خلال المنظمات الخيرية والمساجد والاتحادات والمدارس والنوادي الرياضية. حاول الإسرائيليون بمساعدة من السلطة إغلاق مؤسسات حماس للعمل الاجتماعي وتجميد أرصدها المصرفية. لكن تلك المحاولات وُوجهت بتظاهرات شارك فيها مئات الآلاف من الفلسطينيين بمن فيهم أنصار فتح والمسيحيون، والمجموعات العلمانية وغيرهم من متلقّي الخدمات التي توفرها حماس.

وبدون توفير تلك الخدمات من جانب حماس، لما تمكن فلسطينيون كثيرون من البقاء أحياء. يدفع الفلسطينيون الضرائب للدولة الصهيونية التي ترفض توفير تلك الخدمات. وفقا للقانون الدولي فإن إسرائيل تتحمل مسؤولية توفير تلك الخدمات والموارد بصفتها قوة احتلال لكنها ترفض ذلك وتلقى بالمسؤولية على السلطة الفلسطينية. بيد أن غالبية عائدات السلطة وموازنتها تذهب إلى تقوية الأجهزة الأمنية الفلسطينية التي كثيرا ما تستخدم لإخماد حركات المقاومة. أما الخدمات التي توفرها الأمم المتحدة ومعها عدد كبير من المنظمات غير الحكومية فلا تجدى نفعا إذ إن الولايات المتحدة والرباعية الأوروبية تسمح لإسرائيل بإملاء نوع المساعدات المسموح بها. وفي واقع الأمر، يشعر كثير من



الفلسطينيين بالعداء تجاه وكالات الغوث والمساعدات لأنهم يرونها تنفذ الأجندة الصهيونية وتعمل على استدامتها. مثلاً، قالت لى هنا فى حوار معها فى إحدى البلدان:

«أقامت وكالة الولايات المتحدة للتنمية الدولية (يوسايد) هذه المدرسة طلبنا منهم ألا يبنوها فى مواجهة الجدار لأننا لا نريد لأطفالنا أن ييصروه على أساس يومى، لكنهم أصروا على بنائها فى هذا الموقع لكى يتقبله الأطفال كواقع ولا يقاوموه. يكره الناس فى القرية هذه الوكالة الأمريكية. ردّ الأطفال برسومات ضخمة على حائط المدرسة المواجه للجدار الصهيونى وكتبوا عليه «سنستمر فى المقاومة».

توضح تجارب الفلسطينيين بجلاء أن شعبية حماس مردها الاحتلال الوحشى، وتهميش الغرب المنهجى لليسار العلمانى والقوميين.

وعلى غرار نموذج حزب الله اللبنانى، ظهرت حماس كحركة مقاومة مؤثرة، ووفرت الرعاية والخدمات الاجتماعية حيث فشلت الدولة فى الاضطلاع بهذا الدور المهم لصالح مواطنيها. بالطبع ثمة اختلاف بين حزب الله الشيعى وحماس السنية، واختلافات أخرى من حيث التشكيلة المختلفة للدولة والبنى الاجتماعية والسياسات التى يتبعها كل بلد منهما.

وكما فى حال حزب الله، يعتقد الغرب، مخطئاً، أن تمويلات حماس تأتيها من إيران فقط. ظلت التمويلات، ولعدة عقود، تأتي حماس من بلدان فى المنطقة، بعضها موالٍ للولايات المتحدة وأخرى معادية لها (الكويت، إيران، السعودية، دول الخليج، السودان، والجزائر).

أثناء اجتياح العراق للكويت، دعمت منظمة التحرير العراق لكن حماس نقدته ووجهت اللوم أيضاً إلى سياسة الولايات المتحدة بالمنطقة، وفى ضوء هذا، استمرت حماس تتلقى الأموال من إيران والكويت.

أيضا، شهدت تلك الفترة صعود الحركات الإسلامية. كما أن كثيرا من بلدان الخليج والمجتمعات ذات الغالبية المسلمة التي كانت تمول منظمة التحرير رأت في حماس بديلا وحولت إليها دعمها المالي من أجل إضعاف المجموعة العلمانية وتقوية حماس. ويعتبر أثرياء رجال الأعمال المسلمين المصدر الرئيسي لتمويل حماس، كما تتلقى حماس أيضا أموالا من التنظيمات الإسلامية والأفراد في الولايات المتحدة وأوروبا. تُنقل جميع التحويلات المالية إلى حماس من خلال المصارف الغربية والإسرائيلية وتخضع لرقابة مشددة.

في أغسطس ٢٠٠٩، سمحت إسرائيل بعدد محدود من الشاحنات التي تحمل الأطعمة بالدخول إلى غزة، كما استعاد «اقتصاد الأنفاق» بين مصر وغزة نشاطه. تشرف حماس على أنشطة تجارية واستثمارات مربحة وتمكنت من إنشاء شركة للتأمين وبنك، كما تقوم بشراء كثير من عقارات غزة. بيد أن «اقتصاد الأنفاق» يظل معرضا بدرجة كبيرة للضغوط المصرية والإسرائيلية المستدامة، كما ظلت حماس تواجه حصارا منهجيا من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي والسلطة الفلسطينية. علاوة على ذلك، تواجه الحركة الآن شحاً مالياً حاداً إذ إنها ورثت من فتح ديونا مصرفية هائلة وهيئات بيروقراطية ضخمة تضم أكثر من ١٦٠٠٠٠ موظف، بما في هذا القوات الأمنية الملتزمة بقمع أية حركة مقاومة.

كما تخضع حماس لعقوبات من جانب الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وإسرائيل فيما تمنع عنها إسرائيل ملايين الدولارات شهريا التي تجمعها من جباية الضرائب من السلطة الفلسطينية. أثر النقص الحاد الحالي في الأموال إلى جانب الانقسامات بين

قيادات حركة المقاومة الفلسطينية على قدرة حماس على توفير الخدمات الاجتماعية. ونتيجة لذلك، أخذت نساء عديدات بزمام المبادرة وعملن مع جماعات قاعدية لتقديم الرعاية الصحية والتعليم وتوفير الفرص لممارسة الرياضة، وإقامة مشروعات للتمكين من خلال بناء الثقة وخلق التكافل والتلاحم. قالت لى أيلين قطب الأكاديمية والناشطة وعضو مركز بيسان للأبحاث والتنمية، قالت لى فى بيرزيت

«إن بلدة بيسان جزء من فلسطين التاريخية. نعمل فى جنين والخليل ومختلف القرى ونربطها ببيسان. نحاول إيقاظ الوعي بالتحدث إليهن/ إليهم عن حركة المقاومة وعن مقاطعة السلع الإسرائيلية. نتبع نهج باولو فريرى لتعليمهم أن يقاوموا. نحاول تعزيز مفاهيم الاعتماد على الذات و التنظيمات ذات الأسس المجتمعية ومن خلال العمل التشاركى نساعد الناس على البقاء، وفى هذا السياق تبرز أهمية حزب الله لنا لأنهم تمكنوا من توحيد مختلف المجتمعات والطوائف».

هدى، أكاديمية وناشطة بجامعة القدس، وهى عضو منتخب فى الرابطة النسائية بالقدس الشرقية. تحول تلك الرابطة توفير التعليم والرعاية الصحية ومساعدة الأسر على حل مشاكلها اليومية علقت بالقول

«ثمة جمعيات نسائية كثيرة فى فلسطين تديرها فتح وحماس والتنظيمات السياسية الأخرى. بيد أن الإسرائيليين يضعون عقبات هائلة فى طريقنا. ولهذا السبب، تعمل بعض هذه الجمعيات مع النساء فى القدس الشرقية من أبوييس. نستطيع العمل بمزيد من الفاعلية ونحن خارج نطاق التحكم الإسرائيلى نقوم بإقامة الشبكات مع الجمعيات النسائية الأخرى أيا كانت توجهاتها وارتباطاتها السياسية (فتح، حماس، الجهاد، الجبهة الشعبية..) نعمل معاً لسد احتياجات النساء».

### الحروب الإسرائيلية توحيد الفلسطينيين ضدها

كما أسلفنا فى الفصل الرابع، كان هدف إسرائيل من الهجوم على حماس وحزب الله عام ٢٠٠٦ هو إثبات أنها على استعداد لتدمير أية منظمات تتحدى قوتها العسكرية وسيطرتها على المنطقة. كانت أيضا رسالة غير مباشرة إلى إيران وسوريا عما ينتظرهما إذا لم تسيرا فى ركاب سياسة الولايات المتحدة فى المنطقة. صرح إيهود باراك، رئيس وزراء إسرائيل وقتئذ، أن الهجوم العسكرى الشامل على غزة كان يهدف إلى تحرير جلعاد شاليط. وعلى هذا الأساس هاجموا محطات توليد الكهرباء وتركوا غزة فى ظلال شامل، أطلقوا الصواريخ على الجبهات المدنية بما فى هذا أحد الملاعب، وموكب جنائزى، وعلى أطفال كانوا يلعبون على الشاطئ.

عُرفت حرب عام ٢٠٠٩ على غزة بمذبحة غزة. شنت إسرائيل هجوما عسكريا استخدمت فيه القنابل العنقودية على المناطق السكنية المدنية بنزيرة ردها على إطلاق الصواريخ على جنوب إسرائيل [لم تحدث سوى أوهى الإصابات] وبزعم تهريب السلاح إلى غزة قتلوا ١٤٠٠ فلسطينى [بخلاف عديد المصابين والمشوهين] وأصبح ٤٠٠٠٠٠ من سكان غزة بدون مياه جارية، وهدم ٤٠٠٠ منزل أو دمرت تدميرا شديدا مما ترك عشرات الآلاف بدون مأوى. قصفت ٨٠ مبنى حكوميا، وقُتل مدنيون عزل كانوا يرفعون الرايات البيضاء. استخدموا الفلسطينين دروعا بشرية فى خرق فاضح للمواثيق الدولية. استهدفت القوات الإسرائيلية قواعد حماس، ومعسكرات تدريب الشرطة، ومقار الشرطة، والمكاتب، والبنية الأساسية المدنية بما فى هذا المساجد والمنازل والمرافق الصحية والمدارس بزعم أن تلك المباني يستخدمها مقاتلو حماس مخازن للأسلحة

والصواريخ، وفقا للصليب الأحمر فإن الآلاف الذين دمرت منازلهم في هذه المذبحة مازالوا بدون مأوى في عام ٢٠١٠ على الرغم من التعهدات بتقديم مساعدات تبلغ ٤,٥ مليار دولار، وذلك لأن إسرائيل ترفض السماح بدخول الإسمنت ومواد البناء الأخرى إلى قطاع غزة. مازالت المستشفيات تواصل النضال من أجل توفير احتياجات الحد الأدنى لمرضاهها بسبب منع إسرائيل وصول الإمدادات الطبية، كما أن ٩٥٪ من مياه غزة لا توفى بمعايير منظمة الصحة العالمية علاوة على ذلك، فإن وجود نسبة عالية جدا من النيترات في إمدادات المياه تعرض آلاف المواليد لخطر التسمم. تحظر إسرائيل على وكالات العون والإغاثة الاتصال بحماس بتاتا ويعنى هذا عجز هذه الوكالات عن إصلاح مرافق المياه والمرافق الصحية.

أثناء الحرب على غزة حدثت ثلاث هجمات على إسرائيل من جنوب لبنان من مؤيدى حزب الله<sup>(١)</sup>. وحدثت الحرب على غزة الفلسطينيين ضد إسرائيل، صرح لى يوسف، المدرس بالقدس الشرقية وأحد نشطاء فتح، قائلا:

«إن ما يحدث من شقاق داخلى بين الفلسطينيين هو شأن النخب السياسية ولا علاقة له بعامة الناس الذين يشعرون أن قيادات الفريقين يغشونهم. عدونا الوحيد هو إسرائيل سواء كنا من مناصرى فتح أو حماس أو الجهاد أو الجبهة الشعبية أو الشيوعيين، قاتلنا في غزة موحدين ضد إسرائيل عملا بالمثل القائل «أنا وأخويا على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب».

**السياسات الإسرائيلية تعمل على تقوية حماس وإيران؛**

الفلسطينيون هم أكثر شعب علمانى فى المنطقة ومازالت توجهاتهم

(١) نفى حزب الله أن تكون له أية علاقة بهذه الهجمات. (الترجمة)

القومية العلمانية إحدى سماتهم الغالبة وليس ثمة سياسات طائفية أو مذهبية في فلسطين. من ثم، فإن تأييدهم لحزب الله، وإيران، وحماس، يمكن تفسيره فقط على أساس ما حققه حزب الله من نجاح في لبنان حيث استطاعت مقاومته الباسلة دحر القوات الإسرائيلية من لبنان عام ٢٠٠٠، منذ غزو العراق عام ٢٠٠٣، عمداً الإعلام الموالي للغرب والإسرائيلي على التركيز على الانقسام الشيعي/ السني بهدف إضعاف النسيج المجتمعي في المنطقة وضمان أن تصبح إسرائيل القوة الوحيدة هناك. وعلى الرغم من هذه الدعاية، فحينما انتصر حزب الله في الحرب ضد إسرائيل عام ٢٠٠٦، ترك هذا الانتصار أثراً عميقاً على الفلسطينيين مرة أخرى وظهر التأييد الحماسي لحزب الله وإيران وكأن ليس ثمة وجود للانقسام المذهبي حيث إن كرامتهم وهويتهم الوطنية أهم كثيراً من الفروق الشيعية/ السنية. في هذا الصدد، تقول إصلاح جاد من جامعة بيرزيت:

«أثناء الحرب رأى الناس الحريري السني الذي يدعمه الغرب غير آبه بهجمات إسرائيل على لبنان، وفي المقابل، وحّد حزب الله المسيحيين والفلسطينيين السنة ضد إسرائيل، وفي هذا السياق، غدا حزب الله ونصر الله بالنسبة لغالبية شعوب المنطقة هم قادة الأمة العربية منذ ٢٠٠٦. علّق الناس صور نصر الله في بيوتهم ومحالهم التجارية ويحملون علم حزب الله وصور نصر الله أثناء تظاهراتهم ويهتفون به قائداً لهم، وذلك لأن حزب الله ونصر الله يتحلون إسرائيل عدو الفلسطينيين واللبنانيين ويتصرفون عليها ويؤكدون على عزة العرب وكرامتهم. بعد الحرب، بدأت السلطة الفلسطينية تتحدث لغة مذهبية مرة أخرى وتؤكد على الانقسام الشيعي/ السني وتروج أن الحرب كانت

بسبب سيطرة المذهب الشيعي على المذهب السني وثقافته في المنطقة، بدأ الناس يتساطون عن سبب عدم مناصرة أى قائد سني عربى للفلسطينيين ضد الإسرائيليين. نتيجة لذلك، أدركوا أن الصراع لا علاقة له بالدين أو المذهب بالرغم من دعاية الإعلام الغربى والصهيونى والعربى، بل إنه يتعلق بمن يريدون الخضوع لإسرائيل وحلفائهم الغربيين ومن يرفضون مثل هذا الخنوع، ومن يناصر الفلسطينيين فى مواجهة الجرائم الإسرائيلية ومن لا يناصرهم.

يُعجَب كثير من الفلسطينيين بتعددية حزب الله ويرون هذا توجهها إسلاميا حداثيا ونموذجا جديرا بأن يحتذى، يعنى هذا أيضاً أن غالبية الفلسطينيين لا يؤيدون تنظيم القاعدة أو بن لادن أو غيرهم من المسلمين المتعصبين. يمثل تعاون حماس وحزب الله الوجه الجديد للإسلام السياسى غير المتعصب أو المحافظ، بل التعددى الذى يركز على النضال ضد الصهيونية والإمبريالية، والذى اكتسب شعبية كبيرة فى المنطقة. مى، هي عضو فى تنظيم «ابن البلد» العلمانى الديمقراطى الذى يدعو إلى حل الدولة الواحدة، أى الحل الذى كانت منظمة التحرير قد تبنته لدى إنشائها. عندما التقينا قالت إن:

«حزب الله اكتسب شعبية فى فلسطين منذ عام ١٩٨٢ لأنهم تحالفوا مع المسيحيين والدروز والفلسطينيين السنة فى لبنان؛ ظلوا يدعمون كل حركات المقاومة، وليس حماس فقط، ودعوا إلى الوحدة بين جميع الفصائل والحركات فى فلسطين. نرى فى لبنان تعاوننا بين حزب الله والقوى الأخرى بما فى هذا اليساريون والمجموعات العلمانية. ونرى فى غزة أيضاً تعاوننا بين حماس والمجموعات الأخرى بما فى هذا مجموعات مناصرى فتح القاعدية. وفقا لمناصرى فتح والجبهة الشعبية فى غزة، فإن

حماس تتعلم من غالبية مناصريها أنه ليس بإمكانهم فرض أساليبهم المتشددة على مناصريهم وأن عليهم أن يكونوا متسامحين في البداية، فرضوا على النساء ارتداء الحجاب، لكنهم عدلوا عن فرضه فيما بعد، والآن، تؤيد الكثيرات من غير المحجبات حماس في غزة وأنحاء فلسطين الأخرى».

وكما أسلفنا في الفصل الرابع، فإن التناقضات المتأصلة في موقف حزب الله الديني/ السياسي ومعها الضغوط من جماهير القاعدة أدت إلى تغيير طبيعة التنظيم، مازال من غير الواضح ما إن كانت حماس ستغير بنفس الدرجة، إن الدافع الديني لدى حماس جلي وقوي، من ثم، يعتري القلق كثيرا من الفلسطينيين حول نوايا حماس لأسلمة المؤسسات الفلسطينية العلمانية سياسياً والليبرالية اجتماعياً وإحلال أجندتها المحافظة اجتماعياً محلها. أوضح لي عمر البرغوثي أحد الأعضاء المؤسسين للجنة «الحملة الفلسطينية لمقاطعة إسرائيل أكاديمياً وثقافياً»، أوضح لي في رام الله:

«يمكن أن يكون للنسخة الوهابية من الشريعة أثر ساحق وبخاصة أن من يدعمها هي الأسرة المالكة السعودية الأنوقراطية، والقامعة ثقافياً، والتي تملك موارد مالية هائلة تمكنها من تمويل نشر آرائهم الإسلامية عصر الأوسطية، في اعتقادي أن مفهوم الاجتهاد الشيعي كان له أكبر الأثر في انفتاح حزب الله على التحالفات مع المسيحيين في لبنان، والفلسطينيين السنة، والقوميين العرب والعلمانيين، بل والماركسيين أيضاً، لكن قيادات حماس من جهتها لم تظهر مثل هذا التوجه ناهيك عن خلق شراكة حقيقية مع القوى السياسية أو النشاط السياسي من قوى الأيديولوجيات التي لا تتناغم مع أيديولوجيا حماس، يُوظف حزب الله



مهنين بعضهم شيوعيون ومسيحيون ونساء غير محجبات فى شبكات مدارسهم ومراكز الرعاية الصحية الواسعة التابعة للحزب، لكن حماس لا تفعل ذلك. لقد أثبت حزب الله وفقاً لمعظم المعايير، وعلى الرغم من أى نقد قد يوجه إلى أرائه الإسلامية على المستويات الاجتماعية/الثقافية والفكرية، أثبت أنه أكثر حركات المقاومة تقدماً وتطوراً ورقياً فى التاريخ الحديث العربى والعالمى. منذ عام ٢٠٠٦، عوّقت حركة حماس واقعياً تطور المراكز الفنية والثقافية فى غزة، مثلاً، كانت موسيقى ورقصات وأغاني الـ Hip-hop مزدهرة كشكل من أشكال التعبير الثقافى فى مخيمات اللاجئين المكتظة، والآن تخضع تلك الأغاني لرقابة صارمة وتفرض القيود على عروضها من قبل حماس، كما تخضع المسرحيات للرقابة المشددة والحظر، انقرض الرقص تماماً من غزة باستثناء بعض العروض الفولكلورية الباهتة لفرق ذكورية بالكامل. وفى هذا، فإن حماس تُظهر توجهها وهابياً ظن الكثيرون أنها قد نبنته - أو أصلحت بشكل شامل حينما تحولت الحركة عن أصولها المرتبطة بالإخوان المسلمين إلى حركة مقاومة قومية فلسطينية رئيسية لها توجه إسلامى معتدل».

وفى رد على هذه الاتهامات، أعلنت حماس مراراً أنها لن تفرض أية ممارسات دينية على الفلسطينيين. وفى واقع الأمر، فإن المجتمع الفلسطينى يتميز بالتنوع ويضم العلمانيين والمتدينين والمسيحيين والمسلمين الذين تعايشوا معاً لقرون طويلة، يناصر غالبية هؤلاء السكان حماس بصفتها حركة مقاومة ضد إسرائيل، ولأنها توفر الخدمات والرعاية الاجتماعية، لكنهم لا يؤيدون أجندتها الدينية.

### علاقة إيران بحماس:

علاقة إيران بحماس متعددة الأبعاد: سياسياً وأيديولوجياً وثقافياً.

تتعلق على المستوى السياسى بعزلة الفلسطينيين فى العالم العربى. وقد نشأت تلك العلاقة فى سياق فشل الأنظمة العربية فى نصرة الفلسطينيين من ثم، يرى كثير من الفلسطينيين أن إيران هى البلد الوحيد الذى يدعمهم. ومثل حزب الله، تقيم حماس علاقات دبلوماسية مع إيران، ولها مكاتب ومتحدثون باسمها هناك، وتعمل على كافة المستويات السياسية والإعلامية. لكن تختلف علاقة إيران بـ حماس على نظيرتها مع حزب الله التى نشأت على أسس دينية/ تاريخية ولها أصول فى الأيديولوجيا الشيعية، أما علاقتها بـ حماس فهى نوع من الاتحاد السياسى. تقيم حماس روابط معشقة مع سوريا والسودان وليبيا ولبنان، وتتمتع أيضا بدعم دول مثل مصر والسعودية وقطر والكويت لكنه من نوع مختلف. تدعم الدول الموالية للغرب والولايات المتحدة حماس لتجابه النفوذ السورى/ الإيرانى. استقبلت دول أخرى مثل باكستان وماليزيا وإندونيسيا وتركيا وفودا من حماس دعما للفلسطينيين.

وعلى النقيض مما يزعم السياسيون والإعلام الغربى الذين يربطون بين المنظمة وإيران، فإن حماس، وتحت تأثير الإخوان المسلمين، تبدى إعجابا خاصا بالأحزاب الإسلامية المعتدلة الحاكمة فى تركيا وماليزيا أكثر من تأثرها بإيران وإعجابها بها. وقد قام كبار المسئولين فى حماس بزيارة تلك البلاد التى أرسلت دبلوماسيين للتواصل مع حماس. ولهذه الروابط الرسمية أهمية خاصة لدى حماس التى تحاول تغيير صورتها التى روجها الغرب كـ «منظمة إرهابية»، وأن تحل محل منظمة التحرير كممثل للفلسطينيين. وفى نفس الوقت، فإن علاقتها بالمعسكرات المناهضة لإسرائيل والولايات المتحدة مثل إيران تساعد على درجة كبيرة على جمع الأموال. وتعبئة الرأى العام فى صفها بالمنطقة وخارجها.

ينقسم الفلسطينيون حول دعم إيران لحماس، تذهب تانيا التي تعرف نفسها كعلمانية قومية يسارية وناشطة نسوية من خلفية مسيحية إلى أن «إيران أجندتها الخاصة في الشرق الأوسط، لكنني أفضل دورها على دور الولايات المتحدة، بالنسبة لي، فإن عدوى الحقيقي هو الصهيونية وليس إيران، ومن هذا المنطلق فإنني أدمع إيران وحماس، علينا التوحد ضد الاستعمار، بالطبع يساورني القلق بشأن أحكام الشريعة التي تلتزم بها حماس وإيران، لكننا لكي ننتصر علينا البحث عن تحالفات، نعاني معاناة هائلة من الاحتلال، وقد استطاعت حماس وحزب الله وإيران التصدي للصهيونية».

لكن قيادات فتح تتهم حماس باتباع إيران الشيعية، وأجندتها، أوضح لي أحد عناصر فتح، واسمه عمار، من القدس الشرقية أن: «إيران أصبحت مهمة بعد ثورة ١٩٧٩، وبخاصة بعد زيارة عرفات لطهران، لكننا نشعر الآن أن دعم إيران لحماس يساعد على تقسيم الصف الفلسطيني، إن الحركة في فلسطين لا تقتصر على حماس فقط، فهناك فتح والشيوعيون والجهاد وحماس، تدعم إيران حماس لأن لها أجندتها للسيطرة على المنطقة من خلال أيديولوجيتها الشيعية، إن لدعم الولايات المتحدة لفتح وإيران لحماس أثارا سلبية على الحركة الفلسطينية، إن التقسيم السني الشيعي في المنطقة خطر، وتفاقم إيران هذا الوضع، ليست هذه التحالفات لصالح الشعب الفلسطيني لأن لكل طرف أجندته، إن وحدة صفوف فتح وحماس إيجابية فقط حينما تتخلص جميع الأطراف من أجندات سائر حكومات المنطقة، إن وحدة الشيعة والسنة والمسيحيين واليهود أمر إيجابي لكن الحكومات تستغل الدين لتقسيم الشعب، علينا تحرير أنفسنا بجهودنا الذاتية، نجحت الثورة

الإيرانية لأنهم قاموا بأنفسهم ونجحت الانتفاضة الأولى لأن الشعب الفلسطيني كان هو من قام بها، أما الانتفاضة الثانية فلم تنجح لأن القادة الفلسطينيين سيطروا عليها، كل لأجندته الخاصة.

لا توافق إصلاح جاد، الأكاديمية بجامعة بيرزيت على هذا الرأي: «ترجع الانقسامات الداخلية داخل الصف الفلسطيني إلى أن الولايات المتحدة وإسرائيل تضغطان على السلطة الفلسطينية لتظل سلبية في مواجهة الاحتلال الوحشي لأرضنا والإذلال اليومي لنا، ومن هذا المنطلق يرى الفلسطينيون إيران وحزب الله وسوريا إلى جانبهم بالرغم من الاختلاف المذهبي. قبل عام ١٩٧٩، كان الشاه يتحكم في جانب من المنطقة وإسرائيل في الجانب الآخر ومنذ سقوطه وإسرائيل تحاول أن تسيطر على المنطقة بأسرها. لا يمكن لشعوب المنطقة القبول بذلك، ليس بسبب الدين، بل بسبب مخططات الصهاينة وما يرتكبونه من جرائم، بدعم من الغرب، ضد الفلسطينيين. يسأل الناس أنفسهم: ما أجندة إيران؟ إذا كانت هي التصدي لإسرائيل، إذن فهم يرحبون بها ويتبعونها».

ليست إيران وحزب الله هم وحدهم من يتمتعون بتلك الشعبية. أثناء الحرب على غزة كان الناس يرفعون العلم القنزويلى وذلك لدعم أوجو تشافس الفلسطينيين ضد إسرائيل. وفي يناير ٢٠٠٩، اندفع رجب طيب أردوغان، رئيس الوزراء التركي وغادر القاعة أثناء مناقشة وضع غزة بالمنتدى الاقتصادي العالمى بدايقوس (في احتجاج منه على رئيس الكيان الصهيونى حيث رفض أردوغان الجلوس إلى جواره أو مصافحته). كان هذا احتجاجا شفافيا سياسيا على الحرب على غزة. لدى عودته إلى إسطنبول، لقي أردوغان استقبال الأبطال، الأمر الذى

يعكس المعارضة المتنامية من جانب الشعب التركي لعلاقات البلد الطيبة مع إسرائيل. وفي اليوم التالي، اتخذ الفلسطينيون منه بطلا، وارتفعت صورته مع العلم التركي في المحال التجارية والشوارع. أيضا أصدر حزب الله بياناً أشاد فيه بخطاب أردوغان أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في سبتمبر ٢٠٠٩، ووصف البيان خطاب أردوغان بأنه شجاع وملتزم بالقضايا الدولية وبخاصة القضية الفلسطينية. أثنى عمار الموسوي رئيس العلاقات الدولية بحزب الله أيضا على دعوة أردوغان للمجتمع الدولي بالتركيز على ترسانة إسرائيل النووية بدلا من برنامج إيران النووي، وأضاف الموسوي إنه يأمل أن تتبع البلاد العربية خطى أردوغان.

وكما يوضح كثير من الفلسطينيين، تتداخل السياسة والدين في المنطقة. فللمرة الأولى. منذ جمال عبدالناصر، يسمع الشعب في فلسطين وما حولها صوتا يتصدى للجرائم التي ترتكبها إسرائيل والولايات المتحدة في فلسطين. ومن هذا المنطلق، غدت إيران قوة بديلة للولايات المتحدة بالمنطقة. يرحب الفلسطينيون بدعم إيران لهم في قتالهم ضد الصهيونية والاحتلال، لكنهم لا يريدون لها الهيمنة على المنطقة بحيث تحل الأيديولوجيا الشيعية محل القومية العربية. يرون أن العراق بلد عربي دمره الأمريكيون وأن إيران متواطئة في تدميره. لكنهم يرون دور إيران مسألة تقبل الجدل، فيما يرون موقف القادة العرب الذين يؤيدون الولايات المتحدة وإسرائيل علنا [والذين ساهموا في غزو العراق واحتلاله] مشينا مخزيا. تركزت جميع جهود الأنظمة العربية على تصوير إيران على أنها العدو، وليس إسرائيل. وقد بدأت بعض تلك الحكومات تدرك الآن أنه من المحتمل لغضب شعوبها التي تعاني من إخضاعها

لبشاعة الصهيونية والإمبريالية، الإطاحة بها. يناظر هذا وضع حماس: يدعم الناس حماس ليس لأنها متدينة أو متعصبة، بل لأنها حركة المقاومة الوحيدة الفاعلة:

يقول أسامة الناشط في مدينة حيفا:

«تعمل إيران نموذجا جديدا على الجماهير العربية التي اعتادت أن تربط الحضارة والتنمية بالغرب والغريزة. في السنوات الأخيرة، أمدتنا إيران بنموذج جديد للتنمية والحضارة، سئم الناس نفاق الغرب وهم يبحثون الآن عن حضارة إسلامية، أو شرقية أو شرق أوسطية».

وعلى الرغم من دعم إيران القوى في فلسطين، فقد أثارت احتجاجات ما بعد انتخابات ٢٠٠٩ في إيران تساؤلات لدى كثير من الفلسطينيين. وعلى الرغم من تشكك الكثيرين نتيجة لدعم الإعلام الغربي والإسرائيلي والعربي الرسمي لحركة الديمقراطية في إيران وتساؤلاتهم عما إن كان هدفها هو زعزعة البلد، فإن الغالبية يتعاطفون معها. أخبرني رفعت، الناشط الفلسطيني الذي يعيش في لندن قائلا:

«ظللنا دائما نتقد دور إيران في العراق. والآن، يثير اضطهاد، نشطاء الديمقراطية في إيران سؤالا لدينا: كيف لنا أن نتق في نظام لا يمكن لشعبه محاسبته؟ إذا لم يكن باستطاعته النزول على رغبة شعبه، فكيف له أن يؤازرنا. من المؤكد أن خطابهم بعد الثورة كان مهما، لكن خطابهم الحالي لا يفيد الفلسطينيين».

حماس في السلطة:

تختلف حماس في السلطة عن حماس في المعارضة، كما أنها ليست منظمة ذات بعد واحد: لها جناحها العسكري، وجناحها السياسي، وجناحها الديني. استخدمت حماس العنف ضد إسرائيل وضد فتح،

لكنها، وكما أسلفنا في الفصل الرابع فقد خاضت الانتخابات وفقا لبرنامج مؤسس على القانون والنظام والرفاه الاجتماعي. قبل الانتخابات، ألغت حماس من برنامجها الدعوة إلى تدمير إسرائيل، مقترية بذلك من برنامج فتح الذي كانت قد أدانته. ومنذ الانتخابات، عمدت إلى تخفيف لهجة موقفها القومي الداعي إلى تحرير فلسطين من النهر إلى البحر. كتب محمد الزهار، وزير خارجيتها، إلى كوفي أنان، أمين عام الأمم المتحدة وقتئذ، يعلن أن حكومته على استعداد للقبول بحل الدولتين على أساس حدود ٤ يونيو ١٩٦٧، وبدولة ذات سيادة حقيقية وعاصمتها القدس. من ثم نجد أن المنظمة تتحرك باتجاه القومية البرجماتية. وبعيدا عن التوجه الإسلامي القتالي مما يمثل مصدراً للقلق لكثير من الفلسطينيين. أخبرتني ليلي، الناشطة الفلسطينية بلندن:

«إن الأحاديث مؤخرا عن الاعتراف ببولة إسرائيل سقطت كالقنبلة على رؤوس الفلسطينيين وغالبية شعوب المنطقة. إذا لم تكن الفكرة هي تمثيل طموحات الفلسطينيين بل الرقص على أنغام الولايات المتحدة، إذا فإن فتح هي النموذج الأفضل للعب هذا الدور. كان من المفترض لحماس تبني الرؤية السياسية للفلسطينيين وأجندتهم والعمل وفقها. لكنها الآن تبتعد عن هذا النموذج وتعتمد نموذج فتح. إذا لم تلتزم حماس بالتصرف وفقا لطموحات الشعب الفلسطيني وهي في السلطة، فستفقد صورتها كحركة مقاومة».

أيضا، فقد حدث تعديل في الموقف الإيراني. صرح آية الله الخامني عام ٢٠٠٦، أن لإيران والبلاد العربية رؤية مشتركة حول القضية الفلسطينية، مضمرا بذلك أن إيران تقبل المبادرة العربية التي أعلنت في قمة بيروت عام ٢٠٠٢ والتي تدعو إلى تطبيع العلاقات مع إسرائيل

مقابل رجوعها لحدود عام ١٩٦٧، وعلى الرغم من أن السيد حسن نصر الله مازال يعلن أن حزب الله، كتنظيم لبناني، لن يعترف أبداً بشرعية الكيان الإسرائيلي أو وجوده، فقد قال إنه لن يعارض أي قرار فلسطيني يؤيد حل الدولتين.

كان فوز حماس في انتخابات ٢٠٠٦ مهما بالنسبة لإيران إذ إن علاقاتها مع الحكومة العراقية والسورية، ومع حزب الله في لبنان وحماس في فلسطين تشكل لها كتلة قوية في مواجهة السياسات الأمريكية والإسرائيلية في المنطقة. يضع هذا الدعم، ومعه دعم القاعدة الجماهيرية بالمنطقة لإيران، يضعها في وضع قوى للدفاع عن نفسها ضد أي هجوم محتمل من هذين البلدين. تفيد حماس أيضاً من دعم إيران لها لأن ذلك يتيح لها أجندات دعم منافسي إيران، أي مصر والسعودية وتركيا، التي تخشى أن تسقط حماس في مجال سلطة إيران ونفوذها.

تعتبر حماس علاقتها بتركيا أهم من علاقتها بإيران إذ إن تركيا عضو بالنايتو وقد دعت وقد رفيع المستوى من حماس لزيارة أنقرة، وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة وإسرائيل تمارسان ضغوطاً على تركيا، فقد عرضت أن تقوم بالوساطة بين حماس وإسرائيل. في عام ٢٠٠٩، ذهب أربوغان إلى أن أي اتفاق إسرائيلي/ فلسطيني يجب أن تكون حماس طرفاً فيه. برهنت حماس، المتجذرة في جماعة الإخوان المسلمين، ومن خلال سياق القومية الفلسطينية، برهنت على استعدادها لتبنى برامج براجماتية توفيقية على غرار الحزب الحاكم في تركيا.

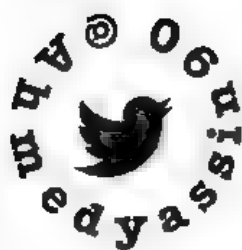
حينما هاجمت إسرائيل أسطول الحرية في المياه الدولية وهو في طريقه لكسر الحصار عن غزة في يونيو ٢٠١٠، وقتلت تسعة نشطاء



أتراك، تنامت شعبية تركيا في فلسطين وأنحاء المنطقة. ويتحديها إسرائيل وتصديها لها، أفادت الحكومة التركية على المستويين الداخلي والإقليمي.

يرى جيه. هلال قى كتابه «وفاة حل الدولتين» «أن الإسلام يوفر غطاء أيديولوجيا لمختلف أنواع التشكيلات السياسية والاجتماعية، ويتضح لنا صواب هذه المقولة من خلال سياسات إيران وحزب الله الخارجية. طالما أدت الأوضاع الاجتماعية/الاقتصادية والسياسية إلى تغيير الحدود بين الإسلام المحافظ والإسلام الليبرالي الديموقراطي في الشرق الأوسط وزحزحتها، بحيث إننا نجد أن تلك التيارات الإسلامية المتنوعة تسعى بأساليبها المختلفة لعمل التنازلات لصالح الديموقراطية الليبرالية. لكن العامل المشترك بينها جميعا هو موقفها المعادي للإمبريالية والصهيونية.





## العلاقة بين إيران ومصر

منذ عام ١٥٠٠م ظلت مصر تستضيف أناسا من شعوب وثقافات مختلفة بما في هذا الإيرانيون والأتراك واليونانيون والإيطاليون. ترجع العلاقة بين مصر وإيران إلى ما بين عامي ٥٥٠ و ٤٨٦ ق م لدى حفر قناة تصل ما بين البحر الأحمر ونهر النيل وتربط بهذا البحر الأبيض بالمحيط الهندي، والتي أتم حفرها داريوس الأول الفارسي. كما كان للمذهب الإسماعيلي الشيعي بقيادة عبدالله بن ميمون، والذي عُرف بالقدّاح، وكان من أصول إيرانية، تأثيره في قيام الخلافة الفاطمية (٩٠٩ - ١١٧١) في مصر وشمال إفريقيا. وأثناء حكم المستنصر (١٢٥ - ١٠٩٤)، قام الشاعر والمفكر الإيراني الكبير ناصر خسرو بزيارة القاهرة، وهناك اعتنق الشيعة الإسماعيلية، وكما أسلفنا في الفصل الثالث، تمتع المذهب الشيعي بالانتشار والقوة، في تلك الآونة، في شمال إفريقيا وجنوب سوريا، فيما كانت إيران مركز الفقه السني، لكن، حينما تراجع المذهب الشيعي في شمال إفريقيا وسوريا، أصبحت إيران مركزا له.

ماثل التطور الرأسمالى فى مصر القرن التاسع عشر نظيره فى إيران؛ وكان يحفز هذا التطور بشكل أساسى احتياج الأسواق الرأسمالية الغربية للاستيراد من هذين البلدين. وكما ذكرنا فى الفصل الأول، تمت عملية إدماج إيران فى الاقتصاد العالمى من خلال النقطة، وإدماج مصر من خلال زراعة القطن وتصديره لأوروبا. أدى توسع زراعة القطن فى مصر إلى تحويل الأراضى الزراعية إلى ملكية خاصة وإعادة هيكلة العلاقات الاجتماعية الزراعية.

وكحال إيران والعراق، لعب علماء الدين فى مصر دور الوسيط بين الدين وعامة الشعب وشارك كثيرون منهم فى الحركات المناهضة للاستعمار. كان محمد على، والى مصر ما بين عامى ١٨٠٥ و١٨٤٨، قد

شكل الاقتصاد الحديث في مصر والمجتمع الحداثي وتحدي الهيمنة الاقتصادية الأجنبية على مصر. وفي عهده كان العلماء يتلقون دخولا من عائدات الضرائب الزراعية ومن الأوقاف، وكان يستشيرهم في الأمور السياسية، بيد أنه، فيما بعد، أخضعهم، وجعلهم موظفين يتلقون رواتبهم من الدولة.

قام المستثمرون الأوروبيون بتطوير بنية أساسية حديثة في مصر، وقاموا بإعادة حفر قناة السويس الذي تم عام ١٨٦٩. عمل رأس المال الأجنبي على تسهيل التنمية الاقتصادية في تلك الفترة، حيث كان الأجانب يملكون الصناعات ووسائل النقل والمواصلات بشكل أساسي ويتحكمون فيها، وراكت مصر ديوناً مهولة لحساب المدنيين الأوروبيين.

نجم عن هذه الأوضاع حركة مقاومة جماهيرية فى مواجهة السيطرة السياسية والاقتصادية والثقافية، وفى عام ١٨٨٢، غزت بريطانيا مصر بذريعة حماية المصالح الأوروبية والحفاظ على قناة السويس. وبنهاية القرن التاسع عشر كانت الغالبية الساحقة من الفلاحين المصريين معدمين فيما ظهرت طبقة جديدة من كبار ملاك الأراضى وغدت هى الطبقة المسيطرة حتى قانون الإصلاح الزراعى عام ١٩٥٢.

لم يقتصر أثر علاقات السوق على المجال الاقتصادى وحده بل أيضا على توزيع السلطة والحياة الثقافية. طوال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين تحدى العمال والفلاحون العلاقات الاجتماعية القائمة على الاستغلال، ولعبت الاحتجاجات والتظاهرات والإضرابات العمالية دورا مهما فى تنمية التوجهات القومية والوطنية. كان اللورد كرومر هو المندوب السامى البريطانى فى مصر فى الفترة ما بين عامى ١٨٧٩ و ١٩٠٧، ورأى أنه يجب تحرير النساء المصريات من الإسلام ومن قبضة الرجال المسلمين[!!]، وعلى الرغم من ذلك، عارض تعليم المصريات، بل وحتى عارض أن تعالج الطبيبات المختصات النساء قائلاً: إن القاعدة فى أنحاء العالم المتحضر هو أن يتولى الأطباء الرجال أمور العلاج، مثل هذه المواقف والأوضاع وغيرها، استفزت النساء بحيث لعبن دورا مهما فى الحركة الوطنية.

كان السيد جمال الدين الأفغانى (١٨٢٨ - ١٨٩٧) الذى ولد بإيران وتلقى تعليما شيعياً من رواد الحداثة الإسلامية. عمل على تغيير الإسلام من مجرد عقيدة دينية إلى أيديولوجيا دينية/ سياسية وركز على مقاومة الهيمنة الغربية. كتب بالعربية وعاش بمصر من عام ١٨٧١ إلى عام ١٨٧٩ حيث قام بتدريس الفلسفة الإسلامية ونادى بمقاومة الاستعمار

إلى أن طرده البريطانيون من مصر ١٨٧٩ لخطاباته المعادية للبريطانيين، وبعد طرده واصل أتباعه اشتغالهم بالأنشطة الوطنية. عمل الشيخ محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) مع رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥) والذان تأثرا بالأفغانى رغم اختلافهما - على ريادة مدرسة الفكر الإسلامى الحادثى التى أصبحت هى السائدة منذ نهاية القرن التاسع عشر.

عرض عبده ورشيد رضا الحكم البريطانى فى مصر، وكانا من الإسلاميين الإصلاحيين الذين يؤمنون بتوافق الإسلام مع الحادث، يذهب عاصف البيات إلى أن القرائن التاريخية تثبت أن التوجهات الإصلاحية تلك وجدت بين أهل السنة مثلاً وجدت بين الشيعة. دعا عبده إلى اكتساب العلوم الحديثة وإلى المساواة بين الرجال والنساء وإلى تعليم المرأة الذى كان البريطانيون قد كبحوه، نقد إغلاق باب الاجتهاد، وتعتبر أعماله إعادة تأويل للفكر الإسلامى بما يتناسب مع العالم الحديث. كان لأفكاره آثار واسعة واستمرت تشكل فكر الإصلاحيين الإسلاميين فى المجتمعات ذات الغالبية المسلمة وغيرها.

وكما الحال فى إيران ولبنان والعراق وفلسطين، ظلت النساء تلعب دوراً مهماً فى التاريخ الاجتماعى لمصر. يمكن تقصى الحركة النسائية فى مصر إلى القرن التاسع عشر حينما كانت النساء من أمثال ملك حفنى ناصف يكتبن مقالات بانتظام فى الصحف المصرية. وفى بداية القرن العشرين تعاظمت الأنشطة النسائية وظهرت حركات نسوية مختلفة حيث أنشأت النساء جمعيات نسائية وشاركن فى ثورة ١٩١٩ الوطنية التى أدت إلى صياغة دستور ١٩٢٣. لُقبت صفية زغلول، زوجة الزعيم المصرى سعد زغلول بأُم المصريين لقيادتها الحركة الوطنية

النسائية، وأيضا، كان لهدى شعراوي دور رائد في الحركة النسائية المصرية وإنشاء الجمعيات النسائية، كما لعبت المسيحيات دورا مهما في تلك الحركة. أثارت النقاشات حول تحرير المرأة بين الإصلاحيين الإسلاميين وفي المجلات والنوريات النسائية، وطرحت للجدل قضايا تعدد الزوجات والزيجات التي ترتبها الأسرة وتُفرض على الفتيات وقضايا تعليم النساء.

كان للقوميين العلمانيين واليسار دور مهم أيضا، في عام ١٩١٩، جسد حزب الوفد المصري الكفاح من أجل الاستقلال وتمتع بتأييد جماهيري هائل بين الطبقات العاملة في الريف والمدن. بيد أن الحزب فقد سيطرته على الحركة العمالية. وأدت توجهاته الليبرالية إلى إثباط غالبية الشعب، ثم تقلصت شرعيته أكثر كمثل لعامة الشعب بموقفه المهادن للملك، وعجزه عن مقاومة هيمنة كبار ملاك الأراضي<sup>(١)</sup>. بعد الحرب العالمية الثانية، فشل الوفد في قيادة جماهير الشعب الذين كانوا يطالبون بنهاية الهيمنة البريطانية والاستقلال وعجز عن توفير قيادات لحركة المقاومة الوطنية الجماهيرية.

في تلك الفترة تنامت قوة التنظيمات الشيوعية وتأثيرها، تبنى الشيوعيون، في الثلاثينيات وبداية الأربعينيات مطالب العمال ونظموا الإضرابات عن العمل والطعام، والمسيرات الاحتجاجية والاعتصامات ووقفوا الشرعية الوطنية للحركة العمالية. بيد أن الحركة الشيوعية تشظت في منتصف الأربعينيات وفشلت في تطوير دعم شعبي قاعدي لها. أيضا، أدى القمع السياسي إلى إنزال نكسات كبرى بمختلف الحركات الوطنية والشيوعية التي انتهى بها الأمر إلى حل نفسها

(١) كان عدد من زعامات الوفد من كبار الإقطاعيين وملاك الأراضي (الترجمة)

والاندماج فى الدولة الناصرية فيما بعد. فقدت الحركة الشيوعية شعبيتها بخاصة لتبعيتها للاتحاد السوفييتى وتبنيها تصديق ستالين على تقسيم فلسطين وإقامة دولة إسرائيل.

ظهرت جماعة الإخوان المسلمين، التى كان حسن البنا قد أسسها عام ١٩٢٨، كمنافس للوفديين القوميين وللشيوعيين. أضفى حسن البنا، الذى كان من أتباع الأفغانى، وخطابه بعدا إضافيا على تقاليد الكفاح السياسى الإسلامى. كان قائدا كاريزميا، ولعبت الجماعة، تحت إرشاده، دورا مهما فى النضال ضد الاستعمار البريطانى. كان البنا يؤمن بالانتخابات البرلمانية، وترشح فى عامى ١٩٤٢ و ١٩٤٥ ولم يفز. أولت الجماعة أيضا اهتماما بقضايا النساء وأنشأوا فرقة الأخوات المسلمات عام ١٩٣٢، التى تركزت أنشطتها فى تلك الفترة على الأعمال الخيرية والرعاية الصحية والتعليم. كانت الجماعة فى الثلاثينيات تمد العاطلين عن العمل بالمساعدات المالية، والتزموا بتعبئة المجتمع المدنى من خلال المساجد والجمعيات الشبابية والأنشطة الرياضية والتنظيمات النسائية والمستوصفات وأنشطة العمل التعاونية، وأدى فشل الليبراليين والشيوعيين فى الأربعينيات إلى ترك الساحة للأخوان المسلمين كبديل قابل للحياة.

### إيران ومصر:

تم دعم العلاقات بين إيران ومصر على مستوى الدولة عام ١٩٢٩ حينما تزوج محمد رضا، شاه إيران، بالأميرة فوزية شقيقة الملك فاروق، وكان الملك لا يتمتعان بشعبية فى بلديهما بسبب إذعانهما للهيمنة الأجنبية، كما زاد استياء الشعب المصرى من الملك فاروق بعد هزيمة الجيش المصرى فى فلسطين، وخلال تلك الفترة، قوى الإسلاميون فى



إيران ومصر علاقاتهم. فى عام ١٩٤٧، قام محمد تقى القمى، عالم الدين الإيرانى، والشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر، بمحاولات للتقارب بين المذهبين السنى والشيعى. قام القمى بتدريس الفقه الزيدى والمذهب الاثنى عشرى الشيعى جنبا إلى جنب مع فقه المذاهب الأربعة السنى. ثم قام الإخوان المسلمون عام ١٩٥٤، فى محاولة لمقابلة تلك الجهود، بدعوة نواب الصفوى، قائد تنظيم فدائى إسلام الإيرانى لحضور مؤتمر بجامعة القاهرة. وفى عام ١٩٥٩، تم الاعتراف بالشيوعية الاثنى عشرية خامس مدرسة فقهية إسلامية (إلى جانب المذاهب لسنية الأربعة) وشجعت الجامعة الأزهرية تدريس اللغة والآداب الفارسية. فى تلك الأثناء، كان قد حدث عام ١٩٤٨ أن اغتال الإخوان المسلمون النقراشى، رئيس الوزراء المصرى، وردت السلطات المصرية باغتيال الشيخ حسن البنا.

وكما أسلفنا فى الفصل الأول، كان تأميم مصدق للنفط فى إيران عام ١٩٥١ (الذى أعقبه انقلاب دبرته السى آى إيه وM16)، وتأميم جمال عبدالناصر لقناة السويس عام ١٩٥٦ قد جعلتا من مصدق وناصر بطلين شعبيين فى كل المنطقة وكانت شعبية عبدالناصر فى إيران تماثل شعبية مصدق فى مصر تقول أن ألكساندر:

«غمزت مشاعر الفرح والابتهاج المصريين واندلعت التظاهرات لرؤية التقنيين البريطانيين يغادرون منشآت عبدان بعد تأميم الحكومة الإيرانية لشركة النفط الأنجلو/ إيرانية فى أغسطس ١٩٥١ ورأوا فى الحالة الإيرانية نموذجا ممكنا لصراعهم للتحرير الوطنى. بيد أن المسئولين البريطانيين والقادة العسكريين، تبينوا وقد تملكهم الذعر، وفيما كانوا يفكرون فى إرسال قوات عسكرية لعبدان، صعوبات عمل ذلك نظرا لأنه

كان عليهم التعاطى مع التظاهرات الشعبية فى أنحاء مصر والهجمات الفدائية فى منطقة القناة فى آن.

بعد انقلاب السى آى إيه فى إيران، اعتبر الشاه جمال عبدالناصر أداة للشيوعية، واعتبر عبدالناصر الشاه أداة للإمبريالية. فى عام ١٩٥٢ أُجبر الملك فاروق على التنازل عن العرش وتم إلغاء الملكية عام ١٩٥٢ وأُتاحت الحركة الوطنية المجال للضباط الأحرار الأخذ بزمام الأمور. فى عام ١٩٥٤، أُجبرت الحركة الجماهيرية وقوتها البريطانيين على الانسحاب من قناة السويس. وبعد تأميم القناة، ضمن ناصر الحقوق النولية للمرور من القناة ودفع التعويضات لكثيرين من حملة الأسهم الأجانب.

كان عبدالناصر ورفاقه، فى السنوات المبكرة يتشاركون مع الشيوعيين والإخوان فى كثير من الرؤى. لكن سرعان ما دبت الخلافات بين ناصر والشيوعيين والإخوان، والتجأ الشيوعيون إلى العمل السرى فيما ألقى بقيادات الإخوان فى المعتقلات. فى البداية، كان عبدالناصر يعتبر سيد قطب، مؤدج الإخوان، حليفا مفيدا. لكن الخلافات تفاقمت بين الطرفين، وبعد محاولة الإخوان اغتيال عبدالناصر، تم حظر الجماعة وألقى بأعضائها وقياداتها فى المعتقلات وأُعدم أربعة منهم.

وعلى الرغم من اضطهاده للشيوعيين وموقفه المعادى للإمبريالية، كان عبدالناصر يقبل المساعدات من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة فى آن.

بيد أن غالبية المصريين كانوا ينظرون لناصر على أنه هو من أطاح بالملكية وأنهى الاستعمار البريطانى وأمم قناة السويس وأصدر قوانين الإصلاح الزراعى وحقق تنمية اقتصادية.. إلخ.

استمرت الأنشطة النسائية في الفترة الناصرية وتركزت على حقوق النساء والدفاع عنها، وعلى التنظيمات غير الحكومية وتحدي خطابات الهيمنة الذكورية.

في عام ١٩٥٦ هاجمت فرنسا وبريطانيا منطقة القنال [في رد منها على تأميم القناة] ودخلت الجيوش الإسرائيلية شبه جزيرة سيناء، ثم أُجبروا جميعهم على الانسحاب [وكان في هذا نهاية الإمبراطورية البريطانية]:

في تلك الأثناء لم تتوقف الحركة المطالبة بالديموقراطية، بيد أن هزيمة عام ١٩٦٧ أتت معها بنكسة للتيارات القومية والشيوعية ليس في مصر فقط بل في جميع أنحاء المنطقة. وفي عام ١٩٧٠، بعد أن خاضت مصر حرب استنزاف ناجحة ضد إسرائيل وأعادت تسليح جيشها الذي أصبح ذا كفاءة عسكرية وقتالية عالية، قبل ناصر قرار الأمم المتحدة بانسحاب إسرائيل من جميع الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧ مقابل إقرار السلام بينها وبين الدول العربية.

وكما أسلفنا، كانت إيران في تلك الأثناء قد اعترفت بإسرائيل وكانت تمدّها بالنقط مما أدى بجمال عبدالناصر إلى قطع العلاقات مع إيران، لكن حينما توفي عبدالناصر في سبتمبر عام ١٩٧٠، حضر فريدون هوييدا، رئيس الوزراء الإيراني جنازته ممثلاً للدولة الإيرانية. خلف أتور السادات (١٩٧٠-١٩٨١) عبدالناصر، وعكس جميع سياسات ناصر الاقتصادية وألغى دعم الدولة للإسكان والرعاية الصحية وغيرها، وفتح الاقتصاد المصري على مصراعيه أمام الاستثمارات الأجنبية. ثم قام في عام ١٩٧٩ بتوقيع اتفاقية كامب دايفيد للسلام مع إسرائيل.

ما بين عامي ١٩٧١ و١٩٧٣، واصل اليسار العلماني والحركات

القومية نضالهم من أجل الديمقراطية، والسيادة الوطنية، والعدالة الاجتماعية والاقتصادية، وكان لهم قدر من التأثير على الحركة العمالية. أطلق السادات سراح قيادات جماعة الإخوان المسلمين الذين كانوا قد اعتقلوا في عهد ناصر، وعلى الرغم من أن الجماعة ظلت محظورة قانونياً، إلا أنه سمح لهم في عام ١٩٧٩ بإعادة إصدار صحيفتهم «الدعوة». كما أمر السادات بوضع دستور جديد جاء به أن الإسلام هو المصدر الأساسي للتشريع.

كانت صحيفة الدعوة تؤيد صراحة سياسات السادات الليبرالية الانفتاحية، وظلت الجماعة معادية للشيوعية والعلمانية. أقامت الجماعة حركات دعم قاعدية قوامها الاتحادات الطلابية الإسلامية والمجموعات الأخرى التي تتبنى فكر سيد قطب. وبنهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات، كان الإخوان المسلمون ومعهم جماعة الجهاد الإسلامية والجماعة الإسلامية الذين مضوا يتحدون الدولة قد أصبحوا حركات اجتماعية قوية ونشطوا بخاصة في وسائل الإعلام والمؤسسات التعليمية ومؤسسات الرعاية الصحية.

أعاد السادات العلاقات الدبلوماسية مع إيران وكان السادات يتحدث الفارسية بطلاقة وله علاقات وثيقة مع الشاه الذي أمد مصر بقروض لإعادة إعمار بورسعيد ودعم السادات في قراره لتوقيع معاهدة سلام مع إسرائيل. وعلى الرغم من كل هذا، رحب غالبية المصريين بالثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ بمن في ذلك اليساريون والقوميون العلمانيون والإسلاميون. رأوا في الثورة برهانا على إمكانية هزيمة طاغية قوى، وردا من قبل أمة مسلمة على أعمال العدوان الإمبريالية والصهيونية. هرب شاه إيران إلى الولايات المتحدة ثم إلى القاهرة حيث رحب به

السادات الذى كان يتعرض لمعارضة قوية فى مصر نتيجة لسياسة «الباب المفتوح» مع الغرب وموقفه المسالم من إسرائيل. ثم توفى الشاه ودفن بالقاهرة. نتيجة لذلك، قطعت إيران الثورة العلاقات الدبلوماسية مع مصر. كانت مصر هى ودول مجلس التعاون والأردن واليمن حلفاء للعراق فى حريها ضد إيران. وفى تطورات لاحقة، شاركت مصر عام ١٩٩١ فى قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة التى أدت إلى إخراج العراق من الكويت ثم بعد غزو العراق عام ٢٠٠٣، وسقوط صدام، ظلت مصر مترددة فى إقامة علاقات مع الدولة العراقية الجديدة التى يهيمن عليها الأكراد والشيعة ولها روابطها بإيران.

وعلى الرغم من ذلك، فبعد انتهاء الحرب العراقية/ الإيرانية، تم استعادة التعاون الصناعى والتجارى بين مصر وإيران. بلغ حجم التجارة بين الطرفين لدى نهاية رئاسة رفسانجاني (١٩٨٩ - ١٩٩٧) ثمانين مليون دولار. وخلال فترة رئاسة خاتمي كانت ثمة محاولات لتحسين العلاقات من خلال تبادل الزيارات الدبلوماسية وإقامة جمعية الصداقة المصرية الإيرانية فى إيران. اكتسب فوز الإصلاحيين فى انتخابات عام ٢٠٠٠ التشريعية أهمية خاصة لدى المصريين إذ رأوا إيران نموذجا للديموقراطية فى الشرق الأوسط الإسلامى، وبخاصة لأن الرئيس مبارك كان قد مدد العمل بقانون الطوارئ، حتى أن الأزهر، الذى كثيرا ما ينقد إيران، أكد أن هذه الانتخابات تبين أن بإمكان الحياة الديموقراطية أن تنمو فى ظل الحكم الإسلامى.

وفى عام ٢٠٠٩، غدت الانتخابات التى أجريت فى إيران وما أعقبها من قمع سياسى موضوعا للنقاش فى أوساط اليسار العلمانى، والقوميين والإسلاميين بمصر. أثار دعم إعلام التيار الرئيسى الغربى

والمصري والعربي لحركة الديمقراطية تساؤلات كثيرة لدى المصريين. ووفقا لتعليق أميمة أبوبكر الأكاديمية والناشطة في مجال حقوق النساء فإن:

«انتخابات يونيو في إيران أصابتنا بإحباط عميق إذ شعرنا أن هناك انتخابات حقيقية وديموقراطية حقيقية في إيران. وفيما رأينا الوحشية التي استخدمت ضد المتظاهرين فقد شهدنا أيضا دعم الحكومات الغربية والإقليمية لحركة الديمقراطية بإيران، مما أصابنا بالتشوش والتشكك، ومازلنا نتساءل عن وجود أيد أمريكية تعمل في إيران».

أيضا، ظلت هناك محاولات من قبل حكومة أحمدى نجاد لعودة العلاقات بين مصر وإيران. في ديسمبر ٢٠٠٩، حضر على لاريجاني رئيس البرلمان الإيراني، وهو من المحافظين الوسط، اجتماع الاتحاد البرلماني لمنظمة المؤتمر الإسلامي. وعلى الرغم من عدم وجود علاقات دبلوماسية بين البلدين منذ عام ١٩٨٠، ومن معارضة المحافظين المتشددين، اجتمع لاريجاني بمبارك وناقشا قضايا فلسطين والسلام والأمن في المنطقة والتبادل التجاري الممكن بين البلدين:

### صعود الإسلاميين

ناقشنا في الفصول السابقة تأثير إيران في لبنان والعراق وفلسطين من منطلق السياق التاريخي الأوسع، مثل التطورات الاجتماعية / الاقتصادية، والتيارات القومية والإسلامية والمسار السياسي لتلك التجارب من أجل توضيح التغييرات المتميزة التي أحدثتها في تلك المجتمعات. ومن نفس المنطلقات سنبحث سقوط اليسار العلماني والحركات القومية في مصر وصعود الحركات الإسلامية كقوة بديلة، وأيضا تناقضات الإسلام السياسي هناك، وأوجه قصوره وطبيعته الدينامية.

استغل ناصر والسادات ومبارك شعبية الإسلاميين من أجل ترسيخ سيطرتهم على الحكم. أيضا استخدموا الإسلاميين من أجل قمع اليسار العلماني والقوميين<sup>(١)</sup>. في ظل حكم السادات ومبارك الذي تولى السلطة عام ١٩٨١ تم إضعاف اليسار العلماني والقوميين نتيجة للشقاكات بينهم. أيضا، أسهم القمع السياسي وافتقارهم لأي برنامج سياسي متسق في عدم دعم غالبية الناس لهم. كما أنهم لم يكن لهم أي إسهام مؤثر في الأوساط التي يحظون فيها ببعض التأييد مثل الحركات العمالية كما ظلوا أقلية في الاتحادات العمالية ذات القيادات الموالية للحكومة.

أما بالنسبة لناشطات حقوق النساء فإن موقف اليسار العلماني والقوميين ظل ملتبسا حيث إنهم لم يولوا مساواة النوعين أية أولوية. وفي عام ١٩٨٢ هاجمت نوال السعداوي التفرقة بين الإناث والذكور في محيط الأسرة وفي المجتمع ككل. وفي عهد مبارك استمرت عدد من ناشطات حقوق النساء في النضال من أجل قضايا المرأة. تذهب ليلي أبولغد إلى أن الإسلاميين، بتبنيهم الأفكار الحداثيّة عن دور المرأة في المجتمع والعلاقات الزوجية والأسرة، بدأوا ينافسون اليسار العلماني والليبراليين والقوميين في هذا المجال. وفي عهد مبارك، أخذت المنظمات التابعة للأمم المتحدة وهيئات التمويل الدولية تعمل على تشكيل سياسات الدولة وأجندات الأنشطة النسائية المعاصرة وكان لهذا أثره السلبي على

---

(١) قول مرسل آخر يفتقد الدقة الأكاديمية والموضوعية، بل ويتناقض مع ما ذكرته المؤلفة من أن الخلافات دبت بين عبدالناصر والإخوان المسلمين بعد وقت قصير من توليه السلطة، ولم يُعرف عنه أبداً أنه قمع التيارات القومية بل العكس هو الصحيح أيضاً فهناك اختلاف كبير بين تعاطي كل من السادات ومبارك مع التيارات الإسلامية، ونرى أن أساليب التعاطي هذه أكثر تعقيداً بكثير مما توحى به مثل هذه المقولات التبسيطية المرسلة (الترجمة)

الرأى العام وأدى إلى تزايد شعبية التنظيمات النسائية الإسلامية التى لا تعتمد على الدولة أو التمويلات الدولية.

استغل نظام مبارك الهجوم الذى يتعرض له الإسلاميون من قبل اليسار العلمانى والقوميين فرصة لإقصاء الإسلاميين، من ثم، وجدت هذه القوى العلمانية نفسها تقف فى صف الدولة القائمة. ولهذه الأسباب مجتمعة عجزت التيارات العلمانية اليسارية والقومية عن توفير البديل عن الحركات الإسلامية، وأدى ذلك إلى تهميشها وفتح الطريق أمام التوجهات الإسلامية. فى السبعينيات، كان اليساريون والقوميون يتصدون لنظام السادات من خلال تنظيم الاحتجاجات الدورية، لكننا نجدهم بعد أربعة عقود، وعلى الرغم من أنهم مازالوا جزءا من الحركة الديمقراطية ضد مبارك، فإن تأثيرهم قد خبا فيما تعاضم تأثير التيارات الإسلامية.

#### نشاطات حقوق النساء الإسلاميات،

منذ بداية القرن الحادى والعشرين، ظل تواجد ناشطات حقوق النساء الإسلاميات دالا ومهما. لعبن دورا مهما فى الحركة الإسلامية المتنامية التى تؤمن بعدم وجود تعارض بين الإسلام والحداثة والديموقراطية. ومن خلال إعادة تأويلهن للتعاليم الإسلامية يخضن نضالهن للمساواة بين الرجل والمرأة فى إطار النموذج الإسلامى المعيارى، وقد اكتسب هذا التوجه شعبية بين المتعلّقات اللاتى تبين حقوق النساء نشاطا رئيسيا لهن ويستخدمن لغة وممارسات دينية لتوسيع تلك الحقوق. ووفقا للسياقات المختلفة، فأحيانا يجدن أنفسهن فى أوضاع هيمنة تمكنهن من ممارسة السطوة داخل الأسرة والمجتمع، وأحيانا يجدن أنفسهن فى أوضاع تبعية وخضوع.



تعمل أميمة أبوبكر أستاذاً للأدب الإنجليزى بجامعة القاهرة وإحدى العضوات الرئيسيات فى «تنظيم الذاكرة» بالقاهرة. ومثل الناشطات الإيرانيات اللاتى ورد ذكرهن فى الفصل الثانى، تقرأ النساء المصريات تاريخ الإسلام من منظور نسوى بهدف توضيح دور النساء فى الإسلام. فقد لعبت النساء أدوارا سياسية وثقافية مهمة فى تاريخ مصر والعراق وسوريا ولبنان والجزيرة العربية، ويجعلهن تلك النماذج التاريخية واضحة جلية تتحدى الناشطات نظام مبارك العلمانى التابع للغرب ورجال الدين المحافظين فى آن، وهذه مهمة صعبة إذ إنهن يتعرضن للهجوم من المعسكرين لكن أجيال الشباب من النساء والرجال يتجاوبون مع دعوتهم لتحدى النظام من جهة، والإسلاميين المحافظين فى الإعلام والمساجد من جهة أخرى.

أيضا، تقوم ناشطات إسلاميات كثيرات بتوفير الرعاية الاجتماعية إذ إن فشل الدولة فى توفير تلك الخدمات للفقراء أتاح الفرصة للنساء لتوفير الرعاية الصحية والتعليم للنساء الأكثر فقرا فى أنحاء البلاد واللاتى يعشن أوضاعا مهمشة بائسة. ترى هؤلاء الناشطات أن مشاركة النساء فى خدمة المجتمع ضرورى لتحسين الأوضاع فى مصر، ويرين أن تغيير المдрكات عن دور النساء المسلمات كأمهات وزوجات سلبيات هو واجب دينى. لا ينتمين إلى أية منظمات إسلامية ولا يتلقين أموالا من الدولة، إذ إنهن يعتمدن على مواردهن الخاصة وعلى المتطوعات مثل الطبيبات والمرضات وغيرهن من المهنيات، ويعتنين بالأيام ويقمن بتوزيع الأطعمة والضروريات الأخرى على فقيرات النساء وأسرهن. وفى أحيان كثيرة، حينما تتحسن أوضاع متلقيات المساعدات يصبحن متطوعات بدورهن ويساعدن مجتمعاتهن.

## الإسلاميون وتوفير الخدمات:

يعمل الإسلاميون في مصر، مثل حزب الله في لبنان وحماس بفلسطين، على توفير الموارد وتنمية المجتمعات وإقامة الشبكات الاجتماعية. وبهذا الأسلوب، استطاعوا اكتساب تأييد غالبية المصريين لأنهم غدوا بديلا سياسيا واقتصاديا وثقافيا لنظام مكرس للنيوليبرالية والسلطوية والصهيونية والإمبريالية. تسارعت عملية التحرير الاقتصادي في عهد مبارك، وفي التسعينيات بخاصة توسع القطاع الخاص من خلال بيع الصناعات التي تملكها الدولة ومؤسسات القطاع العام. كانت الدولة منذ نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات، قد انسحبت من دورها لتوفير الرفاه الاجتماعي والخدمات الاجتماعية مما أدى إلى ظهور شبكات مؤلفة من مئات جمعيات المساعدات والجمعيات الخيرية الإسلامية والمنظمات غير الحكومية العلمانية والإسلامية، وغالبية هذه المنظمات تديرها تنظيمات إسلامية مختلفة وتوفر العون للمجموعات الفقيرة. كما تقوم مساجد عديدة بتوفير الخدمات الاجتماعية، تأتي أموال هذه المنظمات من الزكاة ومن رجال الأعمال والعاملين في الخليج، ويقال إن المنظمات غير الحكومية الإسلامية أفضل تمويلا وإدارة من نظيراتها العلمانية.

في الثمانينيات، كان ثلث المنظمات التطوعية يديرها إسلاميون وتوفير الخدمات الاجتماعية لملايين الأفراد، وفي التسعينيات زاد عددها لتصبح نصف المجموع الكلي للمنظمات. في الثمانينيات كانت التنظيمات الإسلامية توفر الرعاية الصحية لأربعة مليون ونصف المليون شخص، وفي التسعينيات بلغ مجموع عدد من يتلقون تلك الرعاية ١٥ مليون شخص. أقامت تلك التنظيمات أيضا المساجد والمدارس ونوادي الفيديو

ومراكز للتدريب على الكمبيوتر، وعلى الرغم من أن المنظمات غير الحكومية العلمانية تنشط في مجال العمل الاجتماعي، إلا أن مشاركة الأزهر، والإخوان المسلمين، والجهاد، والجمعية الإسلامية في هذا المجال جعل توفير الإسلاميين لتلك الخدمات أكثر فاعلية وتأثيراً.

ولهذا النشاط الإسلامي دلالات وأهمية خاصة. فم منذ بداية القرن الحادي والعشرين زادت الاستثمارات الأجنبية في البلد، ووصل النمو الاقتصادي منذ عام ٢٠٠٥ صعوداً إلى معدل ٧٪ سنوياً. بيد أن معدل التضخم الذي وصل إلى ١٥٪ والأثمان الباهظة للأطعمة المستوردة أوجد حالة معاناة كبرى لمعظم الناس والفقراء بخاصة. قامت التظاهرات عام ٢٠٠٨ بسبب الطواوير الطويلة على مخابز العيش المدعوم التي نجم عنها قتل ستة أفراد وإصابة خمسة وثلاثين. وفيما تتوسع العشوائيات على أطراف القاهرة الكبرى، والتي تفتقر إلى الخدمات التعليمية والرعاية الصحية وتنتشر فيها البطالة، نجد أن الأحياء السكنية في أماكن أخرى من القاهرة ذات البوابات والأسوار والخدمات الأمنية الخاصة بتوسع نطاقها.

أدت خطط الخصخصة والاقتطاعات الهائلة من إنفاقات الحكومة على الخدمات والرعاية الاجتماعية إلى وصول نسبة البطالة إلى ٢٦.٢٪ من سكان مصر، ويزيد هذا المعدل أضعافاً بين أفراد المجموعة العمرية من ١٥ إلى ٢٩ عاماً. ويواجه من لديهم وظائف اقتطاعات مستمرة من أجورهم الواقعية، وتراجع قدرتهم الشرائية وتدهور مستوياتهم المعيشية. ووفقاً لمعايير البنك الدولي، يصنّف ٩٥٪ من موظفي الحكومة البالغ عددهم ٥,٨ مليون على أنهم فقراء، وفي نفس الوقت، يتلقى نسبة الـ ١٠٪ الأكثر ثراءً في مصر ٢٩,٥٪ من دخل البلد.

وفى ظل هذه الأوضاع الاقتصادية غدا الإسلاميون القوة المعارضة المهيمنة فى أوساط الفقراء الحضريين، والمهنيين والطلبة والعمال. يساهم عدد من هذه التنظيمات مثل الإخوان المسلمين، والجماعة الإسلامية، والجهاد، والتبليغ والدعوة فى النفوذ المتنامى للإسلاميين. كما يتنامى تأثير الكتاب والمفكرين والوعاظ الإسلاميين غير المرتبطين بأية جماعة. أشعلت ممارسات إسرائيل العنيفة ضد الفلسطينيين وحروب الولايات المتحدة أشعلت المشاعر القومية/ الدينية وأدت إلى مزيد من نزع الشرعية عن النظام الحاكم.

#### الإخوان المسلمون والحياة السياسية الانتخابية:

الإخوان المسلمون أكبر التنظيمات الإسلامية الموجودة فى الساحة وقد نجحوا فى تعبئة عشرات الآلاف ضد نظام مبارك. يؤيدهم الأغنياء والفقراء والنساء والرجال والشباب وكبار السن، هذا على الرغم من أنهم يتلقون الدعم الأكبر من سكان المناطق الحضرية بخاصة. يواجه كثيرون من المتعلمين من الطبقات الدنيا الذين أفادوا من توسع النظام التعليمى فى الحقب السابقة البطالة منذ الثمانينيات ومن ثم، انضموا إلى مؤيدى الإخوان المسلمين، وبهذا وسعت الجماعة قاعدتها الجماهيرية فى الأحياء الحضرية الفقيرة لتشمل الخريجين والعمال وقطاعات من الفقراء الحضريين.

ومن خلال توفيرهم الخدمات الاجتماعية كسبوا دعما جماهيريا وقدموا أنفسهم بديلا للدولة التى تخلت عن مسؤولياتها تجاه الشعب والتزمت بالنيوليبرالية الاقتصادية وبالتحالف مع الغرب.

ومنذ بداية القرن الحادى والعشرين، أيد غالبية الشعب المصرى دعم الجماعة للانتفاضة الفلسطينية وعلاقتها الوثيقة بحماس وموقفها

الرافض للحرب على العراق، بل إن الجماعة نقدت دول الخليج لعدم اعتراضها على عمليات الولايات المتحدة وممارساتها العدائية في المنطقة، وفي غياب اليسار العلماني والقوى القومية كبديل لسياسات الولايات المتحدة وإسرائيل في المنطقة، قاد الإخوان المسلمون المعارضة الجماهيرية ضد الحرب على العراق والاحتجاجات ضد الوحشية الإسرائيلية في فلسطين، بل إنهم أبدوا استعدادهم لمساندة حزب الله ضد إسرائيل عام ٢٠٠٦.

وفي استجابة منها للدعم الذي تتلقاه من مختلف المجموعات، أعلنت الجماعة أنها تؤيد الحقوق المتساوية في المواطنة للرجال والنساء، والمسيحيين والمسلمين هذا على الرغم من إعلانها أنه بغير استطاعة الأقباط والنساء تولى رئاسة الدولة، ويرجع هذا التناقض إلى وجود أجنحة مختلفة داخل الجماعة يفضل بعضها المزيد من المواجهات القتالية مع الدولة والمزيد من التعاون مع المعارضة العلمانية، يذهب بعض الباحثين إلى أن التغيرات التي نشهدها في موقف الجماعة ناتجة عن التوترات داخل التنظيم وعزم القيادات على إرضاء قاعدتها الجماهيرية المتنوعة.

بيد أن صعود قيادة جديدة من المحافظين المتطرفين في انتخابات مكتب الإرشاد عام ٢٠١٠ كان هزيمة للجناح الإصلاحى في الإخوان المسلمين، مما أثبط - خاصة - الأعضاء والداعمين الشباب الذين ينادون بمقرطة الجماعة وانضمامها إلى صفوف اليسار العلماني والقوميين ضد نظام مبارك.

كان لحرب إسرائيل على غزة وهجومها على أسطول الحرية عام ٢٠١٠ تداعيات سياسية هائلة في مصر. وعلى الرغم من أن جماعة

الإخوان وجهت جميع أنواع النقد إلى إسرائيل، إلا أن شباب الجماعة ضموا أصواتهم إلى أصوات الاشتراكيين العلمانيين والقوميين وطالبوا حكومة مبارك بعكس دعمها وخنوعها لسياسة إسرائيل تجاه غزة، وطالبوها أيضا باحترام تطلعات الشعب المصري إلى الديمقراطية.

وفي هذا الصدد، ذهب محمد البرادعي الحائز على جائزة نوبل للسلام والرئيس السابق لوكالة الطاقة النووية التابعة للأمم المتحدة، والذي يتوقع له أن يخوض الانتخابات الرئاسية عام ٢٠١١ ضد مبارك، ذهب إلى أنه على الحكومات الغربية أن تفتح أعينها لواقع الديمقراطية الزائفة في مصر وإلا فإنها تخاطر بفقدان جميع مصداقيتها في معركتها ضد التطرف. وأضاف أن الحكومات الغربية تخاطر بخلق جيل جديد من المتطرفين الإسلاميين إذا استمرت في دعمها للنظم القائمة في المنطقة. وعلى الرغم من هزيمة التيار الإصلاحى المتنامى فى انتخابات مجلس الإرشاد فى ٢٠١٠، بيد أن المتوقع لهذا التيار أن يتسبب فى التدمير الذاتى لقوى المحافظين داخل الجماعة.

وبنفس أسلوب حزب الله فى لبنان وحماس فى فلسطين، يتحدى الإخوان المسلمون الدولة بخوض الانتخابات التشريعية وقد نجح مرشحوها فى كسب الدعم، بدأ نشاطها الانتخابى فى السبعينيات وخاضت الانتخابات التشريعية والمحلية كتنظيم مهنى حديث. وعلى مر العقود، أدت التغيرات فى تركيبة الجماعة الاجتماعية، والجدالات الداخلية بين الأجيال الشابة والأكبر سنا حول قضايا الجندر والموقف من الأقباط والأوضاع الاجتماعية/الاقتصادية والقضايا الإقليمية والدولية أدت كلها إلى تغيير الجماعة سياسيا. طوال الثمانينيات والتسعينيات، استمرت التنظيمات الإسلامية الأخرى مثل الجهاد فى

أنشطتها القتالية المسلحة مما أخضعها لقمع عنيف من أجهزة الدولة وأفقدتها الدعم من قبل عامة الناس، وبقيت الجماعة هي التنظيم الإسلامى المهم الوحيد وكانت ناقذة بخاصة فى الأوساط الطلابية. بدأت عام ١٩٨٤ فى المشاركة فى انتخابات نقابة الأطباء وفازت بخمسة وعشرين مقعدا فى مجلس إدارتها.

قررت الجماعة فى الثمانينيات المشاركة فى الانتخابات المحلية والتشريعية لكنها خاضت الانتخابات متحالفة مع الوفد لأنها ليست حزبا سياسيا. وفى عام ١٩٨٤ فاز هذا التحالف بنسبة ١٥,١٪ من أصوات الناخبين، فيما فشلت أحزاب المعارضة الأخرى فى الوصول إلى عتبة نسبة ٨٪ الضرورية كى تتأهل للتمثيل البرلمانى. وفى عام ١٩٨٧ غيرت الجماعة شركاءها وشكلت تحالفا مع حزب العمل والحزب الليبرالى وفازت تلك الكتلة بنسبة ١٧,١٪ من مجموع الأصوات فيما فاز الوفد بنسبة ١٠,٩٪ والحزب القومى التقدمى الوحدهى [٩] بنسبة ٢,٢٪ فقط، أى أن الكتلة التى ضمت الجماعة فازت بأصوات تفوق ما فازت به أحزاب المعارضة الأخرى مجتمعة.

فى نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات كان الإخوان المسلمون يتحكمون فى النقابات المهنية والاتحادات الكبرى فى مصر ومن ضمنها نقابة الأطباء والمهندسين والصيادلة والمحامين وأطباء الأسنان واتحاد رجال الأعمال واتحادات طلبة الجامعات، ومن مواقعهم تلك تصدى قادة تلك الاتحادات للفساد، وأنشأوا أنظمة للرعاية الاجتماعية وتعاونيات استهلاكية. أيضا، قاموا بتنظيم بعثات الحج وطالبوا بالدفاع عن فلسطين وعن مختلف القضايا الحقوقية.

كان بعض من مؤيدى الإخوان المسلمين فى الماضى يمتلكون عددا من

المشاريع الخاصة وفى نهاية الثمانينيات كانت نسبة المشاريع الخاصة المرتبطة بالإخوان تعادل ٤٠٪ من جميع المشروعات الخاصة بمصر، وكانت شركات الاستثمار هذه تقوم بدعم الأسر ذات الدخل المنخفضة. رحب الإخوان المسلمون بسياسات السادات الانفتاحية وطالبوا طوال الثمانينيات بمزيد من الإصلاحات الواسعة لتحرير السوق. وفى عام ١٩٩١، وبضغط من صندوق النقد الدولي والبنك الدولي سارعت الدولة بتطبيق برنامج الإصلاح النيوليبرالى من خلال برنامج للتعديل الهيكلى. أدى هذا إلى ظهور تناقضات فى خطاب الإخوان الاقتصادى، حيث نقدت الجماعة فى انتخابات النقابات العمالية لعام ١٩٩١ البرنامج النيوليبرالى الاقتصادى ودعمت حق العمال فى الإضراب فيما كانت تؤيد تحرير الأسواق والسياسات النيوليبرالية.

فى عام ١٩٩٠، احتجت الجماعة على القمع السياسى وقاطعت الانتخابات؛ لكنها شاركت فى انتخابات عام ١٩٩٥ وفازت بمقعد واحد بالبرلمان؛ وسبعة عشر مقعدا فى انتخابات عام ٢٠٠٠، وفى انتخابات نقابة المحامين عام ٢٠٠١، فاز الإخوان بثمانية مقاعد من مجموع أربعة وعشرين مقعدا وتحالفت مع المرشحين العلمانيين وتجنبت أية ارتباطات بالجهاد والجماعة الإسلامية. وفى انتخابات عام ٢٠٠٥ التشريعية التى خاضها أفراد الجماعة كمستقلين فاز الإخوان بثمانية وثمانين مقعدا - أى حوالى ٢٠٪ من مقاعد البرلمان؛ هذا على الرغم من القيود السياسية التى لم تسمح للتنظيم سوى بمائة وخمسين مرشحا. وفى نفس الانتخابات لم يفز اليساريون والليبراليون سوى بأربعة عشر مقعدا، أى بما يربو قليلا على ٣٪ من مجموع الأصوات.

وفى عام ١٩٩٦، تمرد عدد من شباب الإخوان على الأسلوب



السلطوى للجماعة وانشقوا عنها وقاموا بتشكيل حزب الوسط الذى تبنى الدعوة للمساواة بين الرجل والمرأة والتعددية السياسية، دعم الحزب عدد من المثقفين العلمانيين البارزين الذين رأوا أنه يمثل شكلا من الإسلام السياسى أكثر اعتدالا واستنارة.

وكما أشرنا سابقا، فقد نقدت جماعة الإخوان، التى كنت قد دعمت السياسة الاقتصادية النيوليبرالية، الخصخصة وحل القطاع العام فى برنامجها الانتخابى لانتخابات مجلس الشورى عام ٢٠٠٧، وذلك بضغط من مؤيديها فى الاتحادات العمالية وفى القطاعات الفقيرة من المجتمع.

ومنذ عام ٢٠٠٠، طرحت الجماعة عددا من المرشحات فى الانتخابات المحلية لكن لم تفرز أية واحدة منهن حتى الآن. وفى انتخابات عام ٢٠٠٠ التشريعية كان لترشيح الإخوان جيهان الحلفاوى أهمية خاصة حيث فازت على منافسها مرشح الحزب الوطنى الحاكم فى الجولة الأولى من الانتخابات، ومن ثم ألغت وزارة الداخلية النتائج وأجلت الانتخابات عامين، ثم قامت بتزوير النتائج عام ٢٠٠٢ وأعلنت فوز مرشحين من الحزب الوطنى. أثار ترشيح جيهان الحلفاوى الجدل داخل الجماعة حول مستقبل الأنشطة النسائية، بيد أنه تم تنظيم تظاهرات داخل دائرتها شارك فيها أعضاء محافظون من الجماعة دعماً لها وحشدوا أصواتا مؤيدة لها. لعبت نساء الإخوان المسلمين فى انتخابات عام ٢٠٠٠ و٢٠٠٥ و٢٠٠٧، المحلية والتشريعية دورا مهما داخل الجماعة وشاركت فى الأنشطة السياسية والتظاهرات. تتحدى الأجيال الشابة من الأخوات الناشطات المتعلقات اللاتى يشعرن بالاستياء من وضعهن الهامشى فى بنية السلطة فى الجماعة، يتحدين القيادات الذكورية حول مكانتهن الثانوية، وهناك مجموعة من الإخوان يدعمون هؤلاء الأخوات، بل

ويطالبون الجماعة بعدم حظر ترشح النساء لمنصب رئاسة الجمهورية. وكما الوضع في إيران ولبنان وفلسطين، فإن لتغيير خطاب الإسلاميين في مصر دلالاته. يرى الباحثون أن الإخوان المسلمين وغيرهم من الإسلاميين في مصر، بما في هذا حزب الوسط، لم يذهبوا بعد أبعد مما ذهب إليه الإسلاميون في القرنين التاسع عشر والعشرين مثل محمد عبده ورشيد رضا، ولم يناظروا «المفكرين المتدينين الجدد» في إيران والذين ناقشناهم في الفصل الثالث. وعلى الرغم من ذلك، فقد أوضحت حركة المعارضة السياسية في مصر طريق العمل في المستقبل من خلال العمل السياسي المشترك والتنسيق بين اليساريين والقوميين والإسلاميين. ورغم العداءات بين تلك المجموعات، فإن جيل الشباب منفتح على التعاون وينشط في الدعوة إلى الديمقراطية بالاشتراك في الحملات ضد الهيمنة الغربية والنظام الحاكم السلطوي القمعي.

### تبعية الدولة للغرب تقوى الإسلاميين؛

في عام ٢٠٠٦، وفي رد فعل على سياسات مبارك، وقع أهم إضراب صناعي ذو أبعاد سياسية في المحلة الكبرى حينما أضرب عمال شركة الغزل والنسيج هناك، حيث تبلغ نسبة النساء العاملات ٢٢٪ من قوة العمل (لا تستطيع ثلثا الأسر المصرية العيش على مرتب واحد).

لعبت النساء أيضا دوراً مهماً في إضراب مصنع المنصورة/ إسبانيا للملابس الجاهزة. لعب هؤلاء العمال، ومعهم موظفو جمع الضرائب الذين شكوا اتحادهم المستقل، دوراً رئيسياً في حركة الديمقراطية وتحذوا نظام مبارك بالرغم من أساليب القمع السياسي.

أثناء إضراب موظفي جمع الضرائب، انضمت نساء كثيرات، بمن فيهن هؤلاء اللاتي يعلن عائلاتهم، إلى تظاهرات الشارع. وعلى الرغم

من توجيه السلطات، بمن في هذا وزيرة العمل عائشة عبدالهادي، النقد  
لهن، فقد استمررن في الاعتصامات والتظاهرات وقضين ليالي عديدة  
في الشارع إلى جانب زملائهن الرجال.

في المناطق الريفية، يناضل الناس أيضا ضد الدولة حيث يواجه  
الملايين من صغار المزارعين خطر سلبهم أرضهم نتيجة تنفيذ قانون  
يسمح للأسر الإقطاعية القديمة، التي تملك الأرض في ظل الاستعمار،  
من استرداد أراضيهم التي تملكها صغار المزارعين بمقتضى قانون  
الإصلاح الزراعي في الخمسينيات - وهذا تحول لصالح كبار الملاك  
ويؤدي إلى زيادة كبيرة في عدد الفلاحين المحرومين الذين لا يملكون  
أراضي، وهؤلاء يناضلون برفضهم إعادة الأرض.

تعتبر حركة التغيير «كفاية» حركة مظلة ينضوي تحتها المثقفون  
والنشطاء الحقوقيون، والصحفيون، والقضاة، والفنانون، والعمال،  
والطلبة وأساتذة الجامعات والمنظمات غير الحكومية والمجموعات  
النسائية والمسلمون والأقباط وتضم ناشطين من جميع التوجهات -  
ليبراليين، اشتراكيين، قوميين، وإسلاميين، نظم أعضاء كفاية ومؤيدو  
الإخوان المسلمين تظاهرات واعتصامات للمطالبة بإنهاء العمل بقانون  
الطوارئ، وكانت الناشطات يشكلن حوالي نصف المتظاهرين، وبرز من  
بينهن بخاصة الناشطات الإسلاميات وهن يرتدين الحجاب. ذهبت  
الحركة إلى ما هو أبعد من المطالبة بالتغيير في مصر، فهم يدعمون  
الفلسطينيين والعراقيين والبنانيين في مواجهة العدوان الصهيوي/  
أمريكي ويتخذون مواقف مناهضة للعولمة ولهيمنة الولايات المتحدة.  
تحدي القضاة المصريون الدولة أيضا وطالبوا بالإشراف القضائي  
الكامل على الانتخابات، وباستقلال حق السلطة القضائية، ودعمتهم

المنظمات غير الحكومية والأحزاب السياسية والإخوان المسلمون والنقابات المهنية والمتقنون وأساتذة الجامعات وطلبتها، عُنِدَت مؤتمرات دورية مناهضة للحرب والإمبريالية بالقاهرة (٢٠٠٣-٢٠٠٨) بالتعاون مع نقابة الصحفيين وبمشاركة من حزب الكرامة القومي، والإخوان المسلمين وحزب الوسط، والاشتراكيين الثوريين، وحزب الإعمار [٩].

لهذه المؤتمرات أهمية خاصة حيث يوضح التعاون بين الإسلاميين والقوميين واليسار ملمحا مهما للأنشطة السياسية الجديدة في مصر: من جهة يتضح أن كثيرا من النشطاء السياسيين الإسلاميين منفتحون على النقاش السياسي؛ ومن جهة أخرى، يتبين أن كثيرا من اليساريين العلمانيين والقوميين، وعلى الرغم من موقفهم الناقد للمشروع الإسلامي، يرفضون قمع النظام للإسلاميين. ويمثل هذا الشكل الجديد من التعاون بين مختلف القوى تحديا جديدا لنظام مبارك.

حضر هذه المؤتمرات نشطاء إسلاميون وعلمانيون واشتراكيون مناهضون للحرب من أنحاء الشرق الأوسط وأوروبا وأمريكا الشمالية وغيرها من مختلف الأنحاء، وفي مواجهة الأزمات وحالة الفوضى الأخذة في التعمق في جميع أرجاء الشرق الأوسط، وكنتيجة لفشل سياسات الولايات المتحدة وبريطانيا وإسرائيل الكارثي بالمنطقة، وفُرت تلك المؤتمرات فرصة لإقامة الشبكات وتبادل الأفكار، والحوارات. قالت لي زينب، عضوة حزب الكرامة والناشطة في حركة كفاية:

«أُنشِئت، في عامي ١٩٩٧ و١٩٩٨، وأثناء العقوبات على العراق واللجنة الشعبية لإنقاذ أطفال العراق»، نظمت اللجنة إرسال سبع قوافل مساعدات طبية للعراقيين، إلى جانب دعمها السياسي لهم. عارضنا

الغزو الأمريكي لأننا كنا نؤمن أن على العراقيين أنفسهم التعاطى مع نظام صدام حسين. فيما بعد، تحولت هذه اللجنة إلى «الحملة الدولية ضد الاستعمار الصهيوني والأمريكي»، والتي قامت بتنظيم مؤتمر القاهرة السنوي لمناهضة الحرب، وهو تجمع دولي تحضره المنظمات الدولية المناهضة للحروب، وتقوم أيضا بمناقشة مناهضة الصهيونية وبور الحكومات العربية فيما يتعلق بإسرائيل والغرب، وقضايا حقوق الإنسان».

تقول رباب المهدي، إن المرحلة الأولى لحركة التغيير بدأت بتحدى تولى مبارك لفترة خامسة مدتها ست سنوات ورفض مخطط توريث ابنه الحكم؛ وكانت قد سبقتها حركة تعبئة شاملة لمناصرة انتفاضة ٢٠٠٠ - ٢٠٠١ الفلسطينية رفعت شعار «الطريق إلى القدس يمر عبر القاهرة»، ثم حركة مناهضة الحرب على العراق عام ٢٠٠٢، كانت حركة كفاية هي الدورة الثالثة للنشاط السياسي، وحينما بدأت كفاية تهدأ عام ٢٠٠٥، نشط قضاة مصر عام ٢٠٠٦ مطالبين باستقلال السلطة القضائية، وفيما خفت حملة القضاة تطورت موجة نشطاء جديدة في أوساط العمال والمهنيين.

وفى رد منها على حركات الاحتجاج، عازمت الدولة من أساليبها القمعية. يواجه العمال والناشطون السياسيون الاعتقال والتعذيب المنهجي. تم تجديد العمل بقانون الطوارئ سيئ السمعة والذي يمنح الجهات سلطة توقيف الأشخاص واحتجازهم دونما توجيه تهم أو إجراء محاكمات، وقد أدى هذا إلى مزيد من وحشية الجهات الأمنية. وإضافة إلى المسجونين السياسيين، تعتقل الجهات الأمنية أطفال الشوارع ويتعرضون للانتهاكات الجسدية والجنسية. ويخضع الصحفيون

والنشطاء والقضاة بل وحتى أعضاء البرلمان للسجن والعنف. وعلى الرغم من خطاب الإصلاح السياسى ودعوات الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى إلى تطبيق الديمقراطية، فإن الحكومة المصرية تحتفظ بعشرة آلاف موقوف محتجزين منذ مدد مستطالة دونما توجيه تهم.

فى عام ٢٠٠٦، تلقت مصر من الولايات المتحدة ما قيمته ١,٢ مليار دولار مساعدات عسكرية [وأمنية] و٤٩٠ مليون دولار مساعدات اقتصادية. تقرّر هذه المساعدات العسكرية والاقتصادية ومعها مخطط العمل المشترك بين الاتحاد الأوروبى ومصر للدفع بصفقة عملية السلام، وشن الحرب على الإرهاب، تقرّر النفوذ الذى تمارسه الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى على مصر. يقال إن نظام مبارك يفرض إتاحة على «المجتمع الدولى» نظير دوره فى «الحرب على الإرهاب»، وكسمسار لهم فى الصراع الفلسطينى الإسرائيلى. يرى مصريون كثيرون ممن يعانون الضيق الاقتصادى والقمع السياسى أن التواطؤ الوثيق بين النظام وبين الولايات المتحدة وإسرائيل يضمن الشرعية على معارضتهم له، وبخاصة أن البلاد تقترب من انتخابات ٢٠١١ الرئاسية.

### مدى شعبية إيران فى مصر

كما ذهبنا فى الفصول السابقة، تشكل علاقات إيران بالحكومة السورية وحزب الله وحماس كتلة قوية ممانعة لسياسات الولايات المتحدة وإسرائيل فى المنطقة. وكما رأينا، فعلى الرغم من أن الحكومة العراقية الآن تجعل من العراق دولة عميلة للولايات المتحدة، فإن علاقات إيران الطيبة بالحكومة العراقية ودعمها للقوى المناوئة للاستعمار والمؤيدة للاستعمار معا أكسبتها نوعا من الأمن ضد التهديدات المحتملة من الولايات المتحدة وحلفائها والأهم هو أن دعم القواعد الشعبية فى المنطقة

لسياسات إيران المعادية للولايات المتحدة وإسرائيل تضع البلد في موقع قوى للدفاع عن نفسها ضد أى هجوم محتمل، وعلى الرغم من الاختلاف السنّي/ الشيعي، وعداء الحكومة المصرية لإيران، وتصوير الإعلام الرئيسى في مصر والدول العربية لإيران على أنها قوة شيعية في المنطقة تهدد الثقافة والهوية السنية، فإن إيران تتمتع بقدر لا بأس به من الشعبية في مصر. يراها كثيرون نموذجا لهزيمة سطوة الدولة ونموذجاً للممارسة الثورية. علاوة على ذلك، وعلى الرغم من أهمية الانقسامات بين القومية العربية مقابل القومية الإيرانية والاختلافات السنية الشيعية، فقد غيرت انتصارات حزب الله طبيعة تلك العلاقات. اكتسبت قناة المنار والسيد حسن نصر الله شعبية في مصر. ونذكر في هذا السياق كلام الشيخ القرضاوى عن تهديد إيران والمذهب الشيعي في المنطقة والذي وجد أصداءً بالتأكيد لكنه أيضا ولّد كثيرا من الجدل في مصر. في عام ٢٠٠٨ ذهب الشيخ القرضاوى العالم السنّي المصرى والداعية المؤثر المقيم في قطر إلى أن إيران تنتشر المذهب الشيعي الاثنى عشرى في المنطقة ومن ثم تهدد المجتمعات السنية. لم تأت تلك الاتهامات من النظام المصرى أو إعلام التيار الرئيسى بل من داعية حدائى مؤثر كان قد أصدر فتوى أثناء الحرب الإسرائيلية على لبنان عام ٢٠٠٦ دعا فيها المسلمين إلى مناصرة حزب الله في قتاله مع إسرائيل، كما عُرِف عنه أنه يرى أن المذهبين السنّي والشيعي يتوافقان على المبادئ المهمة الأمر الذى زاد من شعبيته وبخاصة حينما دعا الجماعات السنية والشيعية في العراق إلى إنهاء صراعها.

بيد أن تعليقاته بشأن إيران أثارت جدلا في أوساط المثقفين العلمانيين والإسلاميين حتى أن بعض معجبيه ينقدون تعليقاته ويعتقدون

أنه وعلى الرغم من وجود اختلافات فقهية وتاريخية بين المذهبين فالخلافتان القائمة اليوم هي سياسية لا مذهبية ويرون أن الوحدة ضد الصهيونية التي تدعمها الولايات المتحدة أكثر أهمية بكثير من الاختلاف الشيعي السني. أخبرني مصطفى، وهو عضو بجماعة الإخوان المسلمين بالقاهرة قائلاً:

«لا أؤمن أن الاختلاف السني الشيعي قضية مهمة فقد كان الشيخ حسن البنا من أوائل الذين شجعوا التقارب بين السنة والشيعة وقال إن الشيعة هم الجناح الآخر للامة ويجب أن تقوى العلاقة بين الاثنين. لا يعرف عامة المصريين الكثير عن الشيعة ويخلطون بينهم وبين الشيوعية لتشابه اللفظين. أما المتعلمون فيعتبرون الشيعة جزءاً مهماً من الامة الإسلامية. قبل غزو العراق لم يكن أحد يذكر أى خلاف بين المذهبين ولم يكن ثمة انقسام، لكن الغزو الأمريكى أوجد الاعتقاد بوجود اختلاف خطير. علينا أن نتوحد ضد الصهيونية فى المنطقة. عملت الحرب على لبنان على تقارب السنة والشيعة والتآلف بينهم وفتح انتصار حزب الله فى تلك الحرب أعين المصريين على الحقائق».

أيضاً، بينت لى أهداف الناشطة فى الجمعيات غير الحكومية الإسلامية والتي تزوج ابنها فتاة شيعية من لبنان، أنه:

«طالما يؤمن الإنسان بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله ونبىه، فهو مسلم. نعلم أحفادنا أن يؤبوا الصلاة بالأسلوبيين، من المفيد أن تشكل إيران قوة فى المنطقة، فالبلدان الإسلامية بحاجة لقوة تتصدى لإسرائيل. لا يجوز أن نسمح للقوى الأجنبية ببث الفرقة بيننا، علينا أن نتوحد. وعلى الرغم من أن إعلام التيار الرئيسى يهاجم إيران والشيعة، إلا أن غالبية الشعب ينظرون إلى نضال حزب الله وإلى موقف إيران ضد إسرائيل ولا يصنقون الإعلام».



تمثل فلسطين قضية مهمة للشعب المصري، وتنظم الحملات الشعبية دعماً للفلسطينيين على الرغم من الأزمات الاجتماعية/الاقتصادية والسياسية الداخلية، وعلى الرغم من محاولات سياسى التيار الرئيسى وإعلامه إبعاد أنفسهم عن القضية الفلسطينية بذريعة أن للمصريين مشاكلهم وليس عليهم أن يدعموا الفلسطينيين. زاد دعم المصريين للفلسطينيين منذ عام ٢٠٠٥ لدى انسحاب إسرائيل من غزة، وفى كل مرة تهاجم فيها إسرائيل فلسطين أو لبنان يتزايد دعم المصريين للشعبين. أثناء حرب إسرائيل على غزة فى بداية ٢٠٠٩، كان رد فعل الحكومة المصرية هو نشر ٧٥٠ رجل أمن مسلح فى شمال سيناء لمراقبة الحدود مع غزة. ومع عجز الحكومة المصرية عن الحفاظ على مصالح البلد الاقتصادية والسياسية وتعزيزها، يعمل دعم إيران لفلسطين ولبنان على زيادة وعى المصريين بالموقف المتردى. قالت لى جيهان، العضو فى حزب الكرامة، والتى شاركت فى حملة لدعم أهالى غزة:

«لقد نظمنا قوافل تحمل ٤٠ طناً من الإمدادات الطبية لشقيقاتنا وأشقائنا فى غزة. طالبنا بطرد السفير الإسرائيلى وفتح معبر رفح لنقل المساعدات الطبية وإمدادات الإغاثة إلى شعب غزة. كانت القوافل تضم عمال بناء، وكهربائيين، ومعماريين لإعادة إعمار غزة. إن إغلاق معبر رفح وعدم السماح بوصول تلك الإمدادات إلى غزة جريمة يرتكبها النظام. وعلى عكس مصر، تقصدى إيران وأمريكا وإسرائيل، وعلى الرغم من أنها ليست بلداً عربياً فإنها تقوى مطالب العرب فى المنطقة، إنها بلاد يسعى لاستقلاله ويحرص عليه. وقد تمكنت من بناء قدراتها العسكرية كى تستطيع مواجهة أمريكا والعدو الصهيونى. تبذل الحكومة المصرية جهودها لتصوير إيران على أنها هى العدو الأمة العربية وأنها تمثل تهديداً

أكبر مما تمثله إسرائيل. لكن غالبية المصريين لا يصدقون تلك البروباغندا. علينا أن نقوى وجودنا كقوتين متميزتين - إيرانية وعربية كي نواجه إسرائيل وأمريكا. يحاول الإعلام الحكومى خلق فجوة أكبر بين المذهب السننى والشيعى، لكن بالنسبة لمعظم المصريين فإن إيران هى البلد الوحيد الذى يتصدى لإسرائيل ونحن نُعجب بها لذلك».

علقت أمانى من الاشتراكيين الثوريين قائلة:

«بالنسبة لمعظم المصريين فإن إيران هى النواة التى أغلقت السفارة الإسرائيلية بعد ثورة ١٩٧٩ وطردت السفير الإسرائيلى وفتحت سفارة للفلسطينيين ومضت تدعمهم منذ وقتئذ. وفى هذا السياق فإن العلاقة بين السنة والشيعة أقوى من أى وقت مضى».

عبر حسام من الإخوان المسلمين عن آراء مماثلة:

«إيران بلد لا تخضع للهيمنة الأمريكية على المنطقة، وبإمكانها صنع قراراتها المستقلة. يحترم المصريون إيران لدعمها حركات التحرر فى المنطقة ويرونها نقيضا تاما للنظام المصرى. أتمنى لو فعل النظام هنا ما تفعله إيران. تحاول حكومات المنطقة والإعلام العربى تصوير إيران على أنها العدو. لكن اعتداءات إسرائيل المستمرة على الفلسطينيين تخلق صورة إيجابية عن إيران. يدعم كثير من المصريين قدرات إيران النووية ويعتقدون أن على مصر أن تمتلك مثل تلك القدرات لأننا نجاور إسرائيل التى تمتلك ترسانة نووية تمثل تهديدا حقيقيا لنا. يجب أن تتوحد إيران وتركيا والعالم العربى فى مواجهة إسرائيل والإمبريالية الأمريكية».

ورغم إعجابهم بإيران، ينقد كثير من المصريين دورها فى العراق. ومثل الفلسطينيين يرون فى تركيا النموذج الحقيقى وبخاصة منذ أن غيرت مواقفها ودعمت الفلسطينيين. يقول سامح:

«أشيد بإيران لدعمها حركات التحرر بالمنطقة لكنني أنقد دورها في العراق، كما أنني مستاء من روابط الحكومة التركية العسكرية والاقتصادية مع إسرائيل، لكن حرب غزة أدت إلى تغيير علاقة تركيا بإسرائيل، كما أن تركيا نموذج صالح إذ إنها شاهد على أن بإمكان حركة إسلامية أن تتولى السلطة. أعجب أيضا بالأسلوب التركي لعلمنة المجتمع، ومن هذه المنطلقات، فإننا أفضل تركيا على إيران».

ما زالت القومية المصرية والقومية العربية تمثلان قوى مؤثرة في مصر، ويميز الكثيرون بين القومية والوطنية والنولة - فقد فقدوا الثقة في أن تحميها الدولة. وفي نفس الوقت، يؤمن الإسلاميون وغيرهم بالقومية الإسلامية وبأنهم ينتمون إلى العالم الإسلامي بأجمعه، من ثم، فإن فكرة العلاقات الطيبة بين إيران وتركيا والعالم العربي قد اكتسبت شعبية كبيرة. بعد غزو أمريكا للعراق عام ٢٠٠٣، ظلت مصر ممانعة في إقامة علاقات مع النظام العراقي الجديد في وجود روابطه بإيران. بيد أنه في نهاية ٢٠٠٩ وبداية ٢٠١٠، فتحت الحكومة المصرية علاقات تجارية مع العراق من أجل تقليص النفوذ الإيراني هناك. بيد أن مصريين كثيرين يرون أن الروابط بين إيران وتركيا والعالم العربي من شأنها أن تعمل على تقوية المنطقة في مواجهة الصهيونية وداعميها الغربيين، وكما يؤكد كثير من المصريين والفلسطينيين والعراقيين واللبنانيين تكرارا «أنا وأخويا على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب».



يُعنى هذا الكتاب بدinاميات إيران الاجتماعية/ الاقتصادية والسياسية الداخلية. ونفوذها وتأثيرها في المنطقة نتيجة لطبيعتها كقوة دينية/ سياسية. تُبين الأصوات المُطعنة للإيرانيين واللبتانيين والعراقيين والفلسطينيين والمصريين التي سجلها الكتاب كيف أن ضغط مختلف الجماعات بالداخل الإيراني وفي أنحاء المنطقة ظل يعمل على تشكيل أنوار إيران الداخلية والإقليمية والدولية.

تُرَكِّزُ الفصول الثلاثة الأولى على تعقيد بُنى إيران المؤسسية، وتوضح التطورات الاجتماعية/الاقتصادية وأيضا أوجه القصور التي لا يمكن إنكارها للدولة الإيرانية والمجتمع الإيراني منذ ثورة عام ١٩٧٩. أدت تلك التطورات إلى خلق تناقضات داخل الدولة والمجتمع الإيراني تشكلت على إثرها حركة ديموقراطية قوية منذ منتصف التسعينيات. وليس هذا بالأمر الجديد، إذ إنه استمرار للحركات التاريخية منذ الثورة الدستورية فيما بين عامي ١٩٠٦-١٩٠٧. وتأميم النفط عام ١٩٥١ وثورة ١٩٧٩، والتي تتشارك جميعها في عامل النضال من أجل الديموقراطية والاستقلال عن الهيمنة الإمبريالية.

وعلى مدى عقود طويلة، مدد هذا النضال المصالح الغربية الاقتصادية

والسياسية في إيران. وكان الرد المعتاد من اللاعبين الكوكبيين، وبخاصة الولايات المتحدة، يأتي في شكل قمع حركات اليسار العلماني ولقوميين في إيران، بل وحقا في المنطقة جميعها، ثم تطور مؤخرا ووجه القمع ضد الحركات الإسلامية. ظلت تلك القوى الغربية تدعم الأنظمة الديكتاتورية. بل وذهبت إلى خلق جماعات متطرفة مثل طالبان والقاعدة كي تضمن مصالحها الاقتصادية والسياسية في المنطقة. بيد أن الحركات الإسلامية الحديثة التي حلت محل حركات اليسار والحركات القومية الاجتماعية اكتسبت دعم غالبية شعوب المنطقة تحديدا من خلال التعبير عن معارضتها للسياسة الأمريكية والإسرائيلية. من ثم، مازال الغرب يواصل عداؤه ضد تلك الحركات على الرغم من أن الحركات الإسلامية الرئيسية،

وبضغط من الغالبية، تعتقد قى عدم وجود تعارض بين الإسلام والحدثة والديموقراطية. عمقت ظاهرة الإسلاموفوبيا المموسة مشاعر الغضب والاستياء العميق بين غالبية شعوب المنطقة، والذين يشعرون أن ثقافتهم تتعرض لهجمة خبيثة شرسة مما دفعهم لتبنى مزيد من مظاهر التدين والتوجهات القومية. أشعلت مطالبات الولايات المتحدة فرض الديمقراطية من أعلى المشاعر القومية/ الدينية وأدت إلى نزاع الشرعية عن حكومات المنطقة الموالية للغرب. فضحت الحرب على العراق وأفغانستان، ومعها «الحرب على الإرهاب»، وما حدث فى جوانتنامو، وأبوغريب فى العراق وباجرام فى أفغانستان - فضحت خطاب الغرب المعيب حول إقامة الديمقراطية الغربية فى الشرق الأوسط. وكما ورد فى هذا الكتاب، فحيثما سنحت الفرصة للشعوب بالتصويت الانتخابى، كانت أصواتهم تذهب بغالبيتها إلى التنظيمات الإسلامية مثل حزب الله وحماس. وكما يرى عدد من الباحثين والمراقبين، يواجه الغرب، وبخاصة الولايات المتحدة أزمة شرعية إقليمية ودولية، ولم يعد خطاب حقوق الإنسان وحقوق النساء والديموقراطية يجد أصداء فى الشرق الأوسط وخارجه.

وفى هذا السياق، ركزت الفصول من ٤: ٧ على كيفية نظر الجماعات المختلفة فى لبنان و لعراق وفلسطين ومصر لإيران، فلكى نخرج بنظرية عن أثر إيران ونفوذها فى المنطقة، تفحصنا استجابات المجموعات المختلفة لسياسة إيران والولايات المتحدة الخارجية، وكانت الخلاصة هى أن فشل سياسات إسرائيل والغرب فى المنطقة عملت على تقوية وضع إيران وعلاقتها بجيرانها حيث عزز موقفها المتحدى للغرب تأثيرها وبورها إلى حد كبير. أدى هذا إلى أن ينظر معظم أهالى المنطقة إلى

حكومات بصفتها عميلة للولايات المتحدة تضحي بمصالح شعوبها الاقتصادية والسياسية والثقافية في سبيل خدمة النيوليبرالية والصهيونية. ينظر كثيرون إلى إيران بصفتها نموذجا لهزيمة سلطة الدولة، وللممارسة الثورية. وفي هذا السياق، فإنه بالرغم من مختلف أشكال القوميات، والاختلاف السني الشيعي، وتصوير الإعلام الكوكبي النافذ لإيران على أنها قوة شيعية تهدد الثقافة السنية والهوية العربية القومية، تستمر شعبية إيران في التنامي. يركز هذا الفصل الآخر على السياق الكوكبي لدولة إيران الدينية/ السياسية، وعلى كيفية أن شعبية السياسة الخارجية الإيرانية لدى شعوب المنطقة أدت إلى نفورهم من الغرب وإلى عدااء الغرب وحكومات المنطقة لإيران.

**«إمامنا أومع الإرهاب»**

أدت ثورة ١٩٧٩ وانسحاب إيران من التعاون العسكري والتجاري مع الغرب إلى تهديد المصالح الاقتصادية والاستراتيجية للولايات المتحدة وحلفائها في المنطقة. تحدثت الثورة أيضا مصالح الغرب الاجتماعية/ السياسية، حيث إن غالبية شعوب المنطقة، وقد استلهموا الثورة، بدأوا يسائلون أنظمتهم الموالية للغرب، كما إن عدم اهتمام تلك الأنظمة بقضايا الفقر والبطالة وغياب حقوق الإنسان الأساسية، أدى إلى تحدى تلك الشعوب لقياداتها. ومن هذا المنطلق، فإن شعبية النموذج الإيراني تهدد النفوذ الغربي في المنطقة.

في يناير ١٩٨٠، أعلن الرئيس جيمي كارتر أن أية محاولة للتحكم في الخليج الفارسي ستعتبر هجوما على مصالح الولايات المتحدة وستواجه بأية وسائل ضرورية بما في هذا المواجهة العسكرية. كذلك، فقد ذهب هنري كيسنجر تكرارا إلى أن الولايات المتحدة على استعداد للتعاون مع



إيران طالما توافقت سياساتها مع آراء واشنطن، وإلا ستتخذ واشنطن ما يلزم من التدابير لتدمير تأثير إيران ونفوذها في المنطقة. في بداية التسعينيات، وضع بول وولفويتز، وكيل وزارة الدفاع ما بين عامي ٢٠٠١ و٢٠٠٥، الخطوط الأساسية لاستراتيجية المحافظين الجدد في الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا بحيث تظل الولايات المتحدة القوة المهيمنة على المنطقة وتحافظ على إتاحة بترولها للولايات المتحدة والغرب من خلال الحروب الاستباقية. وفي يناير ٢٠١٠، وأثناء استجوابه أمام لجنة Chilcot حول الحرب على العراق، ذكر طوني بليز رئيس وزراء المملكة المتحدة فيما بين عامي ١٩٩٧ و٢٠٠٧، ذكر إيران ثمان وخمسين مرة، ويدون أن يُبدى أى أسف لإراقة دماء العراقيين التي ساعدت عليها سياسته، دعا إلى شن حرب ضد إيران بذريعة أنها بارتباطها بالمجموعات الإرهابية تمثل تهديدا خطيرا بخاصة كما أنها مستولة عن كثير من زعزعة الأوضاع في الشرق الأوسط.

العامل المشترك بين مثل تلك التعليقات جميعها هو ما عبر عنه تصريح جورج دبليو بوش سيئ السمعة في سبتمبر ٢٠٠١ في خطاب له أمام كونجرس الولايات المتحدة حينما أبلغ بلدان العالم «إما أنكم معنا أو مع الإرهابيين»، بتعبير آخر، فإن أى بلد في الشرق الأوسط يتحدى مصالح الغرب سياسيا أو اقتصاديا يواجه تهديدات ثأرية.

### الحرب على إيران:

أثناء الحرب الإيرانية/العراقية فيما بين عامي ١٩٨٠ و١٩٨٨، دعمت الولايات المتحدة نظام صدام حسين كوسيلة لاحتواء الثورة الإيرانية وأثناء ١٩٨٦ - ١٩٨٨، وفي رد على احتمال انتصار إيران على العراق، تم نشر القوات البحرية والجوية الأمريكية لضمان عدم خسارة العراق

الحرب. بيد أنه، وكما جاء في الفصل الخامس، قام صدام حسين (الذي كانت الولايات المتحدة تدعمه كثقل مضاد لإيران) بتجاوز الخط المرسوم له في تراتبية القوة الاقتصادية والعسكرية الكوكبية بأن اجتاح الكويت عام ١٩٩٠. وبفاء على ذلك، تم غزو العراق واحتلالها والإطاحة بصدام. لم ينجم عن الحرب على العراق المتصالح مع إيران، بل كانت الحرب هي ضمن سياسة «الاحتواء المزدوج» التي كانت موجهة ضد البلدين معا، والتي بدأها بوش الأب، وواصلها بيل كلينتون بعد حرب الخليج عام ١٩٩١.

وكما جاء في الفصل الأول كان من تبعات الحرب الإيرانية/العراقية خلق حالة طوارئ أدت إلى وجود دولة أكثر مركزية وسلطوية فرضت مزيدا من الأسلحة، وقمع النساء واليسار العلماني والقوميين. كانت سنوات الحرب قد عملت على تراجع القومية الإيرانية وزيادة مظاهر التدين. من ثم، وكما هو الحال دائما، أنتجت الحرب دولة قوية وساعدت على تشكيل السياسات الداخلية والخارجية. أتاحت للأجنحة المحافظة من الإسلاميين تدعيم سطوتهم، وبمرور الوقت، نجم عن تهديد الغرب المستدام بالحرب على إيران، وفرضه العقوبات عليها، مستوى متعاظم من القمع السياسي. وطوال التسعينيات وحتى الآن، وفي ظل حكومة خاتمي الإصلاحية (١٩٩٧-٢٠٠٥) وحكومة أحمدي نجاد المحافظة منذ عام ٢٠٠٥، استمر عدااء الغرب لإيران، على الرغم من حقيقة أن النظامين تبنيا النيوليبرالية الاقتصادية، ودعوات في مناسبات عدة، إلى تحسين العلاقات مع الغرب.

ظلت ثمة تقارير؛ منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١، بأن الولايات المتحدة تخطط لضربة عسكرية ضد إيران. ذهب سيمور هيرش الكاتب والمحقق

الصحفي، والذي يكتب بانتظام في دورية النيويوركر، ذهب إلى أن الاستعدادات للحرب على إيران بدأت عام ٢٠٠٢. بعيد انتخاب جورج دبليو. بوش، دعا علناً وبوضوح إلى «تغيير النظام» في إيران. تقول التقارير أن ديك تشيني، نائب الرئيس أعد في عام ٢٠٠٥، خطة للحرب على إيران تشمل استخدام الأسلحة النووية. كانت الخطة تقضى بنشر ٢٠٠ قاصفة استراتيجية ضد ١٠٠٠٠ هدف، قُدِّر فيها قتل ٢ مليون شخص في وقت قصير.

وعلى الرغم من التهديدات المستدامة بالحرب، قامت إيران في عامي ٢٠٠١ و٢٠٠٢، في ظل إدارة خاتمي، وفي عام ٢٠٠٨، في عهد أحمدي نجاد بتقديم مجموعة من المقترحات إلى الولايات المتحدة تضمن استقرار الوضع في أفغانستان، وحلاً للصراع الإسرائيلي الفلسطيني. كان ما طالبت به إيران نظير ذلك هو ضمان بعدم هجوم الولايات المتحدة عليها أو محاولة فرض «تغيير النظام» بالقوة، وبأن ترفع الحظر على عضوية إيران لمنظمة التجارة العالمية. ومن المفارقات، أن كان رد فعل إدارة بوش هو مزيد من العداء. قام بتزويد إسرائيل بأسلحة خاصة لتهديد إيران. تعمل القوات الجوية الإسرائيلية (والتي هي الأكثر تقدماً وتطوراً من قوات أي من بلاد الناييتو باستثناء الولايات المتحدة) من قواعد أمريكية موجودة شرقى تركيا و تقوم بطلعات مستدامة حول الحدود الإيرانية بهدف تهديد إيران.

علاوة على ذلك، فإن إيران، منذ احتلال الولايات المتحدة للعراق، وغزو قوات الناييتو لأفغانستان، ونشر الولايات المتحدة لقوات هائلة في الخليج وتركيا وباكستان، والتواجد العسكري الأمريكي المؤيد في أذربيجان، فإن إيران محاطة بقوات عسكرية أمريكية وقوات متحالفة معها. وفي عام

٢٠٠٧ بدأت الولايات المتحدة في إنشاء قاعدة عسكرية لها في العراق على مسافة أقل من خمسة أميال من الحدود الإيرانية.

أدت هذه التهديدات والعقوبات، وبدلاً من تغيير النظام، إلى معاناة الشعب الإيراني. أنشئت بنية إيران الأساسية، وبخاصة صناعتها النفطية وخطوط طيرانها المدنية، في عهد الشاه، وما زالت تعتمد على قطع الغيار المصنوعة في الولايات المتحدة وغير المتاحة في ظل نظام العقوبات المفروض نتيجة لهذا، تواجه الخطوط المدنية أخطار الحوادث. علاوة على ذلك، فإن للعقوبات أثراً ساعياً على قدرة إيران على إعادة بناء مصافيها النفطية وتحسينها، ومن ثم لا تقلص فقط صادرات نفطها الخام إلى الأسواق النفطية بل استخدامها محلياً. بل إنه حتى ما يُسمى بـ «العقوبات الذكية» التي تستهدف مؤسسات الدولة بما فيها الحرس الثوري. كان لها تأثير على عدد كبير من عامة الناس لأن هذه المؤسسات، هي في النهاية جزء من دولة إيران واقتصادها.

### تغيير النظام

ما زال الغرب مستمراً في خطاب «تغيير النظام» في إيران بأساليب متنوعة. في عام ٢٠٠٥، دعا مايكل لدين، من المحافظين الجدد، والذي يعمل بالأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت، دعا إلى فكرة وجوب فدرلة إيران. تقوم القوات الخاصة الأمريكية والاستخبارات الإسرائيلية والعملاء العسكريون، بعمليات سرية داخل إيران لإشعال النزاعات الإثنية في عدة أقاليم. يقول سيمور هيرش، إن كونجرس الولايات المتحدة وافق في عام ٢٠٠٧ على تصعيد كبير في العمليات السرية ضد إيران، وخصص ٤٠٠ مليون دولار لزراعة البلد من خلال التجسس على برنامج النوى واختراق الأقليات الإثنية.

وباسم تمويل الديمقراطية في إيران، خصصت كوندليزا رايس ٧٥ مليون دولار إضافية للإنفاق على وسائل الدعاية القائمة التي شملت بث التليفزيونات الفضائية مثل صوت أمريكا باللغة الفارسية، والتي تهدف إلى تغيير النظام في إيران. كان رد الحكومة الإيرانية هو اعتقال النشطاء وإغلاق كثير من المنظمات غير الحكومية. وفي عام ٢٠٠٨، خصصت «يوسايد» ٢٠ مليون دولار للمساعدة على «تعزيز الديمقراطية وحقوق الإنسان وحكم القانون في إيران». ظل كثير من نشطاء المجتمع المدني في إيران يدينون هذه التمويلات لأنها تؤدي إلى نتائج عكسية ويقولون إن الأموال لا تصل إلى الناس بل تذهب إلى المجموعات التي تتخذ الغرب مقرا لها مثل المجاهدين الإيرانيين والمجموعات المؤيدة للنظام الملكي. إن هذا التمويل الذي توسع في عهد جورج دبليو. بوش مازال مستمرا في عهد أوباما رغم تصريحاته بأن الولايات المتحدة لن تتدخل في الشؤون الإيرانية.

ومنذ انتخابات ٢٠٠٩ الرئاسية، والحركات التي تدعمها الغرب مثل مجاهدي إيران والملكيين، تحاول اختراق الحركة الخضراء. عمدت قيادات الحركة إلى النأي بنفسها عن هؤلاء المفرضين أو أفعالهم، وعن الحكومات الغربية من منطلق اعتقادهم أن هدف هؤلاء ليس هو نشر الديمقراطية وتعزيزها بل تحويل إيران إلى نظام تابع عميل ووقف برنامج إيران النووي وتغيير موقفها من إسرائيل. وكما ذكرنا في الفصل الثاني، فقد أعلن قادة حركة الإصلاح والديموقراطية مرارا أنهم لا يهدفون إلى تقويض الدولة الإسلامية، أو الاعتراف بإسرائيل أو تقليص تأثير إيران في المنطقة. وفي تلك الأثناء، تتواصل العمليات العلنية والسرية ضد إيران، الأمر الذي سيؤدي إلى إضعاف حركة الديمقراطية.

## القبلة النووية:

استخدم الغرب أيضا مسألة برنامج إيران النووي لدعم تهديداته وتبريرها، وفي هذا السياق، فمن المهم توضيح أن هذا البرنامج كان قد بدأ في الخمسينيات والستينيات بتشجيع تكنولوجي وسياسي من الولايات المتحدة. توقف برنامج إيران النووي لخمس سنوات بعد سقوط الشاه وثورة ١٩٧٩. وأثناء الحرب العراقية، عمد صدام حسين إلى قصف مواقع إيران النووية عدة مرات وبعد الحرب، وقّعت إيران مع الاتحاد السوفييتي معاهدة تعاون نووي لبناء موقع بوشهر في جنوب البلاد. وفي عام ١٩٩٥ وقّعت إيران اتفاقية أخرى مع روسيا لإعادة بناء المفاعل النووي وتقديم الدعم التكنولوجي لإنتاج الطاقة النووية بإيران. ومنذ وقتئذ والولايات المتحدة وإسرائيل تتهمان إيران بتطوير أسلحة «دمار شامل». بيد أن إيران هي إحدى الموقعين على معاهدة منع الانتشار النووي، ومثل بقية الموقعين، يؤكد البند الحادي عشر من هذه المعاهدة على حق الموقعين في إنتاج الطاقة النووية من أجل الاستخدامات السلمية. وقد صرحت إيران تكرارا بأنها ملتزمة بإجراء المفاوضات، بدلا من المواجهة، مع القوى الغربية، من موقع الندية، للوصول إلى حل سلمي للمسألة النووية. كما أن مسئولها صرحوا أيضا بالتزام إيران بعدم انتشار الأسلحة النووية، بل ونزعها والقضاء عليها على مستوى العالم، لأن مثل تلك الأسلحة تعتبر تهديدا لأمنها وللحياة البشرية جمعاء. من ثم، فقد أعلنت استعدادها للالتزام بنصوص معاهدة منع الانتشار النووي وبالعامل على إنشاء منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل في الشرق الأوسط. ومقابل ذلك، وبضغط من المحافظين الجدد في الولايات المتحدة وداعميهم الدوليين، ظلت إيران تواجه التهديدات

والترويج بناء على تكهنات لا أساس لها بنواياها لإنتاج أسلحة دمار شامل.

أيضاً، استخدم الإعلام والسياسيون الغربيون تصريح أحمدى نجاد الذى ينكر فيه الهلوكوست ذريعة لشيطنة إيران وتمهيد الطريق لتوسيع مدى الحروب القائمة بالمنطقة لتشمل إيران، ربما كان موقف الرئيس الإيراني يمثل محاولة ساذجة منه لتأكيد وضعه القيادى فى المنطقة، وفيما أنه يجب شجب مثل هذه التصريحات بأسلوب مطلق فلا بد من القول إن إنكار الهوكوست والمشاعر المعادية للسامية قد أصبحت منتشرة فى المنطقة<sup>(١)</sup>، وهذا أمر يبعث على عميق القلق إذ إن هذا النمط من معاداة السامية بجذوره الأوربية لم يكن معروفاً فى العالم الإسلامى، وثمة أدلة كثيرة على التعاون بين اليهود والمسلمين وقت ازدهار الحضارة الإسلامية، وكما ذكرنا فى الفصل السادس، فإن تصاعد معاداة السامية سببه إسرائيل وسياساتها الصهيونية العدوانية. يسعى أحمدى نجاد،

---

(١) ليس أحمدى نجاد وحده هو من ينكر الهلوكوست، فقد أنكرها مؤرخون غربيون انتهى بهم الأمر إلى فقدان وظائفهم ومحاكمتهم كما أن ثمة شبه إجماع على أن النازيين لم يرتكبوا البشاعات فى حق اليهود وحدهم بل فى حق كثير من الأقليات مثل العجرب بل وبعض الألمان المسيحيين، وكل من لا ينتمى للجنس الأرى، علامة على ذلك، لم يتعرض يهود إسرائيل ومثنتوها فى غالبيتهم للاضطهاد، بل إن بعض مؤسسى الحركة الصهيونية تعاونوا مع النازيين فى مجالات عدة مالية وسياسية (انظر كتاب لنى برنر «٥١ وثيقة، تعاون الصهيونية مع النازيين») لكن إسرائيل جعلت من الهلوكوست صناعة تبتز بها العرب وتُرهب بها كل من يحاول نقد سياسة إسرائيل، (انظر «صناعة الهلوكوست» للكاتب اليهودى نورمان فنكلشتاين) أما القول بأن إنكار الهلوكوست والمشاعر المعادية للسامية أصبحت منتشرة فى المنطقة فهو قول مغلوط، لأن المشاعر المنتشرة هى معاداة السامية والسياسة الإسرائيلية العدوانية التوسعية إذ إن «معاداة السامية» فكرة ومصطلحاً وممارسة هى إبداع غربي ولا علاقة لعالمنا به. (الترجمة)

من خلال مثل تلك التصريحات إلى تعزيز وضع إيران في العالم الإسلامي وبخاصة في وقت يحاول فيه الساسة الغربيون والإعلام الكوكبي إثارة المشاعر المعادية للشريعة في المنطقة وبث الفتنة المذهبية.

وعلى الرغم من الدعاية الإعلامية حول برنامج إيران النووي فقد أوضح «تقرير الاستخبارات القومية NIE» الأمريكية حول إيران أنه ليس لدى إيران برنامج لإنتاج الأسلحة النووية على عكس ما تزعمه السى أى إيه. وعلى الرغم من ذلك أعلنت إدارة بوش وإسرائيل، في عام ٢٠٠٨، أن هذا التقرير لن يغير سياستهما تجاه إيران.

تذهب سيدة لطفيان، وهي متخصصة إيرانية تعارض إنتاج الأسلحة النووية، إلى أن تهديد إسرائيل والولايات المتحدة بشن عدوان مسلح على إيران، أدى إلى مناقشات في أوساط صناع القرار، والأكاديميين، والسياسيين في إيران حول القضايا النووية، وبتحليلها لتلك النقاشات وجدت أن الإيرانيين من جميع الأطياف السياسية منقسمون إلى معسكرين يؤيد أحدهما المضى قدما في البرامج النووية ويعارضهم المعسكر الآخر. ومن موقعها كمعارضة، تؤكد لطفيان أن «من مسئوليات المجتمع الدولي تلافى أية إجراءات قد تؤدي إلى رد فعل إيران إما بالانسحاب من معاهدة منع الانتشار النووي أو الإسراع في تحديث أسلحتها».

تدعم غالبية الشعب الإيراني من جميع الانتماءات السياسية، وبغض النظر عما يوجهونه من نقد للحكومة، حق بلدهم في الدفاع عن نفسه ضد أي تهديد من إسرائيل أو الولايات المتحدة. يرى الشعب الإيراني إسرائيل على أنها قوة نووية كبرى لديها احتكار إقليمي للردع والابتزاز النوويين، ويوضعها كقوة نووية، فقد انتهكت إسرائيل دوما القانون



الدولى، ومضت تشن الهجمات على الفلسطينيين والسوريين واللبنانيين وتوجه التهديدات ضد إيران بأسلوب مستدام. وفى هذا السياق، تدعم شعوب المنطقة امتلاك بلادهم للقوة النووية، ويتسألون عن سبب تجاهل الولايات المتحدة وإسرائيل مطالبات مصر، وهى دولة حليفة للغرب وموقعة على معاهدة عدم الانتشار النووى، جعل الشرق الأوسط منطقة خالية من الأسلحة النووية. ذكرت فى تمهيدى لهذا الكتاب تعليق حارس الأحذية فى أحد مساجد القاهرة الذى امتدح به إيران وعبر عن أمنيته فى أن تمتلك إيران القنبلة. وتوضح التعليقات التى سمعتها والتى تعبر عن مشاعر مماثلة، شعبية إيران فى المنطقة، وكيف أن الكثيرين يرون تقدم إيران فى مجال التكنولوجيا وامتلاكها المعركة التكنولوجية واحتمال إنتاجها للأسلحة النووية على أنه رد إيجابى من دولة مسلمة على ممارسات الغرب وإسرائيل العدوانية فى المنطقة.

يرى باحثون ومعلقون من أمثال تشومسكى، أن الولايات المتحدة وإسرائيل تريدان منع إيران من امتلاك أسلحة نووية ليس لأنها ستشن عليهما أو على دول المنطقة هجوماً - لأن هذا سيكون انتحاراً بلا شك - بل لأن امتلاك إيران لمثل تلك الأسلحة سيجعل منها قوة ردع فى مواجهتهما. وتوضح العلاقات بين باكستان والهند وإسرائيل (وكلها دول نووية) وبين الغرب بما لا يدع مجالاً للشك أنه فى حال أصبحت إيران نظاماً عميلاً للغرب ستكسب كل الدعم لبرنامجها النووى بل وربما لإنتاج أسلحة نووية. ومن الواضح أن العداء الذى يبديه الغرب لبرنامج إيران النووى هو فى واقع الأمر بسبب أن إيران لم تعد دولة عميلة له ورغبته فى أن تصبح كذلك (الأمر الذى سيفيد بخاصة شركات النفط الأمريكية)، وأيضاً من أجل الحيلولة دون أن تطور إيران قدرات مستقلة

على توليد الكهرباء، وتوفير لنفسها الأمن في مجالات الطاقة المختلفة.

### دولة راعية للإرهاب:

ظلت الولايات المتحدة، والمملكة المتحدة، وإسرائيل منذ ثورة ١٩٧٩ تتهم إيران بأنها دولة راعية للإرهاب، وهو عامل آخر يُستخدم لإضفاء الشرعية على هجماتهم عليها. لكن فكرة تورط إيران في أية عمليات إرهابية، أو دعمها للإرهاب ليس لها أى أساس شرعى أو قانونى لأنه ليس ثمة دليل أو قرينة تدعم هذه المزاعم.

وكما أسلفنا، فإن دعم إيران لحماس وحزب الله ظل ذا طبيعة سياسية، علاوة على أن المنظمتين قد تحولتا منذ الثمانينيات إلى حزبين سياسيين لهما تواجدهما فى الحياة السياسية لبلديهما. قد يقال إن لكليهما جناحين عسكريين وإن بعض أنشطتهما شملت هجمات على مدنيين فى انتهاك للقانون الدولى، وإن بعض تلك الهجمات قد تعتبر «إرهاباً». لكن، وكما بينا فى الفصلين الرابع والسادس، فإن مساعدات إيران المالية للتنظيمين هى مساعدات حد أدنى كما أنهما ليسا بحاجة إلى دعم إيران العسكرى، إذ إنهما يستمدان جميع أنواع الدعم من شعوب المنطقة التى تعارض سياسات الولايات المتحدة وإسرائيل وممارساتهما العدوانية فى المنطقة.

يصور الساسة الغربيون والإعلام الغربى الشرق الأوسط على أنه منطقة يهيمن عليها المتطرفون الذين تدعمهم، جميعهم، إيران. وعلى النقيض من ذلك، فإن مجموعات الإسلام السياسى الساندة فى المنطقة تتسم بالاعتدال وتسعى لتحقيق أهدافها من خلال العمليات السياسية والانتخابية، أما هؤلاء الذين يستخدمون العنف والتطرف لبلوغ أهدافهم فهم الأقلية.

وفي الواقع، فإنه يمكن القول إن صعود التطرف في المنطقة، وعلى مدى عقود، هو نتيجة للسياسات والعلاقات الدولية. إن المملكة العربية السعودية، إضافة إلى إسرائيل، هي أهم حليف للولايات المتحدة بالمنطقة. أثناء الحرب الباردة، عملت الولايات المتحدة عن عمد مع الإسلاميين المحافظين المرتبطين بالسعودية لمجابهة اليسار العلماني والقوميين في المنطقة، وهي سياسة استمرت طوال الحرب السوفيتية في أفغانستان حيث جندت الولايات المتحدة المجاهدين الأفغان وعبأتهم وسلحتهم ودربتهم لقتال الاتحاد السوفيتي، أي أن الولايات المتحدة هي التي خلقت تنظيم القاعدة وطالبان اللذين انقلبا عليها فيما بعد مما أدى إلى أحداث ١١/٩/٢٠٠١.

علاوة على ذلك، فقد أدى احتلال العراق وغزو أفغانستان إلى وجود أراض جديدة لتدريب الإرهابيين الذين أصبحوا منتشرين في أنحاء العالم، بل إن بعض المراقبين والباحثين يذهبون إلى أن التحكم في موارد الطاقة في الشرق الأوسط والهيمنة السياسية والثقافية على المنطقة أصبحت لها الأولوية على مجابهة الإرهاب الذي يهدد الولايات المتحدة وبريطانيا. وكان مؤتمر لندن الذي عقد في يناير ٢٠١٠ دليلاً على ذلك، إذ أعلن رؤساء الدول الغربية والأمم المتحدة والنايتو، أن بإمكانهم، بمساعدة المملكة العربية السعودية تبادل المصالح والتعاملات مع طالبان بل حتى السماح لها، وهي التنظيم المسلح المتطرف، بالمشاركة في السلطة. وهكذا، وبعد ثماني سنوات من احتلال أفغانستان، وقتل ورفاة عشرات آلاف المدنيين والعسكريين، وتعاظم الفساد، وعدم تغير الأوضاع بالنسبة للشعب من حيث إتاحة فرص العمل والتعليم والرعاية الصحية أو تحسين وضع المرأة، يخطط الغرب

مرة أخرى للتواطؤ مع طالبان التي تتعاون مع تنظيم القاعدة وتتقاسم الأموال معها، والذين، معاً، يسيطرون على معظم البلد، ويمتلكون القدرة على الإطاحة بحكومة كرزاي. وفقاً لسوماس ميلن، فإن هذه السياسة لا تهدف إلى إنهاء الحرب حيث إن باراك أوباما مازال يرسل عشرات الآلاف من الجنود إلى أفغانستان، لكنها تهدف إلى شق صفوف طالبان والقاعدة كي تضمن الولايات المتحدة مصالحها الاقتصادية والسياسية في المنطقة.

### تراجع الهيمنة الأمريكية:

يرى كاليينيكوس (٢٠٠٢) وهارفي (٢٠٠٢) أن الولايات المتحدة تملك التفوق العسكري لكنها تواجه تحديات اقتصادية في الشرق الأوسط من أوروبا وروسيا والصين واليابان، التي تعتمد أيضاً على صادرات النفط [باستثناء روسيا] من المنطقة. أما الصين (تلك القوة الاقتصادية الكوكبية الصاعدة والتي تنافس الولايات المتحدة على مجالات سيطرتها)، فعلى الرغم مما للولايات المتحدة من تفوق عليها، فإن ذلك التفوق يكبحه بدرجة هائلة اعتمادها المفرط على تدفق رأس المال عليها من الصين ودول الشرق الأخرى. كان أحد أهداف «الحرب الكوكبية على الإرهاب» واحتلال العراق وغزو أفغانستان استخدام تفوق الولايات المتحدة العسكري لتعزيز سيطرتها على المنطقة وتذكير الجميع بتكلفة تحدي الهيمنة الأمريكية. بيد أنه، وعلى الرغم من أن ذلك التفوق العسكري كان كافياً لغزو أفغانستان والعراق واحتلالهما، فلم تتمكن الولايات المتحدة من التحكم في هذين البلدين أو في مواردهما، والنتيجة هي أن الولايات المتحدة وحلفاءها من الذيتو مازالوا غارقين في مستنقع تلك الحروب التي لا يمكن كسبها.

لتراجع هيمنة الولايات المتحدة تضميناته بالنسبة للتحالف بين إسرائيل وواشنطنون أيضا. يمثل مثل هذا التحالف قوة عسكرية هائلة مرعية في مواجهة التهديد الذي تمثله الحركات الإسلامية (الذي يماثل تهديد القومية العربية في الماضي) واحتوائه. بيد أن تنامي الحركات الإسلامية في المنطقة، وانتصار حزب الله على إسرائيل في عام ٢٠٠٦، وفوز حماس في الانتخابات التشريعية [وصمودها في مواجهة العدوان الإسرائيلي]، تمثل جميعها صعوبات مماثلة لكل من الولايات المتحدة وإسرائيل. حينما هاجمت إسرائيل لبنان في عام ٢٠٠٦، رأت إدارة بوش في الحرب على حزب الله، حليف إيران، فرصة لإضعاف الجمهورية الإسلامية بيد أن هزيمة إسرائيل في تلك الحرب، ركز الأنظار بوضوح على مأزق شرعية أمريكا الدولية إذ إن واشنطنون ولندن كانتا الداعمين الوحيدتين [على المستوى العسكري واللوجستي] لإسرائيل في تلك الحرب. قوى انتصار حزب الله وضعه ووضع إيران، ومن ثم، أضعف قبضة إسرائيل والولايات المتحدة. وبالمثل، فقد أدى انسحاب إسرائيل من غزة إلى تقوية حماس.

كان وصول باراك أوباما إلى الرئاسة بعد إدارة جورج دبليو. بوش التي ساءت سمعتها في جميع الأنحاء، محل ترحيب في أنحاء الكوكب، ورأى كثيرون في الولايات المتحدة أن هذا قد يؤدي إلى مداواة الجراح والندبات التي خلفها الاسترقاق والعنصرية في المجتمع الأمريكي. بيد أن السلطة التي يملكها رئيس الولايات المتحدة متناسجة بإحكام في سياسة واشنطنون الخارجية، وبخاصة سياستها في الشرق الأوسط. ولهذا أهمية خاصة اليوم في وقت تصارع فيه واشنطنون أزمة هيمنتها المتراجعة على النظام العالمي، تلك الهيمنة التي تتحداها الصين. من ثم،

نرى أن سياسة الولايات المتحدة التي تهدف إلى توكيد تحكمها الكوكبي على الموارد الاستراتيجية - والنقط بخاصة - وتوسيع مدى سطوتها عسكريا واقتصاديا وسياسيا مازالت مستمرة في عهد أوباما. اتضح هذا في خطاب أوباما الذي ألقاه أمام منظمة إيباك، اللوبي الإسرائيلي الرئيسي في الولايات المتحدة، قبل انتخابه وأكد فيه أن أمن إسرائيل مقدس وغير قابل للنقاش، وأن القدس ستظل عاصمة إسرائيل الموحدة الأبدية. كما أنه وعد إسرائيل بمساعدات قدرها ٣٠ مليار دولار على مدى السنوات العشر القادمة. كان خطابه بمناسبة العام الفارسي الجديد يوم ٢١ مارس ٢٠٠٩، وخطابه بجامعة القاهرة في ٤ يونيو ٢٠٠٩، قد ألحا إلى الخطو بعيداً عن سياسات بوش وتفهم لأسباب الاستياء من الغرب وعدم الثقة فيه في الشرق الأوسط، إلا أن كثيرين أظهروا تشككهم ورأوا أن خطابه كان بدون فحوى، وقد ثبت صحة هذا. لم تتعلم إدارة أوباما من فشل تلك السياسات وما أحدثته من قتل وتدمير لشعوب المنطقة، ولجيش الولايات المتحدة [بقدر]. من ثم، مازال فرض العقوبات، و«تغيير الأنظمة» وفرض «الديموقراطية» بأسلوب العراق وأفغانستان على الأجندة الأمريكية، وما زال تهديد إيران بالحرب قائماً. وعلى الرغم من أن أحادية القرار والتصرف غير محتملة في عهد أوباما، فإن استراتيجية تعددية الأطراف هي مجرد تعديل تكتيكي يعكس تكيفاً لإدراك أمريكا لحدود قوتها، لا إعادة توجه استراتيجي.

في فبراير ٢٠١٠، عاد أوباما إلى السياسة التي كانت سلطة دبلو. بوش قد انتهجتها إزاء إيران، ففيما ذهب دانييل باييس، عضو المحافظين الجدد، إلى أن الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها أوباما إنقاذ موقعه الرئاسي هو قصف إيران، جندت إسرائيل تهديداتها بشن الحرب

على إيران وحلفائها، حزب الله في لبنان، وحماس في فلسطين. وحينما وافقت إيران على شحن اليورانيوم المخصب إلى الخارج لمعالجته وإعادةه إليها على شكل قضبان وقود لأغراض الأبحاث، وكانت هذه صفقة تم الاتفاق عليها في جنيف في أكتوبر ٢٠٠٩، تجاهلت الولايات المتحدة والمسئولون الأوروبيون العرض وصاعدوا الاستعدادات العسكرية في الخليج. أمد أوباما الكويت، والإمارات العربية وقطر والسعودية والبحرين بما قيمته عشرات المليارات من الأسلحة الحديثة.

في مايو ٢٠١٠، طرح إعلان طهران المشترك بين البرازيل وتركيا وإيران حلاً يضمن ممارسة إيران الكاملة لحقها المشروع للاستخدام السلمي للطاقة النووية، ويقدم في نفس الوقت ضمانات بأن برنامج إيران هو حصرياً للاستخدامات السلمية. أزال هذا الإعلان العقوبات السياسية من أمام اقتراح وكالة الطاقة الدولية عام ٢٠٠٩. غيّر الرئيس أوباما، الذي كان قد رحب في إبريل ٢٠١٠ بتلك التفاوضات (إقناع إيران بإرسال ١٢٠٠ كجم من اليورانيوم منخفض التخصيب إلى تركيا لمبادلتها بقضبان وقود لمفاعل أبحاث طهران) غير موقفه بالكامل. تجاهلت وزيرة خارجيته، هيلاري كلينتون عرض البرازيل/ إيران/ تركيا وأعلنت بدلاً من ذلك عن مشروع قرار لمجلس الأمن الدولي لفرض عقوبات جديدة أكثر تشدداً على إيران.

بإمكان التهديدات المستدامة بالضربات العسكرية، والعقوبات، والعمليات السرية وتمويل «تغيير النظام» القضاء على حركة الديمقراطية القاعدية في إيران وزيادة تأثير إيران في المنطقة. كان لإرسال أوباما لمزيد من البوارج والصواريخ إلى الخليج أثر سلبي على حركة الديمقراطية في إيران إذ إن المحافظين داخل النظام يستخدمون

الضغوط الخارجية ذريعة إضافية للهجوم بضمراوة على نشطاء الحركة. وفي هذا السياق، فإن التاريخ يكرر نفسه: دمر الغرب في الماضي الحركات العلمانية والقومية التي كانت تناضل من أجل الديمقراطية والاستقلال في إيران وأنحاء أخرى من المنطقة؛ والآن، فهم يدمرون الإسلاميين المعتدلين من خلال التهديد المستدام بالتدخل العسكري. ووفقا لأطروحة هذا الكتاب، تناضل شعوب المنطقة من أجل الديمقراطية والتحرر من الصهيونية والإمبريالية. أوضحت تجاربهم التاريخية أنه بدون الديمقراطية والاستقلال، تفتقد حكوماتهم الإرادة والشرعية لتنفيذ التنمية الاجتماعية/الاقتصادية والسياسية المستدامة. إن عدااء الغرب لإيران وللحركات الإسلامية المعتدلة الحداثية في المنطقة يزيد من العدااء السياسى للغرب ولدولة العميلة، وسيعمل في النهاية على تقوية التيارات الإسلامية المحافظة والمتشددة في المنطقة. يوضح تاريخ النضالات السابقة ومسار الحركات المعاصرة في المنطقة أن أنظمة الهيمنة والاستغلال الكوكبية والمحلية التي لا تعمل إلا لمصلحة القلة، ستواجه دائما بالمقاومة. وفي هذا السياق، فحتى لو افترضنا المستحيل وأن حزب الله وحماس وإيران والإخوان المسلمين رأوا أنه من المناسب تغيير سياساتهم لتتطابق مع سياسات الولايات المتحدة وتضمن أن يكون لمصالح الولايات المتحدة الاقتصادية والسياسية الأفضلية على مصالح شعوبهم، فمن المحتم أن تظهر قوى تواصل المقاومة ضد مثل تلك التيارات والحكومات العميلة والإمبريالية والصهيونية.





لصویر

أحمد ياسين

لوینر

@Ahmedyassin90

---



---

صدر من هذه

---

السلسلة

١ - محمد (ص)

٢٠ - مؤامرة الغرب الكبرى

٢ - صدام الحضارات

٢١ - روسيا .. إلى أين

٣ - عصر الجينات

٢٢ - موسوعة الأم والطفل

٤ - القدس

٢٣ - الخدعة الرهيبة

٥ - العولة والعولة المضادة

٢٤ - نهاية الإنسان

٦ - التاريخ السري للموساد

٢٥ - خدعة التكنولوجيا

٧ - من يخاف استتساخ الإنسان؟

٢٦ - ٢٦٥ حثوة وحثوة

٨ - حريم محمد على

٢٧ - يوش ضد العراق ... لماذا؟

٩ - عولة الفقر

٢٨ - أين الخطأ؟

١٠ - صور حية من إيران

٢٩ - اللوب المزوج

١١ - البحث عن العدل

٣٠ - رجال بيض أغبياء

١٢ - لورانس: ملك العرب غير المتوج

٣١ - سادة العالم الجدد

١٣ - الصهيونية تلتهم العرب

٣٢ - الخطبة الأولى لإسرائيل

١٤ - معارك في سبيل الإله

٣٣ - اللعب مع الصغار

١٥ - التطبيع ومقاومة الغزوة الصهيونية

٣٤ - الإبادة السياسية

١٦ - التسوية: أي أرض.. أي سلام

٣٥ - حكومة العالم السرية

١٧ - المكنز الكبير

٣٦ - ما بعد الإمبراطورية

١٨ - الحق يخاطب القوة

٣٧ - يوش في بابل

١٩ - نساء في مواجهة نساء

٣٨ - المقاومة العراقية.. ومستقبل النظام

الدولى

- ٣٩ - تزييف الوعي
- ٥٨ - العين بالعين
- ٤٠ - القانون في خدمة من ؟
- ٥٩ - شافيز
- ٤١ - كفى
- ٦٠ - قصص الأشباح
- ٤٢ - معنى هذا كله
- ٦١ - حزب الله
- ٤٣ - حياة بلا روابط
- ٦٢ - الإنسان هو الحل
- ٤٤ - ٣٦٥ حذوة وحذوة
- ٦٣ - السيارات المفخخة
- ٤٥ - أنا والعولة .. عالم بديل ممكن ..
- ٦٤ - بلاكووتر
- ٤٦ - جسدى سلاحاً
- ٦٥ - حضارتهم وخلصنا
- ٤٧ - ثالث الشر
- ٦٦ - نحو الحرية .. نلسون منديلا
- ٤٨ - الحضارة الإسلامية المسيحية
- ٦٧ - العيد
- ٤٩ - أمريكا العظمى .. أحزان
- ٦٨ - مزرعة الحيوانات
- ٥٠ - الطريق إلى السويزمان
- ٦٩ - أطفال الإنترنت
- ٥١ - مدربون على القتل
- ٧٠ - لعبة الملايين
- ٥٢ - معاداة السامية الجديدة
- ٧١ - تجارة الجنس
- ٥٣ - إبادة العالم الثالث
- ٧٢ - الأمريكي الساذج
- ٥٤ - بيولوجيا الخوف
- ٧٣ - الأبرياء
- ٥٥ - لغز اسمه الأكم
- ٧٤ - الشباب والجنس
- ٥٦ - تعليم بلا دموع
- ٧٥ - التربية من عام إلى عشرين عام
- ٥٧ - أحمد مستجير
- ٧٦ - فلورانس وإداورد

٧٧- الجهاد في سبيل الحقيقة

٧٨- غاندي (٢)، رؤي، تأملات، اعترافات

٧٩- شرف البنات

٨٠- الزواج المحرم

٨١- أنبياء مزيفون

٨٢- إمبراطورية العار

٨٣- اختطاف أمريكا

٨٤- شريعة الجستابو

٨٥- رومانسية العلم

٨٦- اختفاء فلسطين

٨٧- من هم إسرائيل

٨٨- ثلاثون كتاب في كتاب

٨٩- اقتصاد الاحتياال البريء

٩٠- الله.. لماذا؟

٩١- الأمراض المعدي

٩٢- الطريق إلي بئر سبع

٩٣- مجمع الشيطان

٩٤- في ذكرى المقاومة

٩٥- خطابا تحرير المرأة

٩٦- دساتير من ورق؟

٩٧- صنّاع الملوك

٩٨- صناعة الاكاذيب

٩٩- عندما تحكم الصين العالم

١٠١- الحركة العامة للاقتصاد المصري

في نصف قرن

١٠٢ - رحلة السندياد

١٠٣- وجه أوياما الأبيض

١٠٤- تشي جيفارا سيرة للنشء

١٠٥- أنا أقترض.. أنا موجود

١٠٦- قصة فيس بوك

١٠٧- غواية الرجال

## قائمة المحتويات

٧	تمهيد
١١	مقدمة
٣٩	١- الإرث الثوري
٦٩	٢- الإصلاحيون والمحافظون والنضال من أجل الديمقراطية
١١٣	٣- الإسلاميون المحدثون
١٣٩	٤- علاقة إيران بـلبنان وحزب الله
١٧٣	٥- العلاقة بين إيران والعراق
٢٠٧	٦- العلاقة بين إيران وفلسطين وحماس
٢٤٩	٧- العلاقة بين إيران ومصر
٢٨٣	٨- السياق الكوكبي للدولة والمجتمع في إيران



لصوير

أحمد ياسين

لويئر

**@Ahmedyassin90**

---

إلهه روستامى - پوقى

## تأثير إيران ونفوذها في المنطقة

ترجمة: د. فاطمة نصر



الغلاف: حسين بن علي



تصوير  
أحمد ياسين  
نوبلر  
@Ahmedyassin90

همتي في كتابي هذا مزدوجة. أولاً، سأناقش ديناميات السياسة الداخلية في إيران منذ عام ١٩٧٩. فعلى مدى العقود الثلاثة الأخيرة، بزغت إيران كدولة دينية / سياسية- أي دولة دينية ذات تركيز كبير على الأيديولوجيات القومية والمعادية للإمبريالية. سيوضح تحليلي لإيران منذ عام ١٩٧٩ أن التناقضات المتأصلة في الدولة الإسلامية أخذت في العمل على تغيير حدود الإسلام المحافظ وفي سبيلها لأن تؤدي إلى ظهور حركة ديمقراطية مهمة.

ثانياً، أناقش المدركات الكوكبية والإقليمية عن سياسة إيران الخارجية منذ ثورة عام ١٩٧٩ والتي اكتسبت تأييداً لدى غالبية شعوب الشرق الأوسط. سأحاول تقديم الحجج على أن تأثير إيران ونفوذها يعكسان كيف أن الجماعات المتنوعة في البلدان المختلفة ترى سياسة إيران الخارجية نقبضاً لسياسة الولايات المتحدة الخارجية. وعلى الرغم من تنوع الهويات الدينية والقومية، تنماهي غالبية الشرق الأوسط مع موقف إيران ضد الولايات المتحدة وإسرائيل في مواجهة ما يسمى «الحرب على الإرهاب» والنيوليبرالية، وتوجهات المحافظين الجدد، والصهيونية.

يركز الكتاب أيضاً على حركة الديمقراطية في إيران التي تقود النضال ضد الاستبداد وتعمل على ترسيخ الحقوق الديمقراطية والفردية. إذ يعتقد الغالبية أن انتشار الفكر الأيديولوجي الحديث في سياق إيران والإسلام ويرفضون. في هذا السياق، الثنائيات المتعارضة مثل «الحديث / التقليدي» و «الغرب / الإسلام» ويحرصون على عدم تحديد حركتهم بصفاتها مجرد تابعة لـ «الثقافة الغربية أو محاكية لها». ذهب اليسار العلماني والقوميون داخل هذه الحركة إلى ما هو أبعد من ذلك ورأوا أن الديمقراطية لا بد أن تضم تمثيلاً أكبر للتنوع الاجتماعي في إيران.

إلهه روستامى - پوقى